نوابغ الفكر الغربي

٢١

هلدرلين

بقلم

الدكتور عبد الغفار مكاوى

دار المعارف بمصر

هلدرلين



نوابغ الفكر الغربي

٢١

هلدرلين

HÖLDERLIN

بقلم

الدكتور عبد الغفار مكاوى



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الإهـداء

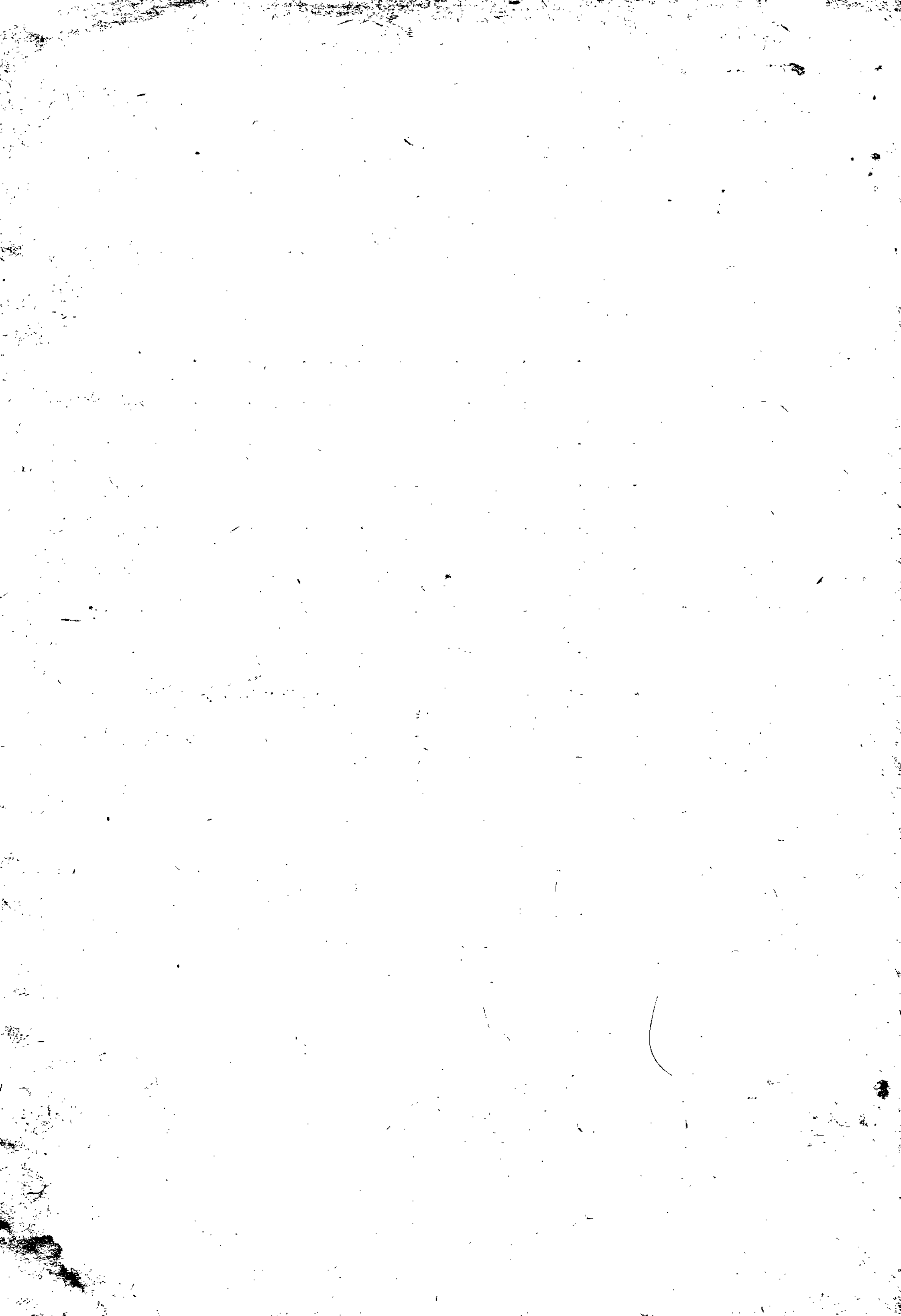
إلى أستاذى الدكتور عبد الرحمن بدوى

تحية التقدير ، للرائد الكبير



الفهرس

	الصفحة
تمهيد	٩
الوطن	٢٧
الطفل والصبي	٣٣
الثائر	٤٥
الوحيد	٧٠
العاشق	٨٨
العابد	١١٦
الصامت	١٤٤
لوحة بحياة هلدرلين وأعماله وعصره	١٥٧
نصوص مختارة	١٦٣



تمهيد

شعره صعب . . .

وهو – كحياة صاحبه – يفيض بالألم والعذاب ، وتحف به المخاطر والمتاعب والصعاب . هو كالطير الغريب الوحيد الذى يأتى من بلاد بعيدة ويسافر لبلاد مجهولة . وهو كالصوت الجليل المخيف الذى يعلن نبوءة الآلهة على لسان كاهن مذهول إلى إخوته من البشر الحيارى المذهولين . لكنه مع ذلك أو بسبب ذلك يلمس القلب ويهزه وينفذ إلى الأغوار . إنه ينقلك على الفور إلى الشاطئ البعيد ، يبكيك شوقاً إلى المثل العزيزة المستحيلة ، يملؤك إحساساً بالبطولة والانكسار ، بالنشوة والعذاب ، بالانتصار والاستشهاد . ليس غريباً أن يسمى صاحبه « شاعر الشعر » و « شاعر الشعراء » . وليس غريباً أن يتفق أهله وغير أهله على أنه من أعظم من أنشد الشعر فى لغته وفى كل اللغات ، ومن أعظم من تعذب به وجن بسببه . وكما تسكن جنيات البحر فى الماء ، سكن هذا الشاعر فى نبع الشعر . لم يكتف بالشرب منه أو التطهر بمائه أو سقى الندامى والعطاش . بل سكن فيه طول حياته ، حتى أصبحت الحياة عنده هى الشعر ، والشعر هو الحياة . لذلك كان الشعر بيته وحده ، نعمته ونقمته . كان قدره . .

* * *

ذلك هو فريدريش هلدرلين (١٧٧٠ – ١٨٤٣) الذى وهب الشعر كل شىء ، فأعطاه كل شىء وأخذ منه كذلك كل شىء . أعطاه سره الخالص ، وامتلك فى مقابله كل حياته الواعية وغير الواعية . ثم هوى به فى ليل الجنون الطويل فعاش نصف عمره الأخير فى ظلامه . ولعله قد عرف أن الفن أشبه بإله أسطورى نهم للدماء ، لا يرضى عن الضحية حتى يمتص آخر قطرة فى عروقها . عندئذ يمنحها البركة ويلقى عليها وشاح الخلود . وقد أخلص هلدرلين لفنه وخشع فى محرابه وقدم حياته قرباناً له . وأحس بفطرته النقية الورعة أن شجرة العبقرية تمد جذورها فى أرض التعاسة والعذاب والمأساة ، فلم تنمْ شجرته الطيبة حتى دفع الثمن بأكمله ؛ تجاهله عصره ، وانكسر قلبه ، وضاع فى المتاهة التى لا يرجع منها أحد . .

كانت نفسه الحيية الوديعة تطل من نظرات عينيه الطيبتين الشاردتين اللامعتين

ببريق غريب . كما كانت تطل من قسمات وجهه الجميل الرقيق . وكآبته ووحدته وعجزه عن التعامل مع الناس ، وإخفاقه المستمر فى الحب والحياة . ولكن هذه النفس الوديعة كانت تطوى فى أعماقها شاعرية تتأجج بالشوق إلى مثال عال يبدو كالقمة المختفية وراء الغيوم ، وتسعى لبعث الحياة فى شرايين عالم أسطورى جميل كان يزهو فى الزمن القديم بالآلهة والقديسين والأبطال الخالدين . وكانت هذه الشاعرية تنبع من حياة باطنية تائهة فى رؤية دينية وأسطورية عميقة . مستغرقة فى تجربة كونية محيطة بالقوانين الأبدية المتحكمة فى النشوء والتغير والوجود . مستسلمة للقوى الإلهية المسيطرة على القدر — القدر الذى شاء له الوحدة والعذاب والجنون . ومع ذلك استسلم له فى خشوع وانكسار . وظل يحييه فى كل أشعاره وينتظره ويبشر بموكبه الرائع . .

* * *

وهلدرلين شاعر متوحد ووحيد . .

ولا نقصد بتوحده ووحدته أن نرسم له صورة رومانسية حالمة تنشر حولها ظلال الحزن . فهذا أبعد شىء عن بالنا وأبعد شىء عن الصواب . ألم يقل فى مسرحيته التى سيأتى الحديث عنها إن التوحد هو الموت ؟ ألم يقل إن الحالمين يندر ظهورهم فى العهود الطيبة ؟ ألم يضع الإنسان فى قلب الشبكة التى تلتقى عندها خيوط الطبيعة والبشر والسماويين الخالدين ؟ ألم يتغن « بالروح الذى يشارك فيه الجميع » ، ويتحقق معه السلام بعد كل خصام . والانسجام والتجانس بعد كل نزاع وشقاق . ويرويه الإنسان بعرقه وجهده وجده ونشاطه ؟ ألم يؤمن دائماً بالفعل ، وبأن الشعر يمكن فى بعض الأوقات أن يهدى إلى الفعل ، بل أن يصبح هو نفسه فعلا ويصبح الشاعر إذا اقتضى الأمر ودعت المحنة ثائراً « يحطم أوتاره التعيسة ويحقق ما كان يحلم به الفنانون . . ؟ » .

نعم ! . كان هلدرلين فرداً وحيداً ، وكذلك يكون كل فنان وينبغى أن يكون . ولكن الفنان الصادق يعرف أيضاً أنه لن يكون فرداً بحق إلا إذا كان فرداً فى مجتمع ، ومن أجل مجتمع ، يعطيه ويبذل له من نفسه ، ويشقى لكى يسعد ويرقى . وها هو ذا هلدرلين يؤكد هذا المعنى فى قصيدة له (شجر البلوط) فيقول : « كل واحد منكم عالم مستقل ، أشبه بالنجوم فى السماء ، فعيشوا معاً فى اتحاد حر » . .

هو إذاً يريد أن يعيش الإنسان فرداً فى اتحاد حر أو جماعة حرة يقوم بين أعضائها حوار مشترك . وإذا كان قد اضطر أن يلوذ بوحدته فراراً من قسوة الحياة والمجتمع ، فإنه لم يمجد تلك الوحدة التى تعنى الانعزال والانطواء على الألم والمرارة .

وإذا كنا نقول إنه وحيد فإن وحدته لا تعنى انفراده فى مواجهة قدره البائس فحسب ، بل تعنى كذلك تفرده بين شعراء بلده وعصره . .

إن من الخطأ أن نحاول وضعه فى تيار أو حركة أو مدرسة أدبية ، لأنه سيخرج منها جميعًا ويبقى ظاهرة فريدة فى حياته وشعره جميعًا . قد يضعه بعض النقاد ومؤرخى الأدب فى الحركة الهيللينية الجديدة التى اتجهت للمحاكاة الخلاقة للروائع الإغريقية والمثل الإغريقية ، وقد يضمه البعض للتراث الإنسانى والدينى (البروتستنتى) بوجه عام أو لنزعة التصوف والتطهر التى ازدهرت فى منطقة « شفابن » التى نشأ فيها * ، وقد يتحدث عنه البعض حديثهم عن شاعر كلاسيكى أو رومانتيكى بحسب نظرتهم إليه من جهة الأسلوب الرصين والشكل المحكم أو من جهة العاطفة الأسيانة والموقف المأساوى الحزين . وقد نضمه إلى طائفة كبيرة من الشعراء من مختلف البلاد والعصور ، شاركهم الإيمان بوظيفة الشعر الدينية قبل كل وظيفة سواها . قد نفعل هذا كله ، ولكن هلدرلين يظل شاعراً وحيداً وفريداً بكل معنى الكلمة . . بل إن كتب تاريخ الأدب نفسها لا تضعه مع الكلاسيكيين ولا الرومانتيكيين ، وإنما تفرد له مكانًا بينهما مع أديب آخر عذبه قدره وصارعه حتى سقط ، وهو الكاتب المسرحى والقصصى العظيم هينريش فون كلايست .

ومن الصعب تفسير هذه الوحدة أو تحديد هذا التفرد . فهلدرلين شاعر اجتمعت فى إنتاجه الخصائص القومية والأجنبية . لقد تأثر فى صباه وشبابه الباكر بشعر « كاوبشتوك » (١٧٢٤ — ١٨٠٣) الدينى وعاطفته المتدفقة وعنايته بالبحور والأوزان القديمة . ثم تأثر بشعر « شيلر » (١٧٥٩ — ١٨٠٥) الفلسفى والمثالى ولغته الخطابية العالية قبل أن يكتشف لغته وأنغامه الخاصة به . كما تأثر منذ صباه بالشعراء والكتاب الإغريق والرومان الذين درسهم وأحبهم وترجم عن بعضهم — مثل بندار وسوفوكليس وأوفيد وفرجيل وهوراس — وشعره يحقق التآلف التام بين العاطفية والروحانية وبين ما سماه « سكون الجمال » ، بين الألم والجلال ، والعذاب والاحكام ، والرغبة فى الإصلاح إلى حد الغضب والتمرد ، والرؤية الغيبية المحلقة فى آفاق السماويين والخالدين .

---

* وهى المعروفة فى اللغات الأجنبية باسم البيتزم Pietism بمعنى تطهير القلب بالرحمة والتقوى والخشوع وتعمق التجربة الروحية والشخصية فى صلة الإنسان بالله والكنيسة والكتاب المقدس، بعيداً عن التزمت والالتزام الحرفى بالنصوص والطقوس، وقد كانت حركة بروتستنتية بلغت ذروتها من سنة ١٦٧٠ إلى سنة ١٧٤٠ وكان لها أثرها العظيم على الأدب الألمانى فى القرن الثامن عشر . .

وهو فى هذا كله لا يجاريه شاعر ألمانى آخر . فطبيعة موهبته الشعرية هى المسئولة عن تميزه ومأساته فى آن واحد . لقد كان شاعراً وحسب ، ولم يسمح له الشعر بأن يكون شيئًا آخر أو يطمح إلى شىء آخر . ولذلك عاش للشعر وهلك بسببه . وليس من الممكن أن نفصل بين شعره وقدَره . وليس من الممكن أيضًا أن نفصله عن تطوره المذهل فى غضون ست سنوات هى التى أتيحت له منذ بدأ يكتب شعره الناضج الواضح الصافى سنة ١٧٩٧ إلى أن بدأ يغوص فى لجة الجنون حوالى سنة ١٨٠٤ . أى منذ أن أصبح على وعى كامل برسالته كشاعر « وسيط » بين الرب والبشر ، واجبه أن يبلغهم وحيه الذى يهبط عليه ، على نحو يذكرنا بما كان يفعله الكاهن فى الديانات القديمة أو الشاعر بالمعنى العريق الأصيل (الفاتيس كما كان يسميه الرومان) * الذى يعبر كذلك عن الساحر والعراف والمتنبئ بالمستقبل ورائد القوم ولسانهم الناطق بوحى الأرباب والآباء .

* * *

ولد هلدرلين فى العشرين من شهر مارس سنة ١٧٧٠ فى بلدة « لاوفن » الصغيرة على نهر النيكر . ومات أبوه الذى كان معلمًا فى مدرسة الدير القائمة فى هذه البلدة وهو طفل صغير فتزوجت أمه عمدة مدينة « نورتنجن » . ودخل المدرسة اللاتينية فى هذه المدينة ثم انتقل منها إلى مدرسة الدير فى بلدتى ماولبرون ودنكندورف . واستجاب لرغبة أمه الطيبة المسكينة — التى كان يشعر أنه مسئول عن بكائها الذى لا ينقطع ، كما كان يحبها حبًّا يقرب من العبادة — فدخل معهد الوقف الدينى الشهير فى مدينة « توبنجن » ليدرس اللاهوت من سنة ١٧٨٨ إلى سنة ١٧٩٣ . واحتمل مرارة الحياة الخشنة الصارمة بين جدران هذا المعهد أو بالأحرى هذه الزنزانة اللاهوتية . ولكنه صمم بينه وبين نفسه على الهروب من أغلال اللاهوت والانصراف إلى موهبته الشعرية المتفتحة .

كان هلدرلين فى الثامنة عشرة من عمره عندما دخل هذا المعهد . وكان فى هذه الفترة متأثراً بشخصية شيلر وشعره الفلسفى ، فكتب قصائده الغنائية التى وجهها إلى المثل الإنسانية (كالحقيقة والحرية والجمال والصداقة والحب والشباب والجسارة) . ودخل « هيجل » (١٧٧٠ — ١٨٣١) المعهد نفسه فى خريف ذلك العام (١٧٨٨) وأصبحا صديقين حميمين ، وعاشا معًا فى حجرة واحدة من حجرات المعهد الرطبة المظلمة . ثم دخل « شيلنج » (١٧٧٥ — ١٨٥٤) المعهد بعدهما بسنتين ، وتعرف

---

* Vates يدل به الرومان على الشاعر الذى باركته الآلهة بوحيها فأصبح العراف ومنشد الشعب .

إليه الشاعر عن طريق هيجل . وكان شيلنج موضع إعجاب المعهد كله ، لصغر سنه وعبقريته المبكرة . ولكن الشاعر لم يستطع أن يكسب صداقته الحقيقية أبداً ، إذ كان الفيلسوف الصغير شديد الاعتزاز بنفسه ، ميالا إلى النفور بطبعه . أما هيجل فكان أقرب إلى نفسه . فقد جمعت بينهما طباع وعادات وتقاليد غرسها الوطن الواحد فيهما ، كما ألف بينهما الطموح الفكرى الذى لا يعرف حدًّا يقف عنده . واشتركا معًا فى قراءة أفلاطون وروسو وشيلر وكانْتْ ورسائل « ياكوبى » عن مذهب اسبينوزا ، وهى التى تعلم منها هلدرلين الكلمة اليونانية القديمة « الواحد والكل »[١] التى أثرت على حياته كلها بعد ذلك وظلت شعاره المعبر عن حضور الإله فى كل ما يتجلى لعينيه (وجدير بالذكر أنه سجلها فى ألبوم هيجل الشخصى سنة ١٧٩١) ! .

وإذا خرجنا من أسوار الدير الضيقة لنلقى نظرة على الحياة الفكرية والروحية فى ألمانيا فى ذلك الحين وجدنا هناك ثلاث قوى تطبع هذه الحياة بطابعها : بعث الروح الإغريقية ومحاكاة الروائع القديمة محاكاة خلاقة ، وازدهار الحياة الأدبية والفلسفية فى أواخر القرن الثامن عشر على يدى جوته وشيلر وكانْتْ وهمبولت وهيردر وأدباءحركة « العصف والاندفاع » ، والثورة الفرنسية التى أشرقت فجأة على القارة الأوربية كأنها فجر الخلاص والأمل فى الحرية وتقدم الإنسان ، وأرسلت عليها عاصفة مدوية تنذر بالقضاء على ظلم الاستبداد . ولا شك أن شباب ذلك الجيل والأصدقاء الثلاثة قد تعلقت أبصارهم بهذه الأنوار الساطعة وهبت عليهم نسمات من هذه العاصفة الجارفة على حين كانوا يستذكرون دروس الفلسفة واللاهوت فى حجراتهم البائسة . .

كان شباب الجيل مؤمنين بأن الإنسانية والجمال متجسدان عند اليونان على صورة نموذجية ، وكان هيجل وهلدرلين من أشدهم إيمانًا بهذه الفكرة . لقد سبقهما فنكلمان — مؤرخ الفن القديم وباعث الروح اليونانية الجديدة ببحوثه وأفكاره وإخلاصه المثالى فى الكشف عن خصائص تلك الروح* . وآمنا مثله بأن أفلاطون هو المعبر الأصيل عن تلك النزعة الإنسانية . واشتركا فى التحمس لهذه الروح وتزكية شعلتها فى نفوس أقرانهما وأبناء جيلهما . انطلق هيجل من فكرته العميقة عن القدر عند شعراء المأساة

---

(١) وكثيراً ما تكتب هذه العبارة بصيغتها اليونانية :
« هـن ْ كاى بان » Hen Kai Pan

* اقرأ عنه الفصل الذى كتبته بعنوان « الألم الجميل » وذلك فى كتابى :
« البلد البعيد » ، دار الكاتب العربى بالقاهرة ١٩٦٨ ص ٩ — ٢٤ . .

اليونانيين . ووجدها شيلنج متحققة فى أساطيرهم ونظرتهم الطبيعية القائمة على وحدة الوجود . أما هلدرلين فقد سبر أغوارها ونفذ إلى صميم قلبها عندما اكتشف أنها تعتمد على صلة القرابة الحميمة بين الطبيعة والبشر والأبطال والآلهة الخالدين . كانت التجربة الإغريقية فى نظره تعبيراً أصيلا عن علاقة الإنسان بالطبيعة . وكان فنهم تمجيداً للجمال الذى يقوم على هذه الوحدة الحيوية ، واحتراماً للعواطف العظيمة والانفعالات المقدسة . . وكانت طقوسهم وعاداتهم تخليداً للصداقة والرجولة والشوق إلى حياة بطولية رائعة . ولم يتخل هلدرلين أبداً عن هذه النظرة حتى بعد أن حاصره ليل الجنون . بل لقد زاده بؤس الحياة الاجتماعية شوقاً إلى ذلك العالم المنهار . .

أما الحركة الفلسفية فكانت قوة أخرى هزت عقول الشباب وقلوبهم . نادى كانْتْ وشيلر وفيلهلم فون همبولت بالحرية والمثالية والكرامة والشخصية الإنسانية المتجانسة الخلاقة ، وعبر عنها الكتاب والأدباء الذين ولدوا فى السبعينات من القرن الثامن عشر . وكان لكتابات شافتسبرى (١٦٧١ — ١٧١٣) وأشعار شيلر ورسائله الفلسفية والجمالية أثرها فى النظر إلى العالم بوصفه كلا واحداً متصل الأجزاء . وهذا الإحساس بكلية العالم — إن صح هذا التعبير — هو الذى جعل هلدرلين يبحث طوال حياته عن الرموز الشعرية الصالحة للتعبير عن العلاقة الباطنة التى تربط الإله بالطبيعة الحية . . بالإنسان أو بالأحرى بطبيعته الإلهية النبيلة . .

أما القوة الروحية الأخيرة التى هزت أبناء ذلك الجيل فهى الثورة الفرنسية . أحسوا أنها فتحت لهم أبواب عصر جديد وفجر جديد . وهل كان من الممكن أن ينجوا من سحر أفكارها وهم يرزحون تحت نير الطغيان الحاكم فى مدينة شتوتجارت وفى مدينتهم الصغيرة توبنجن ؟ وأسس الطلبة نادياً سياسياً انضم إليه الأصدقاء الثلاثة . وعندما أعلنت الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٩٣ أنها خلعت المسيحية عن عرشها ليبدأ عصر العقل احتفل الطلبة فى « توبنجن » بغرس شجرة الحرية فى ميدان السوق . وراحوا يغنون ويهللون ويرقصون حولها . بل إنهم فوجئوا ذات يوم بالدوق الحاكم يقف أمامهم فى قاعة الطعام بالمعهد الدينى ويلقى عليهم خطبة مملة غاضبة تنذرهم كل كلماتها بالويل والثبور بعد أن سمع عن أغنياتهم التى كتبوها عن الحرية وأناشيدهم التى رددوا فيها المرسيلييز ! . ومن يدرى ؟ فربما بلغت مسامعه إحدى القصائد التى تغنى فيها هلدرلين بالحرية و « بيوم الحصاد حين تحرز عصبة الأبطال النصر ، وتقفر كراسى الطغاة ويتعفن عبيرهم » .

لقد خيل إليه هو وأصدقاؤه أن ساعة الحرية قد دقت ، وأن البطولة الإغريقية بعثت حية فى أبطال الثورة الفرنسية . وانتظر الشباب من الثورة الفرنسية والفلسفة الكانتية والأدب الألمانى أن يرتفعوا بالوجود الإنسانى والعقل الإنسانى . وبدا أن المثل الأعلى الذى دعا إليه ليسنج واتخذ أشكالا مختلفة فى كتابات هيردر وجوته فى شبابه ثم اتخذ أشكالا أخرى أكثر عمقاً فى مسرحية « إفيجينيا » لجوته ومسرحية دون كارلوس لشيلر — بدا أن هذا المثل الأعلى قد أوشك على التحقق . وارتفعت الأصوات فى كل مكان منادية بالحرية والمثالية والنهوض بالإنسان والمجتمع . والتف الشباب حول « فشته » — زعيم الفلسفة المثالية ورائد موكب الحرية والقومية — فى مدينة « يينا » . وأعلن ناقد الرومانتيكية فريد ريش شليجل من برلين تأييده للفلسفة الجديدة والثورة الفرنسية بوصفهما أبرز اتجاهين فى حياة العصر . وظهر لكل إنسان أن الأدب والفكر هما الروضة الوحيدة المزدهرة وسط صحراء البؤس والظلم والإقطاع والاستبداد . .

* * *

عاش هلدرلين بعد تخرجه من المعهد الدينى فى توبنجن عشر سنوات مليئة بالحرمان والسعى الخائب من بيت إلى بيت فى سبيل لقمة العيش التى كان يشقى فى الحصول عليها بالدروس الخصوصية ، إذ كانت مهنة التعليم وتربية أبناء الأسر هى المهنة الوحيدة الباقية أمام المثقفين والأدباء البائسين الذين بخل عليهم الحظ برعاية ملك أو أمير . وحاول أن يستقل بنفسه ويتفرغ لرسالته وموهبته . وتوسط له شيلر عند السيدة « شارلوته فون كالب » التى كانت على صلة بالحياة الأدبية ، ليعمل مربياً لأبنائها فى بيتها ببلدة « فالترزهاوزن » (الواقعة فى منطقة تورنجن بالقرب من مدينة « جوتا ») . وهناك بدأ يكتب روايته « هيبريون » التى نشر شيلر شذرة منها فى مجلته « تاليا » . وأخفق فى مهمته التربوية . وتأكد له إخفاقه فى الحياة العملية عندما حاول بعد ذلك أن يستقر فى مدينة « يينا » — كعبة المثالية فى ذلك الحين — ويعمل مدرساً للفلسفة بجامعتها . وتبين له عجزه مرة أخرى عندما سعى للاتصال بفشته وجوته وهردر . فتجاهلوه ولم يستطيعوا تقدير موهبته حق قدرها . وشعر أن مثالية فشته وكلاسيكية عملاقى فيمار * أصبحت غريبة على روحه التى ارتفعت فوق حظوظ هذه الدنيا وتخلت عن كل طموح وعاشت للشعر وحده وفنيت فيه وحده . وأشفق شيلر عليه ورعاه رعاية إنسانية ثم بدأ يضيق به وانصرف عنه . ولا شك أن هذه التجربة كانت من أمر التجارب التى ذاقها فى حياته ،

* المقصود بهما جوته وشيلر . .

إذ كان شيلر موضع إعجابه واحترامه ومثله الأعلى . وعاد يجرب حظ المعلم الخصوصى البائس بعد أن أخفق فى الاستقلال بنفسه والتفرغ الكامل لشعره . وقضى ما يقرب من ثلاث سنين فى مدينة فرانكفورت فى بيت رجل من رجال المال والبنوك يدعى جونتار . وهناك لقى من المهانة ما لا تحتمله نفسه الحساسة المتكبرة . ولكن القدر عوضه عن ذلك حين وهبه النعمة الوحيدة التى عرفها فى حياته . فقد أحب سوزيته جنتار زوجة رجل البنوك والأعمال وبادلته السيدة الرقيقة حبه اليائس . ومدت يدها الحنون إلى روحه الغريقة فى الكآبة والظلام . ووجد فيها مثال الإنسانية الجميلة الطاهرة التى جعلته يشعر أنه قريب من الروح الإلهى الخالد . لا بل يشعر أنه تجسد حيًّا فيها ! إن الروح الإلهى لا يستطيع أن يؤمن به إلا الإلهيون كما سيقول فى إحدى قصائده المتأخرة . ولقد تمثل له الروح الإلهى فى الطبيعة والعناصر ، والسماء والأثير . والأرض والنهر . كما تمثل له فى « ديوتيما » التى يعيش الآن بقربها ويعبدها ويقدسها . كانت سوزيته هى « ديوتيما » نموذج الجمال والانسجام والحكمة الإغريقية الذى طالما داعب أحلامه وهو يكتب روايته الوحيدة أو يفكر فيها . بل كانت هى الروح الإغريقية نفسها التى طالما اشتاق إليها وانتظر ميلادها الجديد وتعزى بها عن محنة الظلم والفساد والاستبداد الذى انتشرت ظلماته من حوله . ولكنه اضطر أن يغادر البيت مهانًا مدحوراً . وافترق عن حبيبته التى لم تجد حيلة فى الفراق فحبست حبها فى صدرها الذى عشش فيه السل وافترس حياتها بعد ذلك بسنوات قليلة . وتعلقت عينه الباكية بتراث ذلك الشعب الذى أتاحت له طبيعته الحرة المتجانسة أن يتحد بالقوى الإلهية الغريبة على عصر يحيا ممزقًا بين الطبيعة والروح ، والواقع والمثال ، والشعور والوعى ، والموضوع والذات . . وكان شيلر قد ألم بنفس المشكلة فى رسائله الجمالية وقصائده الفلسفية وحاول أن يتغلب عليها بالدعوة إلى التربية الجمالية التى تعيد للإنسان توازنه وانسجامه . .

ولكن المشكلة أصبحت عند هلدرلين هى مأساة وجوده كله . وأصبح العالم الأسطورى الذى يحلم بإحيائه هو تجربته الكبرى ، ورمز الطهر والقداسة التى يراها ماثلة فى كل مظاهر الحياة والطبيعة . وصارت رسالة الشاعر فى رأيه هى إعادة القوى الإلهية إلى الحياة عن طريق التغنى « بالخالدين » ومناجاتهم بالكلمة الشاعرة . ولم تنفصل هذه التجربة عن تجربة الحزن العميق الذى أحسه وهو يعيش أسير قدر غريب على عالم الآلهة ، قدر يحطمه ويقهره ويدنس قداسته . لقد حكم على الإنسان أن ينتزع من أحضان الكل الذى كان يحيا معه فى سلام وألقى به فى هاوية الوحدة والضياع ، كما

حكم على الشاعر أن يواجه محنته ومحنة عصره البعيد عن نور الخالدين وحكمتهم وجلالهم ، وأن يتغنى بهذا العالم وينتظره ويذكر به البشر اللاهين عنه . .

* * *

عاش هلدرلين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ إلى شهر يونية سنة ١٨٠٠ مع صديقه ورفيق دراسته الحميم إسحاق فون سنكلير فى مدينة هومبورج القريبة من فرانكفورت . وأتم رواية « هيبريون » وبدأ العمل فى مسرحية « موت أنبادوقليس » ، وكتب عدداً كبيراً من قصائده الغنائية الكبرى ومقالاته الفلسفية . وحاول أن يؤسس مجلة « أيدونا » لنشر المبادئ الإنسانية التى يؤمن بها ، ولكن المشروع مات قبل ولادته . وعاد يهيم فى البلاد بحثاً عن لقمة العيش فعمل فترة قصيرة فى بلدة « هاوبتفيل » بسويسرا ثم هجرها وقام برحلته الأخيرة إلى مدينة « بردو » الفرنسية ليتولى تعليم أبناء القنصل الألمانى المقيم فيها . ولكنه لم يلبث أن ترك عمله فى ظروف غامضة ، وعبر الحدود على قدميه حتى وصل إلى وطنه وقد ظهرت عليه أمارات الاضطراب النفسى والعقلى . . . ورجع إلى بلدته « نورتنجن » وعاش مع أمه حتى سنة ١٨٠٤ . . وهناك عكف على ترجمة مسرحيتى أوديب ملكاً وأنتيجونا لسوفوكليس . وبعض قصائد « بندار » وأناشيده الأوليمبية والبيثية . وكتب مجموعة من أنضج أشعاره . وازداد عليه المرض فغادر بيت الأم وعاد يتنقل بين البلاد حتى استقر فى مصحة الأمراض العقلية فى مدينة « توبنجن ». ولما تأكد الأطباء من خطورة مرضه ويئسوا من شفائه تسلمه النجار الطيب « تسيمر » وآواه فى بيته فعاش فيه بقية عمره كالشبح الهادئ الهائم فى ليل الجنون . وأقبل الموت فخلصه من حامه أومن نومه الطويل فى اليوم السابع من شهر يونيه سنة ١٨٤٣ . .

* * *

ظل هلدرلين يقول الشعر حتى بعد أن غاب عن الوعى والحياة ولم يعد يهزه شىء مما يجرى حوله فى عالم السياسة أو الأدب* . ولكنه لم يزد عن بضع قصائد قصيرة أو أبيات قليلة كتبها مرضاة لزواره المحبين أو المتطفلين ، وكانت أشبه بالبروق المفاجئة أو الكلمات التى تند عن شفتى أخرس . أما قصائده الكبرى المتأخرة التى كتبها خلال

* عاش هلدرلين نصف عمره الأخير بالجسد وحده وغاب عن كل ما يدور حوله. فلم يتأثر مثلا بموت شيلر سنة ١٨٠٥ ، ولا بانهيار الدولة البروسية القديمة فى معركتى يينا وأورشتيت سنة ١٨٠٦ ، ولم تهزه حروب الاستقلال التى أعلنت على جيوش نابليون ، بل إن موت جوته سنة ١٨٣٢ لم يحرك فيه وتراً واحداً . .

صراعه مع المرض بين سنتى ١٨٠١ و ١٨٠٤ (كالعودة للوطن والتجوال ونهر الراين والاحتفال بالسلام والوحيد وباطموس وذكرى وإلى العذراء . . . إلخ وغيرها من القصائد التى ستجد مقتطفات منها فى هذا الكتاب) فقد أخذت تحلق فى أجواء بعيدة موغلة فى الغموض والوحشة والظلام ، وصارت كلماتها أشد وحدة وكتماناً مما كانت فى قصائده السابقة ، وطرقت معانى جديدة وصوراً ورموزاً كثيفة توشك أن تستعصى على الفهم . إنها الآن تأتى من بعد سحيق ، وتعبر عما يتعذر التعبير عنه . وتحطم القواعد المنطقية والنحوية ، وتميل إلى التركيز والانغلاق حتى تكاد الجملة أن تكون قوقعة مستقلة عن جاراتها ، وتكاد الكلمة أن تحمل من المعانى أكثر مما تحتمل . وتتعمد أن تخفى وتكتم أكثر مما تعبر وتفصح . ويبدو أن هلدرلين فى هذه الحالة العصيبة من حياته قد ازداد وعياً برسالته كشاعر عراف ملهم ومنشد وبشير ونذير ، بالمعنى الأصيل الذى أشرت إليه من كلمة الشاعر . لقد ابتعد عن عذابه الذاتى ، وأصبح شعره — إن جازت هذه الصفة ! — شعراً « موضوعياً » يعبر عن قوى كونية وإلهية أكبر منه ومن قدره ، واتحدت فى رؤيته صورة شعبه بصورة الشعب اليونانى القديم . وتعانقت الروح الكلاسيكية والروح المسيحية ، وديوتيما والعذراء ، وديونيزيوس والمسيح ، وآسيا وأوربا . لم يعد فى الحقيقة يكتب الشعر ، بل صار الشعر — كما قال رامبو عن نفسه — يملى عليه وينطق بلسانه ، كما أصبح كل ما يعنيه أن يقول كلمته ، سواء سمعها الناس أو لم يسمعوها :

لأن كل السماويين يطلبون الضحايا .
وكلما توانى الناس عن تقديمها
لم ينتج عن ذلك خير أبداً .
لقد خدمنا أمنا الأرض
وخدمنا — دون أن ندرى — نور الشمس [١]
فى هذا الزمن الأخير ،
أما أكثر ما يحبه الأب
الذى يدبر شأن جميع الكائنات
فهو أن نصون الحرف الثابت

---

(١) الفعل الأصلى يفيد الطاعة والعبادة والخدمة المبذولة .

ونفسر (التراث) القائم تفسيراً حسناً .
هذا ما تحرص عليه الأغنية الألمانية [١] .

* * *

ظهر الجزء الأول من رواية هلدرلين الوحيدة « هيبريون » أو الناسك فى بلاد اليونان [٢] فى سنة ١٧٩٧ . وقد وصفها بنفسه فقال إنها لوحة من الأفكار والمشاعر [٣] . والحق أنه صدق فى هذا الوصف الذى أطلقه عليها . فهى فقيرة فى الأحداث ، مفعمة بروح شاعرية فياضة بالأنغام العذبة المتألمة ، ولغتها عاطفية ساحرة الإيقاع محكمة البناء ، يشيع فيها لحن بكائى يجعلها قريبة من الصلوات والاعترافات والتراتيل الجنائزية . إنها تعبر عن سعادة إنسان استغرقته تجربة الحب والاتحاد بالطبيعة وشوقه اليائس للاتصال « بالكل » الإلهى . ولكن الواقع لا يلبث أن يصدمه فى سعادته وشوقه . ويكتشف له عن الهوة الفاصلة بين المثال والواقع والفكرة والفعل . .

وبطل الرواية شاب يونانى يحيا فى القرن الثامن عشر ويتطلع لإحياء ماضى شعبه . غير أنه يخفق إخفاقاً مراً فى بعث الإحساس بالعزة والنبل والجمال وغيرها من القيم الخالدة التى عرفها فى تاريخه المجيد . وتدور الرواية فى إطار تاريخى هو الثورة التى قام بها الشعب اليونانى فى سنة ١٧٧٠ للخلاص من نير الحكم التركى . ويحكى البطل الشاب هيبريون قصة حبه وكفاحه واتحاده بالطبيعة « الإلهية » فى سلسلة من الرسائل الشاعرية إلى صديقه الألمانى بيلارمين . فقد عاش فى صباه فى عالم أسطورى هداه إليه معلمه أداماس ، وهو عالم زاخر بآلهة الإغريق وأبطالهم الذين أرخ لهم بلوتارك . وعثر على « ديوتيما » فوجد فيها مثال الجمال والحب والبراءة ، بل وجد الروح الإلهى نفسه مجسماً فيها . وتندلع نار الثورة فيهب البطل للكفاح مع الشعب المقهور لاسترداد حريته . ويشجعه صديقه « ألاباندا » ويقوى فى نفسه الإيمان بالمستقبل السعيد . ولكن سرعان ما يخيب أمله فى صديقه إذ يكتشف أنه عضو فى جماعة سرية أفرادها أبعد ما يكونون عن تحقيق مثله وآماله . ويلجأ إلى جزيرة كالاوريا فيجد شفاءه فى حبه لديوتيما الجميلة . وتدعوه الحبيبة لأداء واجبه نحو الوطن بعد رجوعه إلى صديقه القديم الذى يتأكد من نبله

---

(١) عن قصيدة « باطموس » التى تجد نماذج منها فى هذا الكتاب .
(٢) وذلك بعد أن نشر قبل ذلك صيغة مبسطة لها تحت عنوان « شباب هيبريون » ثم عالج صياغتها عدة مرات من بينها معالجة شعرية ..
(٣) فى رسالة كتبها إلى صديقه نويفر فى شهر يوليو سنة ١٧٩٣ .

وتضحيته . وتقول له الحبيبة التى تشجعه على النضال فى سبيل الحرية : « أنت الذى ستربى شعبنا » . وتفصل الثورة بين المحبين . وتذبل الحبيبة وتدفن حبها فى صدرها قبل أن تدفنه معها فى قبرها . . ويمضى هيبريون مع صديقه للكفاح فى سبيل مملكة المثل الأعلى والحرية والجمال . وينتصر الثوار ويفتحون مدينة ميسيسترا أو إسبرطه القديمة . ويكتشف أن رفاق الثورة قد قتلوا ونهبوا ودمروا وأفسدوا بلا خلق أو ضمير . وتتبدد المثل فى غبار المذبحة ، وتسقط الأحلام الوردية تحت سنابك الخيل وجثث القتلى . ويعرف أن الفعل يلوث ، وأن ساعة ميلاد الحياة الجديدة والإنسانية الجديدة لم تدق بعد . وأن العصر الذى يعيش فيه لم يزل بعيداً عن « العصر الذهبى » الذى تزدهر فيه الحرية والوحدة والكرامة والجمال والسعادة . وينفض يده من الثورة والثوار . وينضم فترة من الزمن للأسطول الروسى الذى كان فى حرب مع الأتراك ثم يهجر العمل فيه . ويبلغه نبأ وفاة حبيبته بعد صراعها مع المرض والحب اليائس ، ويتحول فى النهاية إلى التنسك فى معبد الطبيعة ، ويتجه إليها بكل كيانه . ويعانق الحياة الإلهية التى تطالعه فى كل مظاهرها : « أنت أيتها الطبيعة . . هكذا فكرت فى أمر إلهتك . لقد أفقت من حلم البشر ، وأقول الآن أنت وحدك التى تحيين حقـًا . وكل ما افتعله المزعجون وتفننوا فيه يذوب كلآلئ الشمع فى نار لهيبك . . . إن الناس يسقطون كما تسقط عنك الثمار الفاسدة . دعيهم يسقطون وسوف يعودون إلى جذعك مرة ثانية . ودعينى يا شجرة الحياة أخضر على غصونك من جديد وأستنشق بعمق وسلام نسيم ذراك وفروعك وبراعمك النضرة ، لأننا جميعـًا قد نمونا من البذرة الذهبية » . .

ومن الصعب أن نصور روعة اللوحات التى تصف الطبيعة فى بلاد اليونان . أو رسائل الحب المتبادلة بين هيبريون وحبيبته ديوتيما . فهى نماذج خالدة فى أدب الحب والمحبين . ويكفى أن نقرأ هذه العبارات التى تأتى فى ختام الرواية معبرة عن رؤية الشاعر وفكره ، شاهدة على السلام الذى استظل به فى محنته ، واطمأن إلى روحه الهادئ فى أثناء حياته وبعد جنونه ، وقوى فى نفسه الأمل فى الخلود والثقة فى عودة الخالدين :

« أيتها الروح ! أيتها الروح ! أنت يا جمال العالم ! أيتها الصامدة ! يا واهبة النشوة والبهجة والنعيم بشبابك الخالد ! أنت حية وباقية . وما الموت وكل آلام البشر بالقياس إليك ؟ آه ! كثيرة هى الكلمات الجوفاء التى اخترعها هؤلاء المدهشون . فكل شيء يصدر عن الفرح وينتهى إلى السلام . وكل مظاهر الشذوذ والنشوز التى

نراها فى العالم أشبه بالخلافات التى تقع بين العشاق . إن الوفاء موجود فى صميم الشقاق ، وكل ما تفرق سيلتقى من جديد » . .

إن البطل الحقيقى فى هذه الرواية هو الطبيعة المثالية التى تحاول أن تفرض نفسها على العالم كله ، ولكنها تصاب بخيبة الأمل فى الواقع فترجع إلى عالمها الباطن ، أى إلى الفكر والشعر والحلم والانتظار . وهيبريون هو هلدرلين نفسه ، بكل مثله وأشواقه إلى إنسانية أرقى وعصر أجمل، باتحاده بالطبيعة الإلهية مصدر كل أمومة وحياة، ودموعه التى لا تجف على ماض يتمنى لو يعود . .

وقد كتبت الرواية بغير شك تحت تأثير « روسو » واتجاه الثقافة فى ذلك الحين إلى « الباطن » وتربية الشخصية الفردية بالجمال والكمال . فقد كانت الشخصية هى أقصى سعادة ينالها أبناء الأرض كما عبر عن ذلك شيلر . وكان معظم الكتاب والشعراء يسجلون تجربتهم مع الحياة والحب والطبيعة والمجتمع على لسان بطل يتقلب بين النجاح والفشل والسعادة والشقاء . . وتوالت الروايات « التربوية » التى تتتبع حياة إنسان — شاب فى أغلب الأحيان — فى رحلته لمعرفة نفسه ومجتمعه وعالمه . ولذلك فإن « هيبريون » تعد حلقة فى سلسلة هذه الروايات التى بدأها فيلاند بروايته « أجاتون » وكارل فيليب موريتس برواية « أنطون رايزر » وجوته برواية « فيلهلم ميستر » وجان باول « بهسبيروس » ونوفاليس بروايته التى لم تتم «هينريش فون أو فتردنجن» ، وكلهم شباب يبحثون عن أنفسهم ومعنى وجودهم فى الحب والفعل والحياة والمسرح والأدب والطبيعة . .

* * *

أما مسرحية « موت أنبادوقليس » التى كتبها هلدرلين بين سنتى ١٧٩٨ و ١٧٩٩ فهى مسرحية شعرية غنائية أو بالأحرى قصيدة درامية صاغها ثلاث مرات وظلت مع ذلك شذرة لم تتم . .

ولم يقصد هلدرلين أن يضعها للمسرح . ولا يمكن أن نطبق عليها أصول المسرح وقواعده كما تصورها كتاب مثل لسينج ، بل يجب أن ننظر إليها على أنها قصة نفس وحيدة فى صراعها الباطن مع قدرها وأقدار عالية غير منظورة ، بعيداً عن ضجيج الحياة اليومية وكل ما يأتى من العالم الخارجى . ولذلك فهى أبعد ما تكون عن دراما الحدث والمشاهد المتنوعة والمصائر والشخصيات والانفعالات المتطرفة كما نجدها مثلا عند شكسبير . وإذا بحثنا لها عن مكان فى سياق التطور المسرحى فليكن مكانها مع الدراما النفسية بين مسرحيات سوفوكليس وراسين وجوته . لقد حاول هلدرلين ن يعبر فيها عن مرارة الإخفاق

الذى أحسه شاعر أراد أن يبشر بعالم مثالى وتم له ما أراد ، ولكن لم يفهمه أحد فى عصره واضطهده مواطنوه وطردوه من مدينته . .

صور هلدرلين تجربته الشخصية والشعرية فى صورة ذلك الفيلسوف الطبيعى القديم الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد فى مدينة أجريجنت عاصمة جزيرة صقلية ، وروى عنه أنه اختار الموت بإلقاء نفسه فى فوهة بركان إتنا . وهو شخصية عجيبة اختلط فيها الواقع التاريخى بالأسطورة والخرافة . كان فيما يروى عنه شاعراً وفيلسوفاً وكاهناً وسياسياً وخطيباً وطبيباً وساحراً ، كما كان مصلحاً دعا إلى ديانة روحانية تكون أساساً لنظام الحكم والحياة . ويذكر عنه فى تاريخ الفلسفة والعلم أنه قال بقوة الحب التى تؤلف بين أجزاء العالم ، والعلاقة الحميمة التى تجمع الكائنات ونوع من تقمص الأرواح . وكلها آراء شديدة القرب من روح هلدرلين الذى جذبته شخصية هذا الفيلسوف العجيب . . ويقال أيضاً إنه نشأ فى أسرة نبيلة فى مدينة أجريجنت وشارك فى سقوط النظام الأرستقراطى الذى تولى الحكم لفترة قصيرة ثم أصبح زعيم الحزب الديموقراطى المنتصر ورفض التاج الذى قدمه له أهالى صقلية ثم اضطره خصومه بعد ذلك إلى مغادرة وطنه . .

وجد هلدرلين فى شخصية أنبادوقليس الرمز الحى المعبر عن رسالته التى شعر أنه مدعو لتبليغها . فهو شاعر وفيلسوف وساحر استطاع أن يسيطر على قوى الطبيعة ويكتشف أسرارها ، وهو قائد متكبر شامخ أراد أن يصلح الأحوال فى مدينته ويخلص أهلها من عبودية الكهنوت والتقاليد ، ويهديهم إلى الاتحاد بالروح الإلهى الماثل فى كل مظاهر الكون فرفضته المدينة وطاردته نظمها المستقرة واتهمه الكهنة بالغرور وإذاعة أسرار الآلهة والتشبه بها . .

ويبدو أن هلدرلين كان يفكر فى كتابة مسرحية عن سقراط وموته الذى اختاره بإرادته عندما جذبته شخصية أنبادوقليس بغموضها وسحرها وكبريائها وتضحيتها وزهدها . ويبدو أيضاً أنه شغل بهذه المسرحية أثناء كتابة روايته هيبريون التى نقرأ فيها هذه السطور « بالأمس كنت هناك فوق بركان " إتنا " وخطر الصقلى العظيم على بالى ، ذلك الذى سئم عدّ الساعات ودفعته صلته الحميمة بروح العالم وفرحته الجسورة بالحياة إلى إلقاء نفسه فى اللهب الرائع » . . .

والواقع أن البطل فى الرواية والمسرحية شاعر ، وكلاهما تسرى فيه نغمة واحدة هى نغمة الشوق إلى الحياة والفعل والموت . وكلاهما ممزق بين المثال والواقع ، واللامتناهى

والمتناهى فى طبيعته ، والإحساس بشمول الوجود وتجانسه وشعوره بأنه « يحيا مع كل حى » والضرورة التى تدفعه للضياع والتشتت بين أفعال جزئية مخيبة للآمال . ويظل البطل الشاعر يصارع هذا التمزق حتى يدفعه الشوق للاتحاد بالطبيعة إلى الموت بإرادته ليرجع إلى هذه الطبيعة التى هى الأم والمنبع والأصل . وهكذا يقدم روحه وجسده قربانًا للروح الإلهى الماثل فى الكون ، وكأنه مسيح وثنى قديم أراد أن يكفر عن ذنوب الإغريق الذين أساءوا فهمه وسخروا منه وشهروا به وطردوه من مدينتهم . لقد أدرك أنبادوقليس كما أدرك هلدرلين أنه « لا بد أن يذهب من تكلمت الروح من خلاله » ، وأن « الإلهى » لابد أن يسقط بين البشر ، لأن الإلهيين وحدهم هم القادرون على الإحساس به ، ولأن هذا هو قدر الشاعر والبطل الملهم على أرض فقدت نعمة السماء ووسط أناس غاب عنهم نورها . ولذلك سلم الشاعران بهذا القدر ، فسقط أنبادوقليس فى جحيم البركان كما تسقط الفراشة فى لهيب الشمعة ، وغاص هلدرلين فى ليل الجنون فى صمت وكبرياء وهـــدوء . . .

* * *

كان من نصيب هلدرلين أن يكون شاعراً عظيمـًا ومنسيـًّا فى وقت واحد . لقد ظل مجهولا أو شبه مجهول حتى أوائل هذا القرن ، عندما اكتشفه الباحثون قبل الحرب العالمية الأولى بقليل . وظل الناس يرددون الحديث عن مرضه وجنونه واكتئابه حتى التفتوا إلى قيمة شعره ، وتوالت الدراسات عن عبقريته ، ورأى البعض أنه مثال الشاعر « النبى » و «العراف» ومنشد الشعب ورسوله الملهم . وتحمس له الأدباء والنقاد من مختلف المدارس والاتجاهات ابتداء من الرومانتيكيين الذين أساءوا فهمه وتصوروا أن مأساة حياته وعذابه وجنونه تجعله واحداً منهم ، حتى « هيدجر » فيلسوف الوجود المعاصر الذى أسرف فى حبه واستخرج من أشعاره ما يؤيد فلسفته وسماه « شاعر الشاعر » والمعبر عن ماهيته وحقيقته الخالدة . . . وتأثر به المتشائمون من أمثال نيتشه وليوباردى وشوبنهور ، وذهب بعض المحدثين من أبناء وطنه إلى القول إنه أعظم عبقرى نطق بلغتهم ، ووصفوه بأنه نبى الأمة — وضحيتها فى آن واحد — ومجدد الروح ورائد شعراء المستقبل . .

ومهما يكن الرأى فى هذه الأحكام فليس هناك شك فى أن هلدرلين واحد من أعظم الشعراء فى كل اللغات والعصور ، وأنه جدير بالقراءة والفهم والحب . وليس هذا الكتاب إلا محاولة متواضعة لتأكيد بعض معانى الحب والتعاطف والإجلال التى يجب أن نوقظها فى أنفسنا ونحن نواجه هذا الشعر وكل شعر أو فن عظيم . .

* * *

احتفل العالم فى شهر مارس سنة ١٩٧٠ بذكرى مرور مائتى عام على ميلاد هلدرلين ، كما احتفل فى نفس الوقت بذكرى هيجل وبيتهوفن اللذين ولدا فى نفس العام . وقد أردت بهذا الكتاب أن يكون محاولة متواضعة للوفاء بهذه الذكرى ، فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه للاتصال بروح الشعر الخالص ، والقرب من نبعه النقى الأصيل . والالتزام برسالته ومسئوليته . . كما أردت فى نفس الوقت أن يكون محاولة لتذكير شعرائنا برسالة الشعر والشاعر بالمعنى الخالد الذى فهمه القدماء من هذه الكلمة عندما نظروا إليه نظرتهم إلى العراف الملهم والمتنبئ والمبشر والنذير ورائد القوم وموقظهم من غفلة النعاس والضلال . وأول ما نتعلمه من هذا الشاعر أن الشعر الحقيقى فوق كل طموح إلى الشهرة والمنفعة ، وأنه لا يعطى شيئًا إلا لمن يعطيه كل شىء . .

وأردت من الكتاب أيضًا أن يكون تمهيداً لقراءة هذا الشاعر العسير . ولذلك أكثرت من النصوص بقدر الإمكان ، وتناولت حياته وتجاربه من خلال شعره فى مراحل تطوره المختلفة . ومع أننى لا أميل إلى الربط بين حياة الشاعر أو المفكر وإنتاجه ، وأفضل العناية بالنص والتوفر على دراسته ، فقد اضطررت إلى الخروج قليلا عن هذا المنهج ؛ لأن هلدرلين من الشعراء القلائل الذين اتحدت حياتهم وفنهم على نحو يجعل من الصعب التمييز بينهما ، بل يجعل من المستحيل الحديث عنهما كأن الحياة شىء والفن شىء آخر . وكل ما أرجوه أن يخرج القارئ من هذا الكتاب بأن هذا الكلام ليس من باب الإنشاء ولا التحمس العاطفى . .

ولم أقصد أيضًا أن يكون الكتاب « بحثًا » فى شعر هلدرلين أو ظروف حياته بالمعنى المفهوم من تلك الكلمة . ورأيى فى هذا بسيط ، فى ظنى أننا لم نصل بعد إلى مرحلة البحث المتخصص الدقيق فى إنتاج الأدباء والمفكرين الذين لا نكاد نعرف عنهم شيئًا ، إذ ينبغى علينا قبل ذلك أن نقرأ لهم ونترجم عنهم ونحاول أن نحبهم ونتعاطف معهم ونتعرف إلى إنتاجهم بقدر ما نستطيع . . وعسى أن تنجح هذه الصفحات فى التعريف بهلدرلين أو تشجيع القارئ على قراءته والتعاطف معه والتعلم منه . .

* * *

وأخيراً فقد اعتمدت على طبعة أعمال هلدرلين الكاملة التى صدرت عن دار النشر « إنزل » وعنى بتحقيقها وترتيبها الأستاذ فريدريش بيسنر ، كما اعتمدت اعتماداً كبيراً على كتاب الأستاذ ألريش هويسرمان عن حياة هلدرلين الذى ظهر فى سلسلة « روفولت»

التى قامت بنشره فى سلسلة الكتب التى تصدرها عن أعلام الأدب والفن والفكر من مختلف البلاد والعصور بأقلام المتخصصين ، مع عدد كبير من الصور والوثائق المتصلة بحياتهم وإنتاجهم . . وأحب أن أسجل اعترافى بفضل هذا الكتاب القيم علىّ . فقد سرت على نفس الخط الذى سار عليه ، واهتديت به فى كل ما قرأت لهلدرلين أو قرأته عنه فى المراجع الأخرى التى استطعت التوصل إليها . وهى قليلة جداً إذا قيست بالمكتبة الضخمة التى صدرت عنه . ومن هذه المراجع كتاب فيلسوف العلوم الإنسانية « فيلهلم دلتاى » عن التجربة والشعر ، وبه فصل قيم عن هلدرلين ، وكتاب « هلدرلين ، كتاب مطالعة لعصرنا » وقد صدر عن دار الشعب فى فيمار ضمن السلسلة المعروفة بهذا الاسم وأشرف على نشره والتقديم له وشرح الكلمات والاصطلاحات الكلاسيكية فيه الأستاذان تيلى بيرجر ورودلف ليرنهارد ، إلى جانب تاريخ الأدب الألمانى للأستاذ فريتز مارتينى ، وروح عصر جوته للأستاذ كورف ، والروح اليونانية وعصر جوته لأستاذى المرحوم فالتر ريم . وأود أن أنوه بالترجمة الإنجليزية الممتازة لعدد كبير من قصائد هلدرلين فى مراحل تطوره المختلفة وهى الترجمة النثرية الدقيقة التى قام بها الأستاذ « ميخائيل هامبورجر » ومهد لها بمقدمة قيمة عن حياة هلدرلين وشعره وظهرت سنة ١٩٦١ فى سلسلة « بنجوين » المشهورة . . وقد استفدت منها فائدة لا تقدر فى فهم كثير من غوامض النص الأصلى ، وبخاصة فى القصائد الكبرى المتأخرة مثل خبز ونبيذ ، وباطموس والوحيد ، والاحتفال بالربيع ، وذكرى ، وغيرها من القصائد التى ستجد مقتطفات منها على صفحات الكتاب أو تجد بعضها مع النصوص الكاملة التى انتقيتها لك . أما عن الترجمة فقد التزمت الدقة والإخلاص لروح النص وكلماته بقدر ما استطعت . ولست أدرى هل أعتذر عن بعض الأبيات التى جاءت موزونة فى سياق الكتاب ، ومن بينها قصيدة كاملة فرضت نفسها فرضاً ، أم يغتفر لى الشعراء هذا التطفل غير المقصود . . ولكنى أحب أن أطمئن القارئ إلى أننى توخيت الأمانة التامة فى نقلها ، ووضعت بين قوسين كل كلمة اضطررت لزيادتها سواء فى هذه الأبيات أو ما عداها من النصوص . توضيحاً للمعنى أو مراعاة لمقتضيات الأسلوب العربى . .

ولا بد من الاعتراف أخيراً بأننى شغلت بهذا الكتاب فى فترة أصبت فيها باليأس وخيبة الأمل فى الحياة والناس . ولست أريد أن أشغل القارئ بحياتى الشخصية التى لا تهم أحداً ، ولا أريد أيضاً أن ألوم هلدرلين أو أحمله مسئولية هذه الكآبة التى تشع

من حياته وأعماله ، وإنما أسجل تجربة عشتها معه حتى كدت أن أتقمص روحه النقية الحزينة . . وأنا أعلم أن هذا شيء مكروه فى الدراسات العلمية والموضوعية . ولكن عذرى الوحيد أننى قصدت من الكتاب أن يكون تمهيداً متواضعًا لقراءة هذا الشاعر الوحيد . .

القاهرة فى سبتمبر ١٩٧١

عبد الغفار مكاوى

الوطن

« وسأبقى ابناً للأرض ،
للحب خلقت وللألم » .

يقول سيد شعراء الألمان « جوته » فى مقدمة دراساته وتعليقاته على ديوانه الشرقى : « من أراد أن يفهم الشاعر فليذهب إلى وطن الشاعر » . فكيف يبدو وطن شاعرهم العبقرى المسكين هلدرلين ؟ وكيف أثرت عليه طبيعة هذا الوطن ، وسماؤه الصافية ، وتلاله الوديعة ، وغاباته الغامضة ، وأنهاره الهادئة الحنون ؟ . .

لكلمة الوطن عند هلدرلين سحرها الغريب . فليس أرضاً تقيدها الجمارك والحدود والحكومات ، بل هو قوة وسر وحياة . . الفراق عنه وداع أسطورى ، والعودة إليه عيد بهيج . هو الأرض التى يمشى فيها وحيداً . والحقل الذى تنمو فيه الكلمة « زهرة الفم »[1] كالزنبقة البرية . نقية وأبية . خشنة وبسيطة وبريئة من الخوف :

وما ينبغى لأحد
أن يلومنى على جمال اللغة ،
لغة الوطن ،
كلما سرت ، وأنا الغريب الوحيد ،
إلى الحقل الذى تنمو فيه
الزنبقة البرية
بلا خوف . . .[2]

والوطن كذلك مملكة مسحورة . أنغامه وعطوره لا تبارح ذاكرة الطفل . فإذا ما صحت صحا الوطن كله فى خياله كأنما مسته عصاً سحرية :

وأشواك الورد
والزيزفون الحلو يتضوع بالأريج . . .

---

(١) عن قصيدته « جرمانيا » .
(٢) عن قصيدته : « إلى العذراء » .

وهواء الوطن ليس كمثله هواء . إنه نسيم يهب من النهر الذى نشأ على ضفته ، ويرف من جبال الألب التى تشرف عليه . ونهر الوطن هو صاحبه الوحيد ورفيق صباه وألعاب طفولته . ها هو ذا يخاطبه فى أغنيته عن نهر « النيكار »[1] :

فى وديانك صحا قلبى على الحياة ،
أمواجك لاعبتنى
وكل التلال الحبيبة التى تعرفك
— أنت أيها المسافر الوحيد —
ليس بينها من هو غريب عنك .
فوق ذراها كان نسيم السماء



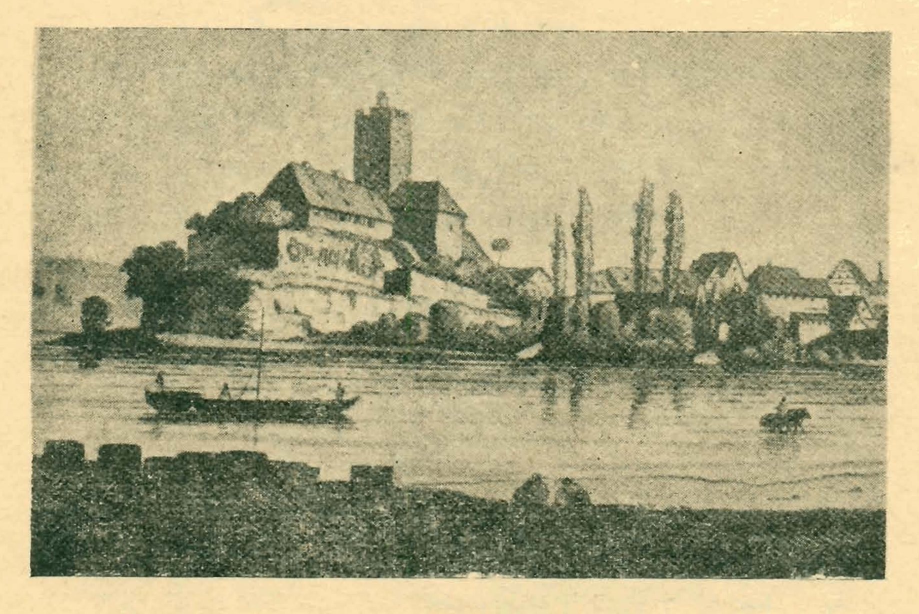
قرية لاوفن على نهر النيكر (حفر يرجع لسنة ١٨٠٠)

يحررنى كثيراً من آلام العبودية ،
ومن الوادى ، كالحياة من كأس الفرح ،
كانت تلمع الموجة الفضية الزرقاء .

(١) أشهر أنهار منطقة « شفاين » التى نشأ فيها الشاعر ، يمر بمدينتى توبنجن وهيدلبرج ويتصل بنهر الراين عند مدينة مانهايم ويبلغ طوله ٣٦٧ كيلومتراً ..

وهواء الوطن ليس كمثله هواء . إنه نسيم يهب من النهر الذى نشأ على ضفته ، ويرف من جبال الألب التى تشرف عليه . ونهر الوطن هو صاحبه الوحيد ورفيق صباه وألعاب طفولته . ها هو ذا يخاطبه فى أغنيته عن نهر « النيكار »[١] :

فى وديانك صحا قلبى على الحياة ،
أمواجك لاعبتنى
وكل التلال الحبيبة التى تعرفك
— أنت أيها المسافر الوحيد —
ليس بينها من هو غريب عنك .
فوق ذراها كان نسيم السماء



قرية لاوفن على نهر النيكر (حفر يرجع لسنة ١٨٠٠)

يحررنى كثيراً من آلام العبودية ،
ومن الوادى ، كالحياة من كأس الفرح ،
كانت تلمع الموجة الفضية الزرقاء .

(١) أشهر أنهار منطقة « شفاين » التى نشأ فيها الشاعر ، يمر بمدينتى توبنجن وهيدلبرج ويتصل بنهر الراين عند مدينة مانهايم ويبلغ طوله ٣٦٧ كيلومتراً ..

ينابيع النهر كانت تسرع هابطة إليك ،
ومعها قلبي أيضـًا ، وأنت أخذتنا معك ،
إلى « الراين » الساكن المجيد —
إلى مدنه وجزره المرحة .

والمدينة التي ولد فيها الشاعر بقعة مقدسة ، يحج إليها بالكلمة في تقوى وخشوع :

مقدس عندي هو المكان ، على الضفتين ، وكذلك الصخر
الذي يرتفع مخضرًّا من بين الأمواج مع البيت والبستان .
هناك تلاقينا ، آه أيها النور الحنون !
حيث أصابني لأول مرة أحد أشعتك
التي تلمس الفؤاد في الصميم .

في بلدة « لا وفن » الصغيرة ، على ضفة نهر النيكار في منطقة « شفابن » ، وفي دير قديم يسميه الفلاحون هناك « القرية الصغيرة » ، ولد هلدرلين في العشرين من شهر مارس سنة ١٧٧٠ . . .

هناك كان وطنه المقدس الحبيب . .

* * *

عرف هلدرلين الوطن ، وأحبه واشتاق دائمًا للرجوع إليه . ومع هذا فلم يعرف (قبل أن يصيبه الجنون على الأقل) مكانـًا يستريح إليه أو يقيم فيه . فهو دائمًا الغريب والمتجول الوحيد . لهذا تحمل كلماته التي يثني فيها على الوطن نغمة الكآبة والأنين . لقد أحب الوطن وصبر على الجراح العميقة من أجله وأعطاه كل ما يستطيع الإنسان أن يعطيه من قلبه وضميره . وظل هذا الوطن بالنسبة إليه عالمـًا يفوح بالعطر ويموج بالسحر وترفرف عليه أجنحة الأساطير وأرواح الخالدين والأبطال . ولكنه لم يجد « البيت » الذي يهدأ تحت سقفه ، ويشعر بالاطمئنان أمام موقده . شاء له القدر أن يبقى غريبـًا ، قلقـًا ، لا يكاد يستريح إلى مكان حتى يهجره إلى غيره . هو دائمًا التائه الذي يتردد نداؤه : إلى أين ؟ وهو الغريب بلا وطن ولا سكن . يفتقد السعادة والزوجة والدفء والأمان . يفتقد الأرض الراسخة تحت قدميه . وتتكرر في شعره صورة الغريب الذي قدر عليه أن يقضي حياته بلا جذور ، ويطارد كالوحش الجريح الذي لا يجد ظلا يأوي إليه ولا نبعـًا يبل فيه جراحه . وهو لهذا يتحسر على الحياة البعيدة كالحلم :

سعيد من يحب زوجته الطيبة فى هدوء ،
ويحيا أمام موقده فى الوطن المجيد .
على أرض ثابتة تشع السماء
للرجل المطمئن بضوء جميل .
لأن روح المخلوق الفانى
الذى يتجول مع ضوء النهار وحيداً
مسكينـًا فوق الأرض المقدسة
تنطفئ وتخبو
إن لم تمد جذورها فى الأرض كالنبات .

هو المتجول الوحيد المسكين ، يشعر أن روحه تنطفئ وتخبو ، وأنه مهما تغنى بالأرض والوطن فسيبقى بلا وطن ولا بيت ولا حب . أكان هذا إحساسـًا منه بأن جذوة العقل ستنطفئ بعد توهج ؟ أكان تنبؤًا منه بليل الجنون الذى سيحاصره نصف حياته على الأرض ؟ . .

* * *

والكنز المقدس الذى يحمله الغريب فى صدره ويحرص عليه ويرعاه هو كنز العذاب . والعذاب هدية السماء لكل من يجسر على اقتحام مملكة الشعر والحب . وجرح الحب المحروم يدمى قلبه ويبدد راحته ، يشرده فى الآفاق ، ينفى عنه الاطمئنان لشىء أو التعلق بإنسان . فإذا عاد يومـًا إلى وطنه أحس لأيام أو شهور قليلة كأنه يعود لنفسه . وإذا أبصر ضفاف نهره الغالى شعر من جديد بأن « عذابه مقدس ممتد بلا ضفاف » :

مرحـًا يعود الملاح إلى وطنه على النهر الهادئ
من الجزر النائية حيث كان يجمع الحصاد ،
هكذا كنت أعود لوطنى
لو أننى حصدت من الخيرات مثل ما حصدت من عذاب
أيتها الضفاف الغالية التى نـَمـَّتنى ذات يوم ،
أتراك تسكنـّين عذاب الحب ،
أتراك يا غابات شبابى
تعدينى بالهدوء لو رجعت من جديد ؟

ثم يناجى الجدول الرطب ، والنهر الذى يهدهد السفن كالأم التى تهدهد أطفالها فى المهد ، والجبال الحبيبة التى رعته ذات يوم ، والأم والأشقاء الذين سيعانقونه ويقبلونه ويشفون قلبه . ثم يعود فيقول إنه يعلم أن عذاب قلبه ليس له شفاء ، وأنه سيظل محروماً من أغنية المهد التى يترنم بها الفانون للعزاء :

لأن الآلهة التى تعيرنا النار السماوية

تنعم كذلك علينا بالعذاب المقدس ،

لذلك سأبقى ابناً للأرض

خلق للحب والعذاب .

هكذا يصبح الوطن هو الأم التى تغنى أغنية المهد ، فتربى وترعى وتعانق وتشفى من الداء . وتكتسب الأم البعيدة كل ما فى الأسطورة من عمق وسكون وجلال . بيد أنه يعلم أنه فى صميم قلبه مطارد غريب ، لا تستطيع أغنية المهد أن تعزيه عن حزنه ولا الأنغام أن تسكن ألمه . . . إن حبه مطلق وبغير حدود . ومتى عرف الحب الحقيقى شفاء أو عزاء ؟ . .

وشخص الشاعر يتوارى خلف هذه القوى الأسطورية (ومنها الوطن) التى يهديها أغنيته . وهو يكتم قدره أو يظهره فى بعض الأحيان على استحياء . إنه فرح بلقاء الوطن والأم والبيت وأشجار الغابة ، فرح بالشمس والنور فى العيون ، والوفاء فى الأصوات والصدور ، وطائر السلام الذى يرفرف على الذكريات القديمة . وهو من فرحته يتحول إلى طفل برىء طائش :

« أتكلم فى طيش . إنه الفرح ! * »

هذه النغمة البريئة الطاهرة ، هذا الصوت البعيد عن جفاف العقل وإسراف العاطفة ، هذا النقاء والصفاء هو أهم ما يميز شعر هلدرلين وحياته . .

* * *

كان وهو صبى صغير يرى أمه كل يوم فى ملابس الحداد ، تذرف الدموع على أبيه الذى مات وهو صغير . ولم تفارقه الكآبة أبداً بعد ذلك ، لم يفارقه الجد والعبوس ، لم يفارقه العذاب :

« الحياة تتغذى بالعذاب » . .

---

* عن المقطوعة الخامسة من قصيدته « العودة إلى الوطن » .

إنه يرى نفسه فى مرآة أمه الحزينة . يعرف أن حزنها من حزنه، وحدادها من حداده ، وأساها من أساه . بل إن الشفقة لتأخذه عليها فينصحها ألا تفنى فى الألم ولا تستسلم له :

« كونى أكثر مرحاً يا أمى الحبيبة » . .

لكنه هو نفسه كان يفنى فى الألم والعذاب كل الفناء . يكفى أن نقرأ هذه السطور من روايته الوحيدة « هيبريون » لنعرف مدى عمق جراحه : « أجل . . أجل ! إن الألم جدير بأن يرقد على قلوب البشر ويكون أليفك ، يا أيتها الطبيعة . . لأنه هو وحده الذى يقودنا من بهجة إلى بهجة ، وليس لنا من رفيق سواه » . .

لكنه مع هذا حزن صابر ، ساكن ، مطمئن على صدر الإيمان ، وجد حقيقته الأخيرة فى الكلمة الخالدة التى قالها من قبل أوديب :

« كل شىء حسن . . طيبة كل الأشياء »*

وهو حزن من لا يملك أن يخفف من أحزان غيره . فقد كانت أمه التقية الهادئة دائمة الاكتئاب ، حتى بعد زواجها الثانى من عمدة مدينة نورتنجن المجاورة . وما أكثر ما فعل هلدرلين مرضاة لخاطرها ، وما أكثر ما احتمل من آلام لكى لا يخيب أملها فيه أو يزيدها حزناً على حزن . وفى إنتاج كل أديب ، بل فى حياة كل رجل ، بصمات لا تنكر من أمه . لكن الأم الحزينة تصبح بلمسة الفن صورة وشكلا وكياناً أسطورياً . إنها تتحول فى يد الشاعر فتصبح هى الأرض والطبيعة والسماء . وتذوب تجربة الأمومة فى تجربة الأرض والطبيعة ، بحيث تصبح الأرض والطبيعة هى جسد الأم الحى . وتكتسب الأبيات التى يقولها عن الأرض الأم وشاحها الأسطورى الذى يكسو كل شعره ويلفه برداء السر والجلال . ويصبح الشاعر هو الكاهن الذى يقدم فروض العبادة للأم ؛ يقدمها على استحياء ، لأنه يقترب من صورتها كأنما يقترب من سر الغابة الأزلية :

مع ذلك ، يا أيتها السماوية ، مع ذلك
أريد أن أحتفى بك وما ينبغى لأحد
أن يلومنى — وأنا الغريب — على جمال العبارة ،
جمالها (المستمد) من الوطن ،
لأنك نائية ، خفية أنت ،
فى قبو الغابة الأزلية . . .

* * *

---

* وردت فى قصيدته « باطموس » التى تعد من أروع قصائده وسيأتى الحديث عنها فيما بعد . .

الطفل والصبى

« ربانى نغم يهمس فى البرية ، وتعلمت الحب ، بين الأزهار . »

ذلك لأن أب الأرض يفرح أيضاً
بأن الأطفال موجودون .
بهذا يبقى يقين الخير * .

للطفل فى قلب هلدرلين وشعره ونثره حب غريب وعميق . هو الزهرة التى تمد الجذور وتنشر العطور . هو الصورة الحية للأمل ، واليقين المرئى للخير . هو الذى ينطوى على سر الأصل والمبدأ . فما أكثر ما يتجلى أعظم الكائنات فى أصغرها . « إن أول صور الوحدة التى نحتفظ بها فى عقولنا تظهر لنا من جديد فى خلجات قلوبنا المسالمة وتعبر عن نفسها فى وجه الطفل » . .

والطفل خالد :

إنه بكليته على طبيعته ، ولهذا فهو جميل .
إن قهر القانون والقدر لا يلمسه ،
الحرية فى الطفل وحده ،
فيه السلام ، وهو لم ينشق على نفسه بعد(١) .
الغنى كامن فيه ، فؤاده لا يدرى شيئاً عن ضنك الحياة .
إنه خالد ، لأنه لا يعرف شيئاً عن الموت .

وليس فى هذه الفكرة رجوع بالعاطفة إلى الوراء ، بل فيها معرفة بحقيقة الطفولة التى تنمو مع الإنسان ، وتعيش فى أعماقه بعيداً عن الوعى والشعور . إنها تظهر فجأة عندما يتم اللقاء بين الإنسان والآلهة :

فهكذا تكون زيارة السماويين . .
يسعى إليهم الأطفال ،
تأتى السعادة مشرقة ، تعشى الأعين . .

---

* عن قصيدة الوحيد .

(١) عن رواية هيبريون ، الكتاب الأول ، الرسالة الثالثة إلى صديقه الألمانى بلارمين .

وتشتد جسارة هذه الفكرة التى يأباها المنطق ولكن يقبلها الوجدان عندما يعود إليها الشاعر ليصف طفلا نائمًا ؛ وما أكثر ما أحب هذه الصورة من كل قلبه :

بلاقدر يتنفس السماويون
أشبه بالرضيع النائم ،
أعفاء باقين
فى البرعم الطيب
تزدهر روحهم
إلى الأبد* .

وترجع الصورة مرة أخرى فى أنشودة تقية يتجه بها إلى العذراء :

وعندما يتفكر أحد بالمستقبل فى الليلة المقدسة
ويحمل هم الذين ينامون بلا هموم
من أجل الأطفال المزدهرين
تأتين أنت باسمة ، وتسألين
مم يخاف وأنت الملكة ؟ **

لكن الحياة الإلهية لا تلف الأطفال فى النوم وحده ، بل تنسكب عليهم كذلك فى اليقظة . انظر معى هذه الصورة التى يرسمها الشاعر فى ختام روايته « هيبريون » :

« أبصرت من عهد قريب صبيًّا راقداً على جانب الطريق . كانت الأم التى تسهر عليه قد نشرت فوقه بعناية وحنان غطاء يتيح له النوم فى الظل ويقيه ضوء الشمس . غير أن الطفل لم يشأ أن يخلد للسكون فأزاح عنه الغطاء ، ورأيته وهو يحاول النظر إلى الضوء الودود ، ويعود للمحاولة مرة بعد مرة حتى آلمته عيناه وأطرق بوجهه إلى الأرض باكيًا ..

قلت لنفسى : يا للولد المسكين ! . . ليس غيره بأفضل منه ، وكدت أنفض يدى من هذا التطفل الجرىء ، لكنى لم أستطع ، لم أجد أن ذلك يليق بى . . لابد أن يخرج هذا السر العظيم ، الذى تعطينى الحياة إياه أو يعطينيه الموت » . .

والصورة دقيقة مرسومة بعناية . جمع الشاعر فى ملامحها كل الخطوط والألوان التى يرسم بها القدر وجه الطفل ، فيصبح أسطورة يتغنى بها الشاعر فى أناشيده . إن

---

* عن أغنية هيبريون إلى القدر ، وتجدها فى القصائد المختارة .
** عن قصيدته إلى العذراء .



هلدرلين فى الثامنة عشرة من عمره

الأم تريد أن تنشر الغطاء على الطفل ، تريد أن تحميه من وهج النور . لكن الطفل نفسه جزء من هذا النور . ولذلك فلا بد أن يحاول لقاءه ، ولا بد أن يحييه ويبتسم له مهما آذى عينيه . .

* * *

لنتجه الآن إلى طفولة هلدرلين وصباه . وسيدهشنا كل هذا النقاء ، كل هذه البراءة التى ستحدد موقفه من الوجود ، وتطبع تجربته المؤمنة الورعة الفياضة بالطاعة والاستسلام . ها هى ذى أبيات من قصيدة كتبها فى السادسة عشرة من عمره ، وكان

يجلس مع صديق له يدعى كارل على شاطئ نهر « النيكار » ويعاين القداسة الماثلة فى الطبيعة ويحس رجفتها فى صدره :

يا كارل الطيب . . فى تلك الأيام الجميلة
كنت أجلس معك على شاطئ النيكار .
كنا نشعر بالفرح ونحن نرى الموجة تلطم الشاطئ ،
ونحفر الجداول فى الرمال .
ثم وقفت أخيراً . كان النهر يجرى
فى بريق المساء . . إحساس مقدس
سرت رجفته فى قلبى ، وفجأة عزفت عن المزاح ،
فجأة نهضت جاداً وانصرفت عن لعب الصبا .
همست وأنا أرتجف : نريد أن نصلى .
ركعنا فى خجل بين الأوراق والأشجار .
كان النقاء ، كانت البراءة هى ما نطقت به قلوبنا الصبية . . .
يا إلهى الرحيم . . كم كانت تلك الساعة رائعة الجمال . !
كم هتف الصوت الهامس بك : يا أبانا ،
وكم تعانق الصبيان ومدا الأيدى نحو السماء ،
وكم احترق قلباهما وهما يقسمان على العودة للصلاة !

* * *

كل شىء فى هذه القصيدة الساذجة الحلوة يشهد بعاطفة الإيمان الصادقة : الرعشة الإلهية التى تعرو الصبى ، الانصراف عن لهو الصبا وألعابه إلى منبع الوجود وسره ، عهد الوفاء للقسم المقدس وإخلاص النية من القلب الخاشع والنظرة التقية . وكلمات تتردد هنا فى حياء لتعلن عن نفسها بعد ذلك فى قصائده الكبرى : الجد والقداسة والحياء والنقاء والبراءة . والقلم الموهوب القادر على إضفاء اللون البارز على اللوحة كلها بعبارة واحدة :

كان النهر يجرى
فى بريق المساء .

عبارة تطلق الإحساس كله كما يطلق البرق الخاطف شرارات اللهب . لم يتعلمها

الصبى من الكنيسة ولا من كتب الدين ، بل تعلمها من اللقاء المباشر مع النور والنهر والعالم ، فنطقت بها لغة القلب لا لغة الناس :

« كان النقاء ، كانت البراءة هى التى نطقت بها قلوبنا الصبية » . .

وهنا تكمن بذرة الخلاف العميق الذى أحسه هلدرلين طوال حياته مع الدين التقليدى فى عصره ، والصراع الذى عاناه من الكنيسة التى أرادت أن يؤمن بالوصايا والقوانين ، فى الوقت الذى راح يستمد فيه إيمانه بالله من لقائه مع الأرض والنور والزهرة والنسيم . .

ويكفى أن نستمع إلى أغنية أنشدها الصبى فى عيد السلام . .

إنه يصغى فى يوم الراحة لسكون الزهور وخرير الجداول والينابيع . من بعيد يتردد صوت الجوقة من حناجر « الكبار » وهم يرتلون نشيد الصلاة فى الكنيسة . . كان هذا النشيد يهدئ همومه وشكوكه . ومع ذلك فقد ظل فيه شىء غامض لم يستطع أن يفهمه أبداً . . . لقد دخل الطفل بعد ذلك إلى الكنيسة ،وأصبح قدره فى أيدى الكهنة والقساوسة، وبقى سؤاله الحائر الأليم يتردد : « لماذا ؟ » .. لماذا كتب عليه أن يغشى الظلام عينيه ويسد الطريق على النظرة الحرة ؟ لماذا قدر عليه أن يحرم من أفراح الأرض والسماء كأنما صارت الفرحة بمعجزاتهما إثمًا من الآثام ؟ أليست روح الله كامنة فى التحول الدائم والصيرورة التى لا يتوقف نهرها عن الجريان ؟ ألا تتدفق من الينابيع الحية وتزدهر فى الأزهار الساكنة ؟ أمن الضرورى أن تقيده الكنيسة والتقاليد فى حين نجد الإيمان يهفو إليه بالحرية والحياة فى الجدول والوردة والنور ؟ لن يسكت هذا السؤال المعذب الذى نطق به الصبى فى يوم عيد :

نحن أيضًا قد عرفنا البهجة ذات يوم ،
فى ساعة الصباح عند ما كانت « الورشة » هادئة
يوم العيد والزهور ساكنة ،
كانت هى أيضًا أنضر جمالا
والينابيع الحية تدفقت مشرقة[1] . .

غير أنه يسمع صوت الجوقة المخيف يأتيه من بعيد . . إنه صوت المصلين فى كنيسة القرية . . كان هذا الصوت فى الماضى أشبه بالنبيذ المقدس . وكانت الكلمات الحبلى

(١) عن المسودة الأولى من قصيدته الاحتفال بالسلام التى اكتشفت منذ حوالى خمسين عاماً فحسب .

بالأسرار أقدم عهداً وأشد قوة ، تنحدر من السماوات وتنمو فى الصيف . وكانت تهدئ همومه وآلامه . لكنه لا يدرى ما الذى جرى له وجعل الشك يطبق عليه وهو الذى لم يكد يولد بعد :

لماذا نشرتم ليلا على عينى ،
فلم أستطع أن أرى الأرض
واستعصى علىّ أن أتنفسك
أيتها الأنسام الإلهية ؟ (١)

وتعود النغمة الحزينة فى أغنية أخرى (لعله أراد فى البداية أن يضعها فى روايته هيبريون ثم عدل عن رغبته) . إن سطورها الأولى ترجع بنا إلى صباه ، وتصور لنا صراخ البشر ورنين سياطهم من ناحية ، كما ترسم لنا من ناحية أخرى صورة الطفل الذى يلعب فى سلام مع الأزهار والأنسام ، ويهب الإله لنجدته وينقذه من أيدى البشر ومما فى أيديهم :

عندما كنت صبيًّا ،
كان كثيراً ما ينقذنى إله
من صرخات البشر وسياطهم ،
هنالك كنت ألعب فى طهر وأمان
مع أزهار البرية ،
ونسمات السماء
كانت تلعب معى* .

والشاعر يستعير لهذا اللعب الطيب الغنى بالنعمة والخير صورة شعرية ساحرة يحن لها ويلجأ إليها فى حب وشغف ، صورة النبات الذى يمد ذراعيه للشمس :

وكما تفرح
قلوب النباتات ،
عندما تمد إليك
أذرعها الرقيقة

---

(١) عن القصيدة السابقة الذكر .

* عن قصيدة « عندما كنت صبياً » ، وقد كتبها هلدرلين سنة ١٧٩٨ .

كذلك أفرحت قلبي
أيها الأب هليوس[١] .
وكمثل أنديميون[٢] ،
أصبحت حبيبك
أيها القمر المقدس .

* * *

إن الشاعر يستمد صوره بطبيعة الحال من كنز الأساطير اليونانية الذى لا يفنى . فالأب هو هليوس (الشمس) ، وهو نفسه شبيه بأنديميون ، ذلك الفتى الجميل الذى أنعم عليه زيوس كبير الآلهة بالنعاس الحلو والشباب الخالد وأمر القمر أن يزوره كل ليلة . والصبى غارق فى هذا الحلم السعيد ، كالزهرة الملفوفة فى نومها العذب ، المتفتحة مع ذلك لأفراح الشمس والقمر والإلهة . .

ثم تنتهى هذه المقدمة الراقصة وتبلغ الأغنية ذروتها الأولى حين يقول الشاعر :

آه . أنتم أيها الآلهة
الأوفياء الودودون .
كم ليتة تعلمون
كم أحببتكم روحى !

من الروح الحيية الوديعة ينطلق هذا الاعتراف . لكنها لا تلبث أن تحول نظرها عن هذه الذروة العالية التى تحيط بها هالة السكون الإلهى العميق إلى منطقة بشرية يسودها العقل البارد الجاد :

صحيح أننى لم أكن فى ذلك الحين
أناديكم بأسمائكم ، وأنتم أيضاً
لم تنادونى أبداً باسمى ،
كما يتنادى البشر
وكأنهم يعرف بعضهم بعضاً .

إلا أن هذه المعرفة العاقلة تخفى وراءها معرفة أليمة بالناس ، وخيبة أمل فى البشر . وتصل القصيدة إلى ذروتها الثانية حين تقول :

(١) إله الشمس فى الأساطير الإغريقية .
(٢) هو زوج سيلينه ، وهى القمر عند اليونان ، ويقال إنها أحرقته فى أثناء نومه لتتمكن من تقبيله على هواها ..

ومع ذلك فقد عرفتكم
بأفضل مما عرفت البشر .
فهمت سكون الأثير
لكن لم أفهم أبداً كلمات الناس .

ومع ذلك فهناك عزاء عن هذا الألم القاسى . يجده الشاعر الوحيد عندما يتجه إلى السماء بحثاً عن الخلاص ، وعندما تلعب معه الأنسام ويسعده النور ، كما يجده فى أنغام الرياح الهامسة لأشجار البرية ، وفى الأزهار التى علمته الحب :

ربانى نغم
يهمس فى البرية
وتعلمت الحب
بين الأزهار .

إنه يتعلم من سكون الأثير ما يغنيه عن تعليم البشر ، ويؤمن بأن التربية الحقيقية تأتى من الإنصات الخاشع لصوت البرية ، وأن الطاعة الحقيقة لا تكون إلا لقوة تتنزل من أعلى . فى هذا السكون ينمو الحنان ، ويزدهر الحب ، وتصبح الطبيعة هى المدرسة الخالدة. وليس عجيباً بعد هذا أن تنتهى القصيدة البسيطة المتواضعة نهاية كلها اعتزاز وكبرياء :

بين ذراعى الآلهة نَمَوْت وكبرت .

فهو لم يَنْمُ بين أحضان الآلهة فحسب ، بل ترعرع واشتد عوده وعرف سر العظمة الكامنة فى نفسه ووجد ما يزهده فى البشر ويغنيه عن صراخهم وسياطهم . .

هكذا ترسم لنا القصيدة عالم الطفولة عند الشاعر . . وتصور ملامحه البارزة . صحيح أن ذكريات الطفولة هى الجذور التى تتفرع منها شجرة الوجود عند أى إنسان أو أى شاعر . ولكنها عند هلدرلين بوجه خاص بالغة الدلالة على كل أبعاد حياته المقبلة ، وكل ملامح هذه الحياة ماثلة يمكن أن تقرأ فى ملامح طفولته . .

هنا نجد « النعاس » العبقرى الشفاف ، والقدرة على الاهتزاز مع أرجوحة الانسجام الكونى ، بحيث يصبح الشعر « أكثر الأعمال براءة » وأشبه الأشياء بلعب الأطفال . وهنا نجد اللقاء المستمر مع الأم التى يدفعها الحنان إلى أن تسحب الغطاء على وجه الطفل ، فيدفعه الشوق إلى النور للتحديق فى الشمس التى تؤذى عينيه . .

هنا الوفاء للتجربة الدينية الأصيله التى تلمسها الروح فى لقائها مع الأرض والنور

والنسيم . وهنا الخشوع والإنصات لسماع أنغام الحقيقة ، والشك المعذب الذى يساور الشاعر أينما وجد نفسه مع الناس . وهنا أخيراً كل معالم الدروب التى سنصحب فيها هذا الشاعر الوحيد لنتعرف على حياته وشعره . .

* * *

علينا الآن أن نكمل الصورة ببعض الخطوط البارزة فى لوحة صباه . فقد زار الشاعر المدرسة اللاتينية فى مدينة نورتنجن ، وقضى العام الأخير فيها مع صديق عمره الفيلسوف المثالى شيلنج الذى كان يصغره بخمس سنوات ، والذى طالما حماه هلدرلين الرقيق من عبث الصغار به وسخريتهم من قصر قامته وغروره بنفسه . .

وفى الرابعة عشرة تقدم الشاعر لامتحان تجريه منطقة « فيرتمبورج » وتختار الناجحين فيه لدخول إحدى مدارس الأديرة التى تؤهلهم ليكونوا من رجال الدين . .

نجح هلدرلين فى الامتحان ودخل فى خريف سنة ١٧٨٤ مدرسة « دنكندورف » التى تبعد عن نورتنجن بمسيرة ساعة ونصف ساعة ، وتقع على مقربة من نهر النيكار . وقضى سنتين فى هذا الدير الصغير الوحيد ، الراقد كالناسك المعتزل بين جدران صخرية وعرة ، وعلى كنيسته وأشجاره ودروبه وبستانه وبركته الصغيرة غلالة منسوجة من خيوط الأحلام والأساطير . ثم انتقل إلى مدرسة دير « ماولبرون » القديم الشهير الواقع وسط غابة مخيفة ، ليقاسى فيه حياة صارمة متقشفة مليئة بالحرمان . ولنقرأ ما يقوله الشاعر عن تجربته فيه : « أود بالمناسبة أن أعترف بأن نصيبى من القهوة والسكر قد نفد وأننى كنت أشتاق أحيانـًا إلى طعام الإفطار عندما أستيقظ مبكراً من نومى ، وكنت أعانى من آلام صداع شديد فى رأسى . وقد تحاملت على نفسى أخيراً ، وكانت معدتى خاوية ، لأتناول الحساء الذى يمجه أشد الكادحين جوعـًا — عندئذ أصابنى ألم بشع حتى أوشكت من غضبى أن أقذف الطبق عرض الحائط » . .

* * *

إذا أردنا أن نتحدث عن الشخصيات والعناصر الأدبية التى أثرت على هلدرلين فى هذه الفترة كان أولها هو تأثير ذلك الشاعر العبقرى المتهور الذى قضى معظم حياته بين المنفى والزنزانة ، وأطلقت الأغلال لسانه بشعر وطنى مفعم بالعاطفة المتأججة والأنغام الشعبية الصادقة . هذا الشاعر هو كرستيان شوبارت (١٧٣٩ — ١٧٩١) الذى عرفه هلدرلين سنة ١٧٨٩ وقال إنه لقى منه الحنان الأبوى . . ولا شك أنه تأثر بحبه الفياض

للوطن « القريب والبعيد » ، ونزعته الدينية المؤمنة ، ولكنه لم يسترح لنبرته العالية وصوته الجهير وعاطفته الصاخبة . .

ولا بد أيضاً أن يكون شاعرنا قد تأثر بأشعار « يونج » * الحزينة وأفكاره الليلية التى كانت شائعة فى ذلك الحين ، وبقراءته للأغنيات الحالمة الباكية المنسوبة إلى أوسيان(١) « الطيب الأعمى الذى تضج مغامراته فى رأسى على الدوام » . غير أن تأثره بالشاعر الألمانى كلوبشتوك (١٧٢٤ – ١٨٠٣) صاحب الملحمة الشعرية الكبرى « المسيح » ، وبعاطفته الغنائية والدينية الصادقة ، ولغته الغنية بالصور العميقة ، ورؤاه المحلقة المعبرة عن تجربة دينية وشخصية خصبة ، كان تأثراً حاسماً على شعره وتفكيره ، وإن اختلف الشكل بينهما اختلافاً كبيراً . وظل كلوبشتوك المثل الأعلى الذى راح هلدرلين يتطلع إليه بإعجاب وإجلال حتى وهو فى مرحلة نضجه المتأخرة . وانطبع بحسه الموسيقى الدقيق وعنايته بالصنعة الفنية المحكمة واهتمامه بالأوزان القديمة الفخمة ، وتمسكه بالقواعد والقوانين الشعرية الصارمة فى أغانيه الدينية والوطنية التى كان هلدرلين يفضلها على إنتاج المحدثين وأغانيهم العاطفية « المتعبة التحليق » . .

بيد أن تجربته العميقة بالطبيعة ربما كانت أبقى أثراً من كل الشعراء والأدباء الذين قرأ لهم فى هذه الفترة من حياته . وقد أشرت من قبل إلى صلاته الخاشعة مع صديقه على ضفة نهر النيكار (كان النهر يجرى فى بريق المساء) . . ويمكن أن أشير أيضاً إلى تجربته الروحية على شاطئ نهر الراين فى منطقة « شباير » ، وقد كانت تجربة لا تنسى . ولعل كلمات قليلة من مذكرات رحلاته التى كتبها لأمه وهو فى الثامنة عشرة من عمره أن تكون كافية للتعبير عن إحساسه عند مشاهدة نهر الراين لأول مرة ، وهو الإحساس الذى سيعبر عنه بعد ذلك فى قصائده الكبرى عند منبع الدانوب ، والراين والاستر : « نهر يزيد فى اتساعه ثلاث مرات على نهر النيكار ، وتظلل الغابات ضفتيه وهو ينحدر من مجراه الأعلى ، ويمتد على مدىٰ البصر امتداداً يوشك أن يصيب المرء بالإغماء والدوار ،

* إدوارد يونج (١٦٨٣–١٧٦٥) شاعر إنجليزى ولد فى «أبهام» . ألف الشكاوى أو الأفكار الليلية عن الحياة والموت والخلود ، وهى قصيدة طويلة تعرف بالليالى كان لها أثر كبير على قصائد الرومانتيكيين المفعمة بالكآبة واللوعة .

(١) مجموعة من الأغنيات والأشعار المغرقة فى الحزن والكآبة ووصف الطبيعة الموحشة بغاباتها وعواصفها وجبالها ، زيف معظمها الكاتب ماكفرسون ونسبها فى سنة ١٧٦٠ إلى شاعر أسكتلندى خرافى قيل إنه عاش فى القرن الثالث وكان لها تأثير بالغ على أدباء حركة « العصف والاندفاع » الألمان فترجم هردر وجوته (فى روايته الأولى آلام فرتر) وصديقهما شتولبرج بعضها إلى الألمانية ، حتى اكتشفت نصوصها الأصلية سنة ١٨٠٧ وتبين تصرف ماكفرسون فيها . .



هلدرلين في العشرين من عمره

كان منظراً لن أنساه أبداً . أثر على نفسى أبلغ تأثير . وأخيراً أقبل الملاحون على الشاطئ كانت المراكب التى يعبر بها الناس إلى الضفة الأخرى بحيث تتسع لعربتين بخيولهما كما تتسع لعدد كبير من العابرين .. ومرت نصف ساعة ووجدت نفسى على شاطئ الشبابير » ..

* * *

كان أعز أصدقائه وأصفاهم وأقربهم إلى قلبه هو « إمانويل جوتلوب ناست » الذى يكبره بسنة واحدة . وكان هذا الصديق أشبه بالرعاء الذى يصب فيه همومه وعذابه وأسراره واعترافات روحه البريئة الساذجة . فهو يسر له ذات مرة أنه رأى قدره فجأة أمام عينيه : ووجد أنه يريد بعد إتمام دراسته فى الجامعة أن يصبح ناسكاً . وقد أعجبته الفكرة : ولكنه أخذ يناشد الصديق أن يخفى رسالته عن أعين الغرباء حتى لا يضحكوا عليه ويصفوه بالحمق والجنون . . بل إنه ليشك فى قدرة الصديق على مشاركته هذا الإحساس فيقول : « يا عزيزى . إنك لا تكاد تعرفنى » . .

والواقع أن هذه الصداقة لم تكن من القوة بحيث يكتب لها الدوام . فقد بقيت على هامش قصة الحب الأولى فى حياة شاعرنا ، وتصادف أن كانت هذه الحبيبة من أقارب « ناست » من جهة أبيه – كان اسمها « لويزة ناست » : مخلوقة رقيقة ، صافية ، نقية القلب نقية الوجدان . أحبها هلدرلين – والحب الأول نارى عذب ، حلو مر كما تقول « سافو » ! – وكتب إليها رسائل قليلة وبادلته رسائله ، وحملت كلاهما أشواق القلوب التى يلمسها الحب لأول مرة وأحزان العشاق ودموعهم التى يريقونها من أجل الحب نفسه لا من أجل الحبيب . .

ولم تلبث الأيام أن كشفت عن بعد الشقة بين المحبين ، بل عن غربة روحيهما وتنافر طبعهما . . كانت لويزة تحب بفطرة الأنثى الخالدة التى تبحث عن « الرجل » و « البيت » . . ولم يكن هلدرلين الذى بدأت عبقريته تتفتح وتتدفق بالقلق والحيرة والعذاب يدرى ماذا يبحث عنه . . ولعله كان يتصور مثالا آخر للمرأة يتخيله الشعراء ويحوطونه بالغموض والأسرار ، ولكنه يبعدهم دائمًا عن المرأة كما يبعد عنهم المرأة الواقعية بفطرتها . . وهكذا لم يكن بد من التحلل من هذا الرباط . وكتب إليها (فى مارس سنة ١٧٩٠) بالقرار الذى صمم عليه . . فقد اختار أن يتحرر من هذا الحب ، وإن اقترن هذا الاختيار بما يخجل الرجولة أو يعيبها . ولكنه لم ينس أن يقدم لها صداقته ووده ، ويعدها على الرغم من كل شىء بإخلاصه ووفائه الأبدى ! . .

* * *

الثائر

« نحن كذلك أغنياء بالأفكار فقراء فى الأعمال » .

« إنسان منطو على الدوام ، عابس الملامح » *

هكذا صور هلدرلين نفسه فيما بعد ، عندما أطبق عليه ليل الجنون المظلم ما يقرب من نصف حياته . .

أخفق حبه الأول كما رأينا ، وكتب إلى حبيبته الأولى رسالة فيها من العذاب بقدر ما فيها من الكبرياء . .ولكنه اضطر كذلك إلى تبرير تصرفه أمام أمه التى ظلت تتمنى له الراحة والدفء والاستقرار . فبعث إليها بسطور يقول فيها إنه صمم منذ سنوات على عدم الزواج . وسواء جاء هذا التصميم عن خيبته فى الحب أو سوء حظه أو غيبة الظروف والفرص المواتية ، فلا شك أنه كان يتفق مع طبيعته وينبع من إحساسه بنفسه ، ولا شك أيضًا أنه بقى وحيداً فى رحلة الحياة والعذاب . ولعله كان يشعر شعوراً قويًّا بالقدر المظلم الذى ينتظره ، ويعتز بالهدف الذى رسمه له وحيه ووجدانه . ها هو ذا يستطرد فى رسالته إلى أمه ويقول : « إن طبعى العجيب ، وأهوائى المتقلبة ، وميلى إلى المشروعات البعيدة ، (ولأعترف لك بالحقيقة كاملة) وطموحى ، كلها ملامح لا يمكن أن تمحى من الوجود بغير آثار خطيرة ، وهى لا تجعلنى أتوقع السعادة فى الزواج الهادئ » . .

ولكنه لا يريد أن يزيد الأم حزنًا على حزن ، فيختم رسالته بقوله : «ومع هذا فقد يغير المستقبل ذلك » ولم يغير المستقبل شيئًا ، لأن العبارة لم تكتب إلا رحمة بالأم .

والطموح الذى يذكره هلدرلين فى هذه الرسالة بما يشبه الاعتذار يدل فى الحقيقة على الصراع الذى كان يعانيه وهو يحس إرادته تتمرد على وجدانه ، وروحه تصطدم بجدران الكآبة المتسلطة عليه . ولا بد أنه كان يريد التعبير عن هذا الصراع حين وصف طبعه بأنه عجيب . وحين قال عن نفسه فى صباه المبكر إنه أحمق وطائش وهو قول لا يملك من يعرف الآن قصة حياته إلا أن يرتعش لسماعه وتختلج كل جارحة فيه . .

كان عليه إذاً أن يحتمل هذا الصراع طوال حياته ، ويعيش هذا التوتر الذى جعله

* عن بيت ورد فى قصيدته أو رسالته الشعرية التى وجهها إلى نفسه على لسان حبيبته ديوتيما بعد موتها بسنوات قليلة ، انظر القصيدة كلها فى الفصل الأخير . .

يتمزق بين التهور والاتزان ، والتمرد المفاجئ والاستسلام المبكى . والذين التقوا به يحكون عن هدوئه وطيبته والسحر المنبعث من قسمات وجهه اللطيف ، وقامته المديدة، وهندامه الجميل ، وإشاراته المهذبة ، وتعبيرات ملامحه التى تنم على النبل والسمو ، ومشيته التى « تشبه مشية أبوللو فى بهو المعبد» . . ولكن يبدو أن نعمة الهدوء التى تشع منه لم تكن إلا القشرة الناعمة التى تخفى وراءها جمرات الحزن واليأس . وهو نفسه يعبر عن هذا بكلام يختلف عما يقول رواته وينضح بالشكوى من كآبته الملازمة . فهو فى عين نفسه « أحمق » ، و « لوح » * . وهو يسأل : « أأنا وحدى هكذا ؟ أأظل إلى الأبد ، إلى الأبد أتصيد النزوات والأهواء ؟ لقد قال عنى الدير كله ** إننى مصاب بكآبة من نوع خطير » . .

ويكتب إلى صديقه « نويفر » إنه أصبح عاجزاً عن البهجة ، ويتوسل إليه أن يسرى عنه كلما اشتدت محنته ، ولا ينسى وهو يرجوه الكتابة إليه عن أحواله أن يقول «ربما بعث هذا نوراً يبدد ظلامى» . . وتبلغ الشكوى ذروتها فى كل كلمة من كلمات هذه العبارة : « . . هكذا أجلس بين جدرانى المظلمة ، وأحسب كم أنا فقير من بهجة القلب فقر الشحاذين ، وأعجب من زهدى وصدودى » . هنا نجد جدران السجن الذى يطويه والظلام الذى لا يقوى على الخلاص منه ، والتفكير الذى لا ينقطع فى فقره ، والعجب الذى لا ينقضى من زهده وصده وتخليه . وما أشد المرارة والسخرية جميعاً فى هذه الكلمات . . .

* * *

لم يدخر هلدرلين وسعاً فى تعذيب نفسه ، وتلك سمة المنطوين والمنعزلين المتوحدين . ولكننا نخطئ إن حاولنا تفسير ذلك تفسيراً نفسياً أو مرضياً . صحيح أنه وصف نفسه وهو فى الثانية والعشرين من عمره بأنه شاعر مريض . . ولكنه قال عن نفسه كذلك إنه فقير كالشحاذ ، وهو قول لا يستغرب من إنسان يسعى إلى الحقيقة ويكافح من أجلها ، ويحتمل العذاب والحرمان والهوان فى حجه إليها . إن الفقر هو زاد الباحث عن الحقيقة ، والتجرد عصاه على الطريق . وبحثه عن الحقيقة بحث عن المطلق . ووجود هلدرلين كله تحرر وانطلاق من أشكال الحياة المألوفة ، من التقاليد الدينية ، من الأنظمة والمذاهب الفكرية ، من المفاهيم الفنية الشائعة فى بيئته . . وهو يبنى حياته وشعره بعيداً

* الغريب أن الكلمة الأصلية Holz توافق التعبير العامى تماماً . .

** المقصود هودير « ماولبرون » الذى تقدم ذكره . .

عن كل التصورات المألوفة على عهده . ولا يركن إلى شيء أو إنسان حتى يتحرر منه ويفلت من أسره . وكأنه المسافر الغريب أبداً ، قد يمد يده لعابر طريق ،ولكن ليلتقط أنفاسه ويستأنف رحلته . . فإذا طال السلام والكلام، ووجد أن الغريب سيهدد حريته أو يعطل سفره ، نبهه قدره أو وحيه ، وأعاده من جديد إلى فقره . ستكون هذه اللقاءات العابرة فى أواخر حياته هى المصائب والمحن التى تضفى عليه سمت الأنبياء وتجعل لأغانيه رنين الوحى الملهم من ربات الفن وآلهة الأوليمب . وستكون فى سنوات شبابه أشبه بتكسر الأغلال على صوت الضحكات ، ليخرج منها الشاب أشد حرية وجسارة . .

استمع إليه وهو يعبر عن هذا فى قصيدته عن نهر الراين :

لذلك كانت كلمته تهليلا .
إنه لا يحب ، كسائر الأطفال ،
أن يبكى فى الأربطة ،
فحيث يتسائل الشاطئان
المتعرجان على جانبيه
ويلتفان من الظمأ حواليه ، وهو غافل عنهما ،
ويتشوقان إلى جذبه وحمايته ،
(تراه) يمزق الحيات وهو يضحك من بين أسنانه
ويندفع بالفريسة ، وإن لم يسارع
من هو أكبر منه بترويضه ،
ويدعه ينمو كما ينمو البرق ،
فإنه يضطر إلى شق الأرض ،
وتفر الغابات مسحورة وراءه
وتنهار الجبال .

وكلمات القصيدة خشنة قاسية ، ولكنها تعبر عن جموح الشباب وكبريائه . . فهناك الحيات المتلوية التى لا تجرؤ على مواجهته فتتسلل على جانبيه ، وتحاول جاهدة أن تشده وتجذبه . إنها تريد أن تصيده ، وهو الحر ، وتشتاق أن تروى عطشها من صفائه . . فالراين هو الشاب الذى تستمد حياتها منه . بل هو «هرقل» الذى تذكر الأسطورة الإغريقية أنه مزق الحيات التى التفت حوله بذراعيه الجبارتين . وكأن هذا

النهر القوى الرائق قد استحال قدراً من أقدار الطبيعة .. والفكاك من قيود القدر لا يتم بغير تضحية ومرارة وعذاب . .

* * *

والكآبة بطبعها ملازمة للجمود وعدم الاكتراث .. وقد طالما شكا أصدقاء هلدرلين من فتوره معهم ، وقطيعته لهم بغير سبب معروف . إن « إمانويل ناست » الذى جمعته به فى صباه أواصر الود والمحبة ، يكتب إليه فى رسالة لا نعرف أنه كتب له رسالة أخرى بعدها : « لست أدرى إن كان من الواجب على أن أتعارك معك أو أتوسل إليك لتتعارك معى . . . وداعـًا يا أخى العزيز . . البارد ؟ . . وتأكد أن بقاء تلك الصداقة القديمة الدافئة أمر يتوقف عليك » . .

ولم تجد كل الآلام التى قاستها حبيبته الأولى « لويزة ناست » ولا كل العتاب الذى وجهته إليه من تغيير قراره بالبعد عنها . إن حبها لم يستطع أن يشبع شوقه إلى الحب الحقيقى الذى ستعبر عنه هذه الأبيات من قصيدته السابقة عن الراين :

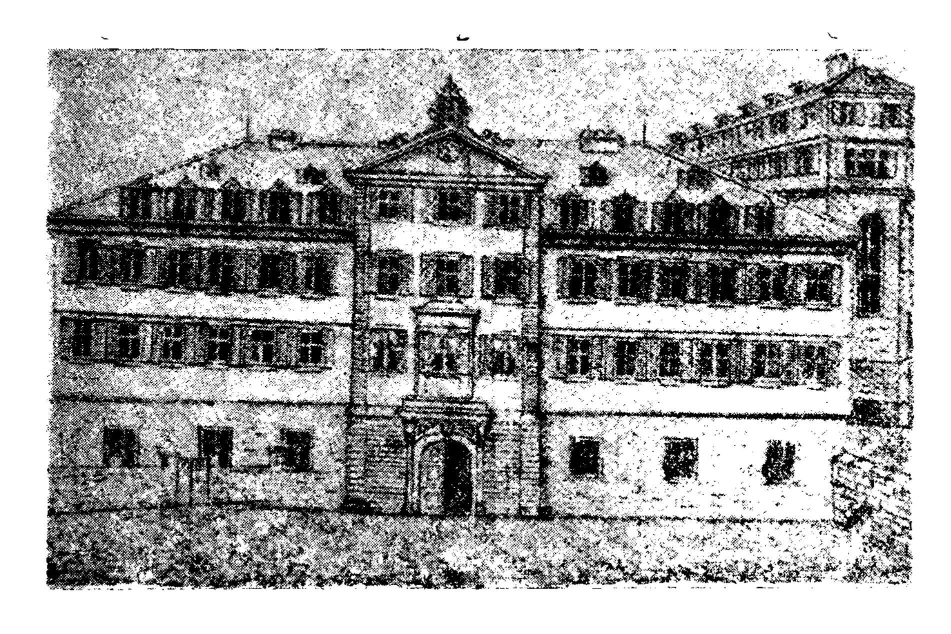
من الذى بدأ
بإفساد أواصر الحب
وجعل منها قيوداً ؟

والجواب عسير عن هذا السؤال . ولكنه يشير إلى جانب من طبيعته المظلمة الملغزة فى نظر أصدقائه ومعارفه ، ويعبر عن حيرته من نفسه التى لا تطمئن لشىء ولا تستطيع أن ترتبط بإنسان بحيث تعطيه وتضحى من أجله وتفنى فيه . .

* * *

كان هلدرلين فى هذه الأثناء قد انتقل إلى المعهد الدينى فى مدينة « توبنجن » فدخله فى أكتوبر سنة ١٧٨٨ . واستطاع بعد سنتين أن يحصل على شهادة الماجستير . وكانت دراسته الأولى فى هذا المعهد تشمل المنطق والفلسفة العملية وما بعد الطبيعة والتاريخ والرياضة والفزياء واللغتين اليونانية والعبرية . ثم اتجه بعد إتمامها إلى اللاهوت الخالص فأخذ يتعلم الأصول والجدل وتفسير النصوص والأخلاق ، وأصبح من حقه أن تصرف له كل يوم قنينة من النبيذ بشرط أن يدرس معها اللاهوت !

وكان هذا المعهد الدينى فى صرامته وجهامته أشبه بالدير ، بل كان فى الأصل أحد الأديرة الأوغسطينية الرابضة عند أقدام «الشلوسبرج » . إن أسواره أشبه بأسوار .



المعهد الديني بمدينة توبنجن

(من رسم الشاعر ادوارد موريكه)

السجون ، وغرفه العتيقة الخشنة أشبه بالزنزانات الرطبة التى تنفذ إليها الريح والمطر والثلج. والطلبة يتكوم بعضهم بجانب بعض اتقاء للبرد، إذ لم تكن التدفئة تصل إلا لثلاث عشرة غرفة فى المعهد كله ، بحيث لم يكن الواحد منهم يستطيع أن يكتب خطاباً بغير أن تلتهمه عين جاره .. وكان نظام التربية يقضى بالتجسس على الطلبة ومراقبتهم مراقبة شديدة ، وكان هذا يثير ثائرة هلدرلين ويجرح شعوره بالفردية والكبرياء جرحاً عميقاً .. ومع ذلك فقد ظل يحتمل هذه الحياة القاسية ويصبر على قيودها ومكارهها ، مستجيباً لتوسلات أمه المسكينة التى لولاها ما قضى فى هذا الدير يوماً واحداً . ها هو ذا يعبر عن سخطه على الوصاية المفروضة عليه فيقول :

لم أعد أطيق هذا !
أن تسير خطى الصبى أبداً أبداً ،
خطاه القصيرة المحسوبة كل يوم
كالسجين المغلول ، لا لم أعد أحتمل هذا !

كما يثور على كل طموح أكاديمى سخيف : « يستوى عندى أن تستقر كل ألقاب الماجستير والدكتوراه وكل ما يقترن بها من توقير واحترام فى خرائب المورة » * . ولكن السخط يتجه قبل كل شىء إلى اللاهوت وأصحابه المتزمتين الذين يسميهم حفارى القبور فى توبنجن ! .

وكانت هذه القيود والسدود هى التى ألهبت فى نفس الجيل الجديد شعلة التحرر والانطلاق من أسر الأنظمة الجامدة ، وجعلته يتطلع إلى فجر الحرية والشباب والمعرفة الحقة ، ويطالب بنظرة جديدة للتاريخ وشكل جديد للدولة والدين . واستمد هؤلاء الشباب الشجاعة والأمل من شخصية إمبراطور النمسا العظيم يوسف الثانى الذى حاول أن يحقق حلم الدولة المطلقة المستنيرة التى تكاد تشبه حلم اليوتوبيا القديم ، مما جعل الشاعر الكبير « كلوبشتوك » ، يعبر عن حلمه بيوتوبيا أكاديمية سماها « جمهورية العلماء الألمان» سرعان ما تبنى الشباب فكرتها والتفوا حولها . .

وتسنى لهلدرلين واثنين من رفاقه فى الدير — وهما نويفر وما جيناو — أن يجتمعوا على الحب العميق ، حتى قال شاعرنا المنعزل عن صديقه « نويفر » : « لقد كان أول من علمنى كيف أسعد بالصداقة سعادة حقيقية أصيلة » ، كما استطاع هذا الصديق

* أو الموريا وهو الاسم الذى عرفت به شبه جزيرة البيلوبونيز فى جنوب اليونان منذ القرن الخامس عشر ..

أن يكون على مدى سنوات طويلة نوراً يشع بالأمل لروحه المعتمة الحائرة ، وأن يتحكم فى أهوائه ونزواته « وكل الأرواح الشريرة التى تسومه العذاب » ، ويجد عنده الاتزان والمثابرة اللذين افتقدهما فى نفسه ، بمثل ما وجد التواضع والسخرية والمرح عند صديقه الآخر ماجيناو . .

كان من عادتهم أن يجتمعوا كل يوم على زجاجة من الجعة أو النبيذ ، وكراسة يقرأ منها كل منهم ما جادت به عليه ربات الفن والشعر . . وانضم إليهم الشاعر فريدريش ماتيسون (١٧٦١ – ١٨٣١) الذى لم يكد يسمع أنشودة هلدرلين « إلى روح الجسارة » حتى ألقى بنفسه بين ذراعيه وراح يضمه بعنف إلى صدره . . . كانت هذه الأنشودة – مثلها مثل سائر الأناشيد التى كتبها فى هذه المرحلة من شبابه – قريبة فى العاطفة والفكرة من روح شيلر . وكان شيلر هو الخبز اليومى على مائدة هؤلاء الأصدقاء . . فحديثهم عنه لا ينقطع ، وإعجابهم بإنسانيته ونبله ومثاليته وشجاعته وطاقته الهائلة لا يقف عند حد . . وكان لشيلر فى هذه المرحلة وفيما سيأتى من مراحل العمر أثر لا يقدر على حياة هلدرلين . فهو الذى تعاطف معه ولمس موهبته ووجهه فى رفق إلى تدارك عيوبه . وهو الذى أمده بالثقة فى نفسه ، وساعده على التغلب على تردده والمضى إلى إتمام رسالته ، ونصحه بالتمسك بالقيم الموضوعية ، واستشراف الآمال البعيدة الجسورة والبعد عن «الذاتية العنيفة » . . وكانت قصائده فى هذه الفترة التى قضاها فى توبنجن تعبر عن الجهد الذى يبذله فى البناء والصنعة ، ولكنها تفتقر إلى ذلك الشىء الذى يجعل الفن حياة ، أعنى الضرورة الباطنة التى تدفع للكتابة فكأنما يستجيب الإنسان لقدر لا فكاك منه ، ويضع نفسه ودمه فى كل حرف تخطه ريشته . غير أنها ظلت قصائد فخمة اللغة ، موغلة فى التحليق ، شديدة التشتت ، مغتصبة التعبيرات والصور ، بعيدة عن النغمة الوديعة الهامسة المنكسرة التى تميز أجمل شعره وأبقاه . انظر إلى هذه المقطوعات من قصيدته إلى روح الجسارة أو شيطانها العبقرى وستلمس مدى التعب والضنى الذى تكبده الشاعر فى مثل هذه القصائد التى كتبها أيام شبابه فى توبنجن :

من أنت ؟ كالفريسة
يتمدد اللامحدود أمامك ،
أنت أيها الرائع ! عزف أوتارى

يهبط معك أيضاً إلى بيت « بلوتو »[١] المظلم ؛
هكذا جرت الميناداتُ[٢] المترنحات على ضفاف أورتيجيا[٣]
– فى حين راحت عاصفة الغناء تبدد السحاب –
إلى الأيكات والأخاديد وراء رب الكروم
وقد أخذتهن اللذة العارمة .

* * *

قديماً صحت لك ، كما صحت لى ، الشرارة الهادئة
واشرأبت شعلة حرة صافية ،
رحت تفور ، وقد أسكرك الفرح الشاب ،
مزهواً فى ليل غاباتك ،
وذراعك الغضة تلوح بالهراوة
كما علمتك الشدة والبلوى ،
وأخذت تتوعد أعداءك الأول الذين غنمت منهم
جلد الأسد الذى طوقت به كتفيك .

* * *

كم تحدت الطبيعة قوة الأبطال
فى الحرب الشابة الفتية !
آه ! كم نسيت الروح نهاية الفانين
وقد أسكرها النصر المبين !
أولئك الفتيان الأباة ! الأمجاد الجسورون !
قيدوا النمر بالأغلال وهم فرحون ،

---

(١) بلوتو أو هاديس هو إله العالم السفلى عند اليونان الأقدمين ، أو هو العالم السفلى نفسه ..

(٢) هن نساء أصابهن جنون النشوة والسكر فى موكب الإله ديونيزيوس أو باخوس رب الخمر والنشوة ..

(٣) يخلط هلدرلين بين جزيرة ناكسوس ، وكانت جزيرة الإله ديونيزيوس إله الخمر والنشوة ، وبين جزيرة ديلوس التى كانت تسمى كذلك جزيرة أورتيجيا ، وهى مكان عبادة الإله أبولو رب النور والشعر والموسيقى ..

وروضوا المحيط الملكى
ومن حولهم ترقص الدلافين المبهورة .

* * *

كثيراً ما أسمع صليل أسلحتك ،
أنت يا حامى[١] الجسورين .
وبهجة الإنصات إلى معجزات شعبك البطل
تشد صدرى المتعب من الحياة ،
على أن الإقامة تطيب لك بين الآلهة الوادعين[٢]
حيث عالم الفنانين يبعث الجسارة فى الحياة
وحيث ينسج روح الشعر النبيل النقاب
حول جلال الوجود غير المنظور .

* * *

روح الكون ومباهجه[٣]
حياها ابن ميون[٤] مقتفياً آثارها المقدسة ؛
وقفت الطبيعة الأزلية أمامه
مفعمة بالجد وقد نزعت الغطاء ،
ناداها بجسارة من أرض الأرواح المظلمة ،
فظهرت الملكة التى لا اسم لها باسمة
تصحبها جوقة الأفراح ، ساحرة فى رداء بشرى .

* * *

ومع ذلك فقد كانت مفزعة ، يا رب الجسورين !

---

(١) من معانى الروح أو الملاك الحارس أو شيطان العبقرية Genius

(٢) الكلمة الأصلية تدل على الأرباب الذين كان الرومان يعتقدون أنهم يحمون البيوت وأصحابها (Laren) ومفردها (Lar) مشتق من اللغة الأترسكية القديمة ومعناها الرئيس أو السيد .

(٣) حرفياً : وامتلاءه ، والمعنى هو مشاهد الكون المتنوعة المفعمة بالبهجة والحياة .

(٤) ابن ميون أو المايونيد هو الشاعر الأكبر هوميروس ، كما تسمى المنطقة التى يقال إنه ولد فيها – وهى تقع الآن حول مدينة أزمير – باسم مايونيا ..

كلمتك المقدسة ، عندما ظهر المبشرون
بالنور الأبدى بين الليل والنعاس ،
وأصمت شعلة الحقيقة الكذب والخداع ؛
مثلما ينثر رب الرعود بروقه
على الوديان الخائفة من ليالى الأنواء الشاهقة ،
كذلك بينت للأجيال المنهارة
سقطة العمالقة وفناء الشعوب .

* *

وزنت بالقسطاس العادل المستقيم
لما استبدلت بالسيف الرداء الطويل[١] ؛
تكلمت ، فترنحوا ، أولئك الساردانابالیون[٢] ،
إذ أسكرهم كأس غضبك الشديد ،
عبثًا حاول الظلام القديم بجهامة النمور
أن يخيف قضاءك الأمين[٣]
أنصت جاداً لصوت البراءة الخفيض
وقدمت التضحيات لربة العدالة المقدسة[٤] .

* * *

لا تتخل ، يا روح الجسورين
يا من يلتف بدرع الآلهة
لا تتخل عن البراءة أبداً !

---

(١) حرفيا : التوجا وهو الرداء الطويل الفضفاض الذى كان يلبسه الرومان الأقدمون ..

(٢) نسبة إلى ساردنابال أو ساردنابالوس ملك مدينة نينوس (نينيث أو نينوى) الذى اشتهر بالتهالك على المتعة واللذة .

(٣) حرفيا : أن يخيف محكمتك ..

(٤) حرفيا : قدمت التضحيات لنميزيس وهى ربة العدالة التى تعاقب المغرورين الذين يتجاهلون الحدود التى ينبغى أن يلتزمها البشر ، وقد كانت هذه هى أكبر الكبائر فى نظر اليونان (ويسمونها الهيبريس) ..

تقدم واعمر قلوب الفتيان بلذة الانتصار !
آه لا تتوان . حذر ، عاقب ، انتصر !
وأيد جلال الحقيقة على الدوام ،
حتى يخرج السلام الخالد — طفل السماء —
من مهد الزمن الحافل بالأسرار ! .

قصيدة محلقة فى سماء الأساطير ، مفعمة بجلال الروح اليونانى القديم وقداسته ، مزدحمة بأسماء الآلهة والأبطال ، معبرة عن جهد الشاعر فى الصنعة والبناء . ومع ذلك فهى لا تخلو من كلمات رقيقة هامسة تلمع فى ثناياها كما تلمع زهرات البرق وسط العواصف والأنواء . كلمات من لغة الشاعر التى تميزه عن غيره كالبراءة والسلام والطفل والصوت الهامس الخفيض ، وكلها أوتار سيعزف عليها أناشيده وأغانيه المقبلة ، لتلمس القلب بهدوئها وانكسارها ووداعتها وانطوائها على آلامها وجراحها . .

* * *

لم يكد هلدرلين يغادر مدينة توبنجن حتى توارت هذه اللغة الفخمة المحلقة التى تكاد تغتصب الصور والكلمات . ها هو ذا يقول فى شهر أبريل سنة ١٧٩٤ عن قصيدة أخرى كتبها فى تلك الفترة من حياته وسماها « قصيدة إلى القدر » قال : « لم أعد أقوى على احتمالها » . . لقد بدأت تسود أشعاره الأنغام النقية الرفافة التى تميزه حقاً . كما بدأت تجربته الفكرية تتضح وتكتمل لتصبح رسالة شاعر يريد أن يربى ويتنبأ ويبشر بالطهر والقداسة والبراءة والجلال . .

وبدأ إحساسه بسر عبقريته وقدره يلقى ظلالا حزينة على علاقته بالأصدقاء . . لقد فتحوا له الطريق إلى سر الصداقة نفسه ، فما حاجته الآن إليهم ؟ هكذا أخذوا ينتقلون إلى منطقة الظل ، وما أكثر ما تلقى العبقرية من ظلال على حياة صاحبها وصلته بمن حوله من الأهل والأحباب . . وتراجع الصديقان ماجيناو ونويفر من حياته شيئاً فشيئاً حتى خرجا من دائرتها تماماً . وأخذت الدائرة تضيق شيئاً فشيئاً على الشاعر نفسه قبل أن تطبق عليه فى النهاية وتخنقه يد الجنون . وها هو ذا الأمر يتخذ الآن صورة أسطورية ويلتف فى وشاح غيبى . إنه يقول عن علاقته بأصدقائه : « القدر يدفعنا للأمام ويدور بنا فى دائرة ، ونحن لا نملك الوقت الكافى للبقاء مع صديق ، وكأننا أشبه

بالفارس الذى انطلقت به الجياد » . لقد حملته العاصفة وبعدت به عن صديقيه . ربما عبر عن إعجابه بثبات صديقه : « ومع ذلك فأنت تملك الهدوء والاطمئنان . . وبودى أن أملكهما » ولكنه يدرك أن قدره يطارده ويحكم عليه بالقلق الذى يتمكن من الشاعر الحق . ولذلك فسوف يتلفت حوله مع نهاية القرن فلا يجد أحداً من أصدقائه . .

ولعل أبرز الأصدقاء وأنشطهم وأشدهم أثراً عليه فى هذه الفترة من حياته هو جوتهولد فريدريش شتويد لين (١٧٥٨ — ١٧٩٦) وكان بتربيته من رجال القانون ، وبطبعه المكافح الهادئ صحفيـًّا من أنصار الثورة الفرنسية والعاملين على نشر مبادئها فى وطنه . إن هلدرلين يشكر اللحظة التى أتاحت له أن يلقى « هذا الرجل الرائع حقـًّا » ، وأن « يعثر على قلبه » . استطاع هذا الصديق النبيل الذى كان يكبره باثنتى عشرة سنة أن يؤدى له خدمات جليلة . فقد نشر له عدداً من قصائده التى كتبها خلال وجوده فى توبنجن فى الحولية التى أصدرها فى سنتى **١٧٩٢** و **١٧٩٣** ، وعرفه فى صيف سنة **١٧٩٣** بالشاعر « ماتيسون » الذى سبقت الإشارة إليه ، وسعى إلى لقائه بشيلر الذى كان لإنسانيته وفكره أعظم الأثر على حياته وتطوره . ولا بد أن هذه العبارة التى قالها فى ذروة تحمسه للثورة الفرنسية قد كتبت تحت تأثير شتويدلين : « يجب علينا أن نضرب المثل للوطن وللعالم على أننا لم نخلق لكى يعبث بنا التعسف كما يشاء » . ولا بد أن كفاح هذا الصديق المثالى فى سبيل الحرية ، ودعوته للأصدقاء أن يعملوا فى هدوء من أجل هذه القضية الكبرى ، ثم اضطهاد الحكومة له وطرده من البلاد ، ويأسه الذى أدى به إلى إلقاء نفسه فى مياه الراين سنة ١٧٩٦ . . . لا بد أن هذا كله لم يعدم أثره القوى على وجدان هلدرلين . . بيد أنه ظل بعيداً عن الثائرين المتطرفين من شباب توبنجن وصخبهم ومظاهراتهم ، على الرغم من إيمانه بقضية الحرية وتحمسه لها وعمله من أجلها . وكانت تجمعه بأحد هؤلاء الثائرين علاقة ود خالص حميم . وكان هذا الصديق — وهو كرستيان فريد ريش هيلر (١٧٦٩ — ١٨١٧) — شابـًّا مرحـًا نقى السريرة صافى البصيرة ، يؤمن بالحرية والسلام أعمق الإيمان ، ويصون قلبه وعينيه من سحابات اليأس والأحزان . إن الشاعر يصفه فى هذه الأبيات القليلة بقوله :

أخى . منحك رب الحب شرارة إلهية ،
حسـًّا رقيقـًا صافيـًا تتلمس به الروعة والجمال ،
فؤادك يتوهج بالحرية الأبية وبراءة الأطفال . . .

أخى . تعال وذق معى الكأس الساحرة .

ولكنه لم يشأ أن يشاركه عنفه وثورته مع غيره من الشباب فى أسواق المدينة وشوارعها . لا لأنه كان بطبعه هادئًا عاكفًا على نفسه ، بل لأن الانضمام إلى الجمعيات والاشتراك فى المظاهرات كانا من أبغض الأشياء إليه .

وربما كانت أجمل الذكريات التى يحملها هلدرلين لصديقه هو قيامهما معًا فى صحبة صديق ثالث كان يدرس الطب (ميمنجر) برحلة للتعرف على سويسرا « بلد الحرية الإلهية » التى اجتمع فيها الكفاح الأبى مع السلام الرعوى الجميل . .

* * *

تجول الأصدقاء الثلاثة فى أنحاء سويسرا ، وملأوا عيونهم بمباهجها ومجاليها ، وكشفت البحوث الحديثة منذ حوالى عشر سنوات عن زيارتهم لواحد من أشهر رجالات العصر ، وهو يوهان كاسپار لافاتر (١٧٤١ — ١٨٠١) الكاتب الشاعر المتدين ، مؤسس علم الطباع ، وأحد رواد حركة العصف والاندفاع ، المكافحين ضد الظلم والطغيان فى بلاده ، المتحمسين للثورة الفرنسية وصديق جوته وهردر وهامان . ولا بد أن هذه الزيارة تركت أثراً لا يمحى فى نفس الشاعر وخياله ، ولا بد أن العالم المرموق قد أدرك بإحساسه وثاقب بصره سر « النار المركزية » — فهكذا كان يسمى العبقرية ! — التى تتوهج فى كيان هلدرلين . ولا بد أنه استعان بنظرياته فى علم الطباع فقرأ ملامح وجهه وحسب أبعاد رأسه وعرف أن هذا الشاب الوديع المنكسر الذى يقف أمامه شاعر حق بل هو الشعر نفسه مجسداً فى كيان إنسان مسكين . ومن يدرى ؟ فلعل هذه الزيارة أن تكون من بين الأسباب التى دفعته إلى كتابة قصيدة رائعة عن سويسرا أهداها إلى صديقه هيلر وحيا فيها بلد الحرية وأبطالها المقدسين ، وتذكر رحلته إليها مع هذا الصديق الذى يقول له بعد الأبيات التى قرأتها منذ قليل :

هناك حيث يكسو شعاع المساء السحابة الغربية بالذهب ،
هناك أرسل الطرف وأذرف دموع الشوق !
آه ! هناك رحنا نتجول ! وسرحت العين وتاهت
فى المشاهد الرائعة من حولنا ! — كم حاول الصدر أن يتسع
ليضم هذه السماء ! . . كم التهبت الخدود

وقد رطبتها نسمات الصباح العذبة ،
وتوارت زيوريخ بين الأغانى والأناشيد
عن عيون الراحلين فى القارب المنساب بهدوء !
يا سلام أركاديا* . .
أيها السلام العذب المجهول ، وأنت أيتها البراءة القدسية ،
كم تزدهر الفرحة النادرة فى شعاعك .
لو أمكننى أن أنساك ، يا بلد الحرية الإلهية ،
لصرت أسعد حالا ، فما أكثر ما يعرونى الخجل اللاذع
والحزن ، كلما تذكرتك وتذكرت المكافحين المقدسين .
آه ! عبثًا تبتسم لى السماء والأرض ابتسامة الحب السعيد ،
عبثًا تبسم عيون الاخوة المتطلعة إلىّ .
لكنى مع ذلك لا أنساك ! إنى أنتظر وأرجو أن يأتى اليوم
الذى يتحول فيه الخجل والحزن إلى فعل يسعد الفؤاد . .

كان هلدرلين إذاً يشارك أصدقاءه وأبناء جيله حماسهم لمبادئ الثورة الفرنسية وسخطهم على المهانة والطغيان فى بلادهم ، وشوقهم إلى حكم جمهورى حر يخلصهم من المستبدين . ولكنه لم يكن من أنصار العنف والشغب وتحطيم النوافذ والأبواب والتماثيل . . كانوا جمهوريين بالجسد والحياة ، وكان جمهوريًّا بالعقل والحقيقة . . صحيح أن حياته الأولى فى مدينة توبنجن الحالمة الصغيرة لم تخل من تصرفات تنم عن النزق والطيش وقد تصل إلى حد المغامرة . . غير أن هذه الميول المتهورة بدأت تنطوى إلى الباطن شيئًا فشيئًا وتصبح جزءاً من حلم أسطورى كبير يؤرق صاحبه بالحسرة والشوق إلى عالم الآلهة والأبطال والقديسين الخالدين . وبدأ الإحساس بهذا العالم والتنبؤ به والبكاء عليه يستولى على قلبه ، وينأى به عن المشاغبين والمتظاهرين المؤمنين بالتحرك والفعل ، مما جعله يقول فى قصيدته الشهيرة « إلى الألمان » (١٧٩٩) إنه من أولئك الأغنياء فى الفكر الفقراء فى الفعل . .

وهو فى هذه القصيدة يعبر عن موجة من موجات الثورة الباطنة التى اندفعت به

* إحدى الجزر فى شبه جزيرة البليبونيز (التى تعرف الآن بشبه جزيرة المورة) التى أصبحت فى الأدب عنوان الحياة الرعوية الهادئة البريئة المسالمة . .

إلى شاطئ النضج والتحرر والطهر . إنه يناجي فيها « الروح الخلاق » و « العقل المربى » . هذا الروح الخلاق المربى هو فى الحقيقة روح الوطن الذى يدعوه أن يتجلى لأبنائه التائهين . وهو روح هادئ ساكن لا يكاد يظهر للشاعر حتى يخرس أشد أوتاره خفوتًا . وهو يختلف عن ذلك « الجديد » المقبل بالصخب والعنف على أيدى الشباب المتحمس ، الجديد الذى يحطم الآلات القديمة ويخنق العزف والغناء . إن الروح الخلاق سيظهر لأبنائه فتسكت الأوتار ، وتستحيل الهمسات صمتًا وصلاة ، ويذوب النغم الهامس فى فرحة الروح . . . اقرأ معى بعض مقطوعات هذه القصيدة الهامة التى تبدأ بهذه الأبيات المشهورة :

لا تهزأوا أبداً بالطفل الذى تصور له السذاجة
وهو فوق الحصان الخشبى أنه رائع وعظيم ،
آه أيها الطيبون ! نحن كذلك
فقراء فى الفعل أغنياء بالأوهام ! .

ثم لا يلبث أن يسأل سؤالا يكشف عن شكه فى قدرة الفكر وإيمانه به وبالحرف المكتوب فى آن واحد :

ولكن هل يأتى الفعل ، كما يأتى الشعاع من ثنايا السحب ،
هل يأتى ناصعًا وناضجًا من الأفكار ؟
هل تتبع الثمرة الكتابة الهادئة
كما (تفعل) الورقة المظلمة فى البستان ؟

ويرى الصمت المخيم على الشعب فيحس بوجدان الشاعر وقدرته على التنبؤ أنه الصمت الذى يؤذن بمقدم الإله :

والصمت الذى يخيم على الشعب ، أيكون هو الاحتفال
الذى يسبق العيد ؟ أم الخوف الذى ينبئ عن الإله ؟
آه ! خذونى إذاً أيها الأحباب ،
حتى أكفر عن (خطيئة) تجديفى »

ويتذكر رحلة عذابه فى البحث عن هذا الإله أو هذا الروح ، وضياعه بين الشك والحيرة والحنين :

ها أنذا كالجاهل أتخبط فى التيه من زمن طويل طويل ،
هنا فى « مصنع » الروح المصور الخلاق ،
لا أعرف إلا ما تزدهر براعمه
لكن لا أعرف فيم يفكر ويدبر .

ويعود إلى الإحساس الذى كان يشده على الدوام إلى هذا الروح ، وهو إحساس عذب ، لكنه ممزوج بالعذاب ، إحساس المحب الذى ينتظر القادم ويستشرف ساعته ، وإن كان لا يعرف حقيقة هذا الحب والانتظار والاستشراف :

والإحساس[1] عذب ، غير أنه كذلك عذاب ،
وقد عشت سنوات طوالاً تساورنى الريب والشكوك
فى حب فان لا يفهم
ويهزنى التأثر أمامه على الدوام
وهو الذى يقرب منى الفعل الثابت
النابع من روحه المحبة ، ويبتسم للإنسان الفانى
حيث يغلبنى التردد ،
ويعين الأعماق الخالصة للحياة على النضوج .

ثم يعرف حقيقة دعائه ونجواه ، ويدرك أن الروح الذى يبتهل إليه أن يظهر للفانين هو روح شعبه الذى سيركع أمامه ليسأله الصفح عن شكه وجحوده ، ويقدم له صلاة الشكر والعرفان :

أيها الخلاق ، متى يا روح شعبنا
متى تتجلى فى كامل نورك يا روح الوطن ؟ . .
كى أركع أمامك فى خشوع ،
ويصمت فى حضرتك أشد أوتارى خفوتاً
وأشتاق أن أموت فرحان بين يديك ،
خجلان كأنى زهرة ليل
يا أيها النهار السماوى .

---

(١) بمعنى التكهن والاستشعار .

ويصبح كل الذين جمعتنى بهم الشكوى والأحزان قديمًا
وكل مدننا مشرقة ومفتوحة ومتيقظة . .
مفعمة بالنار الصافية
وتصبح جبال بلاد الألمان
هى جبال ربات الفنون
كما كانت قديمًا جبال بندوس[1] وهليكون[2] وبارناس[3] الرائعة
وتتألق حولنا الفرحة الحرة الساطعة الناصعة ،
تحت سماء الوطن الذهبية .

تلك هى الفرحة الحرة الصافية المنبعثة من أعماق الروح ، الفرحة التى لن تتم حتى يتجلى الإله فى سماء الوطن ، ويشمل جباله ووديانه وأفئدة أبنائه الفانين بالطهر والبراءة والسكون . . وهى كذلك الفرحة التى تتألق بنور المحبة والصداقة التى جمعته بأصحابه المتحمسين لمبادئ العدل والحرية والمساواة التى بشرت بها الثورة الفرنسية الكبرى . .

صحيح أن هذه الصداقة بطبعها قصيرة العمر ، محدودة إذا قيست بأعمار الأمم والشعوب :

حقًا إن آجالنا محدودة ،
ونحن نرى سنوات عمرنا ونحصيها ،
ولكن هل قدر لعين بشر
أن ترى سنوات الشعوب ؟

ولكن قصر الأجل لا يمنع الرؤية ، وتعاسة الفناء لا تحول بيننا وبين الوقوف على الشاطئ والتطلع عبر حاضرنا المحدود ، وترقب الموعودين الذين نأمل فيهم ، وننتظر أن يدفئوا أيدينا بمحبتهم :

ومع أن روحك المشتاقة تحلق فوق عصرك ،
فسوف تتوقف محزونًا على الشاطئ البارد

---

(١) سلسلة من الجبال فى شمال بلاد اليونان عرفت بجبال ربات الفنون .
(٢) جبل فى بؤتيا به معبد لأبولو وربات الفن .
(٣) جبل فى فوكيس تقع دلفى ومعبدها فى سهله وكان أبوللو وربات الفنون يقدسونه .

مع أهلك ولن تعرفهم أبداً ،
ولن تعرف أبناء المستقبل الموعودين ،
أين ، أين يمكنك أن تراهم ،
حتى تدفئك يد الصديق من جديد
وتستمع روح إلى ما تقول ؟

فهل سيقدر له حقاً أن يتدفأ بيد الصديق ؟ هل يجد الروح التى تستمع للروح ؟
لقد سبقت الإشارة إلى هذه الصداقة التى ألفت بينه وبين صاحبيه « نويفر » و « ماجيناو » أيام (التلمذة) فى دير ماولبرون بمدينة توبنجن ، ثم لم تلبث أن بهتت ورانت عليها الظلال . ولكن هذه الصداقة بلغت ذروتها فى تلك الأيام مع رجلين آخرين ذاع صيتهما بعد ذلك وحفر اسمهما فى سجل العبقرية ، وهما الفيلسوفان هيجل وشيلنج . ولا بد أن نتكلم عنها الآن قبل أن تبهت هى الأخرى وترين عليها ظلال النسيان . .

* * *

بدأت هذه الصداقة الحميمة بين هلدرلين وهيجل وشيلنج فى خريف سنة ١٧٩٠ وانتهت سنة ١٧٩٣ . صحيح أنها استمرت قائمة بينه وبين هيجل حتى نهاية القرن ، ولكنها سرعان ما ذبلت بينه وبين شيلنج وحل محلها شىء أقرب إلى التباعد والتقدير والاحترام . .

والصداقة إحدى معجزات الوجود . قد نشهدها مرة فى حياتنا فتهتدى الروح إلى صديق الروح الذى لا يفرقنا عنه إلا الجسد الآخر ، وقد تنقضى الحياة فيحرمنا القدر من نعمتها النادرة . وقد شاء القدر أن ينعم الأصدقاء الثلاثة بهذه المعجزة وإن فرق بينهم بعد ذلك فسار كل فى طريق : هلدرلين على طريق « الروح المزدهر »* مهما شابت خصلات الشعر ، وهيجل على طريق « الروح المطلق » الذى تنتهى عنده الأضداد ويتحقق السلام الأخير ، وشيلنج على درب الفيلسوف المتصوف الذى يحلم « بكنيسة يوحنا » . .

ولقد كانت الصداقة بين هلدرلين وهيجل أشد عمقاً وأطول عمراً من صداقته

* كما يقول فى قصيدته الاحتفال بالسلام .

بشيلنج . ولم يكن السبب فى ذلك هو أنهما من سن واحدة فحسب (كان شيلنج يصغرهما بأربع سنوات) بل لعله يرجع إلى اختلاف موهبتهما وطباعهما — والضد يسعى إلى ضده كما يقولون — كما يرجع إلى عاطفة الحب الحنون الجارف الذى يحمله كل منهما لصاحبه .

كان من قدر هذه الصداقة الحميمة — وفى كل صداقة عظيمة جانب من القـَدَر ! — أن تؤثر على روح العصر كله ، كما أثرت على الحياة الشخصية والعقلية للشاعر والفيلسوف . كانت بالنسبة لهيجل أكثر الصداقات دفئـًا فى شبابه . وكان هلدرلين يحس بالراحة والهناء كاما التقى بهيجل . وليس أجمل من تواضعه حين يعترف بذلك فيقول : « إننى أحب رجال العقل الهادئين ، إذ يستطيع الإنسان أن يهتدى برأيهم كلما التبس عليه الأمر فى علاقته بنفسه وبالعالم » .

وليس من المبالغة أن يقال من ناحية أخرى إن الأساس الوجودى فى فلسفة هيجل لا يمكن أن يفهم إلا إذا فهمت صلته الشخصية بهلدرلين . أما هلدرلين نفسه فيعترف فى رسالة له إلى هيجل بأنهما على يقين من استمرار صداقتهما إلى الأبد . ثم يقول فى حسرة : « كثيراً ما كنت روحى الملهم . أشكرك جزيل الشكر . إنى أشعر بهذا منذ فراقنا شعوراً تامـًّا . . لا زلت أتمنى أن أتعلم منك أشياء ، وأخبرك فى بعض الأحيان بأحوالى . . . يجب علينا من حين إلى حين أن نتنبه إلى أن لكل منا عند صاحبه حقوقـًا واجبة » . .

وقد يدهش القارئ إذا عرف أن الفيلسوف الذى لا يكاد يقرأ له حتى يتصبب العرق على جبينه قد أهدى صديقه الشاعر قصيدة تحمل من الرقة والحنان والدفء ما يندر أن نجده فى كتاباته المعقدة المخيفة . . استمع إليه وهو يقول :

أقبل المساء ، السكون من حولى وفى وجدانى
صورتك ، أيها العزيز ، تتمثل لى ،
وأتصور بهجة الأيام الماضية ؛
لكنها سرعان ما تتوارى أمام آمال اللقاء العذبة
ويرتسم فى خيالى مشهد العناق الملتهب
الذى أشتاق إليه من زمن طويل ؛
ثم أتخيل الأسئلة التى نتبادلها

وتأمل كل منا لصاحبه فى الخفاء ،
وكيف غيـّر الزمن من هيئته وملامحه وتفكيره ؛
وأتخيل متعة اليقين بأن عهد الوفاء القديم
لا زال أشد رسوخـًا ونضجـًا مما كان ،
عهد الوفاء الذى لم يختمه قسم
بل نذرناه للحياة من أجل الحقيقة الحرة وحدها . .

أما صلة هلدرلين بشيلنج فكانت أكثر تعقيداً . صحيح أنها استمرت – فى الظاهر على الأقل – فترة أطول من صلته بهيجل ، كما كانت عميقة الجذور فى حياة كل منهما ، غير أن اعتداد شيلنج بنفسه من ناحية ، وخجل هلدرلين الفطرى وعكوفه على ذاته من ناحية أخرى ، قد عملا على قطع أسباب الصداقة بينهما بعد انتهاء سنوات الطلب فى توبنجن . . ويبدو أن شيلنج لم يستطع أن ينسى صديق شبابه كل النسيان . فهو يكتب فى سنة ١٧٩٥ إلى هيجل ويقول : « هلدرلين ! . . . إننى أصفح عن مزاجه المتقلب الذى لم يجعله يفكر فينا أبداً » . وهى كلمات تعبر بوضوح عن الإشفاق على الصديق المسكين ، الصديق الذى تشده الوحدة دائمـًا من أحضان أصحابه :

ما عاد صوت يتردد فى القاعة من أجلك
أنت أيها الرائى المسكين ! عينك المشوقة تنطفئ
والنعاس يجرفك إلى الأعماق ، فلا يذكرك أحد ولا يبكيك إنسان .

* * *

وقد تذكر هلدرلين صديقه فكتب إليه فى سنة ١٧٩٩ يرجوه أن يسهم فى مشروع صحيفة أدبية كان يفكر فى إصدارها . إلا أن شيلنج لم يرد على رسالته ولم يشارك فى المشروع الخيالى الذى لم يعرف النور . ومن الظلم أن نتهمه بالجحود أو الجفاء ، لأن مشاركته فى ذلك المشروع الفاشل لم تكن لتقدم أو تؤخر . ويكفى أن نقول إنه تألم ألمـًا لا حد له عندما بلغته أخبار المرض الأخير الذى أودى بعقله ، وهو ما سنعرض له فى فصل قادم .

* * *

سار الأصدقاء كل فى طريقه كما قلت . لكنهم اشتركوا فى نسيج واحد أو شبكة

واحدة قدم لها كل منهم خيوطه . ويصعب أن نسمى هذا النسيج المشترك باسم محدد . ولكن لعلنا لا نجاوز الصواب كثيراً إذا سميناه « الفكر الديالكتيكى » ، على الرغم مما فى هذه الكلمة الأخيرة من رنين مخيف ! أسهم كل منهم فى هذا النسيج بالخيط الذى يميزه عن صاحبه ؛ هلدرلين بالورع والخشوع المطلق ، وشيلنج بالفكر الجسور الدقيق الحاد ، وهيجل بالبناء الضخم والقدرة الخارقة على الاستدلال والتمحيص . .

تأثر الثلاثة فى مبدأ الأمر بلغة هردر (١٧٤٤ — ١٨٠٣) المتدفقة ومنهجه العضوى الحى فى التفكير ، ثم شجعتهم فلسفة « فشته » المثالية المطلقة ونظريته الضخمة المتعسفة عن العلم (وكان يقصد به الفلسفة) وأمدتهم بالمران والقدرة على مواجهة الحياة على اختلاف صورها . وليس التفكير الديالكتيكى إلا مواجهة الحياة المتطورة المتغيرة من خلال التوتر بين قطبين متضادين ، أى إدراك الصيرورة والتحول الناجم عن الصراع بين طرفين بحيث يتحقق الطرف أو المبدأ الثالث الذى يصالح بينهما ويتجاوزهما .

لم يكن هذا التفكير الديالكتيكى أو الجدلى منهجاً طبقه الأصدقاء الثلاثة كل فى مجاله ، بقدر ما كان الفعل الفكرى الأصيل الذى جمع بينهم . ومن طبيعة هذا الفكر المتغير المتطور تطور الحياة نفسها أن يفهم العقل أو الروح فهما تاريخياً . أى أنه لا يتم إلا فى التاريخ ، لأن التاريخ جوهره وقوامه .

يقول هلدرلين فى قصيدته عن « عيد السلام » : « إن الروح العظيم يفض صورة الزمان » ، ويقول هيجل : « إن الروح يشرح أو يفسر نفسه فى التاريخ » ، كما يطرق شيلنج نفس المعنى حين يقول : « كل لحظة خاصة من لحظات الزمان هى كشف عن جانب خاص من الله ، يكون مطلقاً فى كل واحد منها » . .

هكذا يفضى التوتر بين المرحلة الأولى (مرحلة الوجود الخالص البسيط الذى لم يتميز أو لم يتفتح بعد) والمرحلة الثانية (وهى مرحلة الوجود الذى يتفكر فى ذاته ويتبلور على نفسه) إلى مرحلة ثالثة يتم فيها التصالح والسلام فى الوجود . وهكذا أيضاً نستطيع أن نتصور هذا الطريق بخطواته الثلاث التى سارها هيجل وشيلنج وهلدرلين كل على طريقته ، بالتأمل أو الرؤية أو الشعر . ولا شك أن هذا تبسيط مخل بهذا الطريق المعقد المتنوع الذى لا حد لتعدد صوره ومستوياته . ولكن الذى يعنينا فى هذا السياق هو أن الأصدقاء الثلاثة — كل على طريقته وبقدر طاقته وملكاته كما قلت — يشتركون فى الغاية الأخيرة ، وهى السلام الذى ينتهى عنده موكب الصراع ، وتتحقق أمنية العقل والقلب . .

ونعود فنسأل : كيف سيبدو هذا السلام السماوى الهادئ الجبار كما يسميه هلدرلين ؟ وفى أى مكان أو زمان يفى بوعده ويبنى بيته ؟ . .

سيقول الأصدقاء الثلاثة « فى مملكة الله » . وسيراها كل منهم على طريقته فى الرؤية والتفكير . . .

إن هلدرلين يكتب إلى هيجل فى صيف سنة ١٧٩٤ – وبعد تسعة شهور من وداعهما لمدينة توبنجن – فيذكره بكلمة السر التى افترقا عليها ، ويؤكد له أنها ستجمعهما بعد كل تحول وتغير واغتراب . ولم تكن كلمة السر هذه سوى « مملكة الله » . ولم تكن مملكة الله فى تصورهم شيئاً مجرداً متعالياً غريباً عن الواقع ، بل شيئاً يستطيع كل واحد منهم أن يشارك فيه بجهده وإيمانه وحبه وأمله . ها هوذا هيجل يصف هذه المملكة الإلهية الصغيرة فيقول إنها دائرة الحب والأفئدة التى تتنازل عن حقوقها الخاصة تجاه بعضها بعضاً فلا يجمع بينها غير الإيمان المشترك والأمل المشترك . .

ويبحث الأصدقاء الثلاثة عن نواة هذه المملكة الإلهية فيجدونها فى الفكرة التى قال بها قبلهم « لوثر » و « كانت » و « هردر » عن « الكنيسة غير المنظورة » . ويتلقفون الفكرة ويتعمقونها كل من جانبه . ويكتب هيجل إلى شيلنج فى سنة ١٧٩٥ فيقول : « لتأت مملكة الله ، ولنعمل بأيدينا على تحقيقها ولا ندعها تسترخى فارغة فى حجرنا . ليبق العقل والحرية دائماً قدرنا وكلمة السر بيننا ، ولتكن الكنيسة غير المنظورة هى النقطة التى نلتقى عندها » . .

ومملكة الله هذه لا صلة لها بمملكة الأرض ودولتها . .

لقد كان هذا هو وطن تلامذة المسيح ومعاصريه .. ولكنه أعلنها قوية أمام « بيلاتوس » عندما قال إن مملكتى ليست من هذا العالم[1] . وهى كذلك لا تتصل بالكنيسة المنظورة ولا شأن لها بطقوس العبادة ، لأنها من شأن العقل والقلب والحرية . ستأتى إذن مملكة الله ، وسيشدو بها هلدرلين بعد ذلك فى حماس وحنين لا نظير له فى روايته « هيبريون » وسيقول إن الدولة لن تقيمها ، بل سيمنحنا إياها ربيع الشعوب ، وتدثرنا فى سحابة ذهبية وتحملنا بعيداً فوق الموت والفناء . سنندهش ونصاب بالذهول ، وسنسأل نحن التعساء الذين طالما اشتقنا إلى الربيع : أحقاً أصبحت مملكة الله لنا ؟

(١) إنجيل يوحنا : ١٨ : ٣٦ .

ولكن متى يتم هذا ؟ عندما تبزغ الكنيسة الجديدة ، حبيبة الزمان ، أجمل بناته وأصغرها من بين الأشكال القديمة البالية ، عندما يستيقظ الإحساس بالإله فى قلب الإنسان فيعيد إليه الشعور بألوهيته وشبابه ونضارته . إن هلدرلين لا يستطيع أن يبشر بها ، بل يعترف أنه لا يحس بها ولا يمكنه أن يتنبأ بموعدها ولكنه على يقين من أنها ستأتى . فالموت هو رسول الحياة . وما دمنا نرقد اليوم كالمرضى ونحس دبيب الموت فى أجسامنا ونفوسنا ، فهذا بشير باليقظة القريبة ، بشير بالربيع الجديد . . :

لهذا أحتفل اليوم بالعيد ، وفى المساء فى ظل السكون
تزدهر الروح حولى ولو جلل شعرى المشيب ،
مع ذلك أنصحكم يا أصحابى أن تعدوا
المأدبة والغناء ، والباقات الوفيرة والأنغام
فى مثل هذا الزمن وكأننا شباب خالدون* .

* * *

إن هلدرلين يطالب أحبابه وبنى وطنه وعصره بالسكون والهدوء . فالسكون هو شرط التجديد الروحى المأمول . وكلاهما موصول بالقدرة على الإنصات وحسن الاستماع لصوت الوجود الحق ، أو صوت الخالدين السماويين الذين لا يفنون ولا يبخلون . ولابد للاتحاد مع الخالدين أن نكون قادرين على الانسجام معهم ، أى أن يتجانس الصوت البشرى مع الصوت الإلهى فى نغم واحد وسر واحد . . ولا بد أيضاً أن نحسن الإنصات لندخل فى الحوار الشجى ، ومن لا يحسن الإنصات فلن يحسن إلا النزاع والخلاف :

فعندما تطلعوا فى البداية إلى بعضهم بعضاً
بدأ الآخرون يقتربون ،
عندئذ جلس رجالنا المتشوقون تحت شجرة الزيتون .
ولكن عندما تلامست ثيابهم
ولم يستطع واحد منهم
أن يسمع قول الآخر ،

---

* عن الصياغة الأولى لقصيدته الكبرى « الاحتفال بالسلام » التى كتبها أربع مرات ..

نشب بينهم نزاع * ..

ولكنهم لا يكادون يتبادلون « الكلمة » حتى يتم الصلح بينهم :

وتطلعوا إلى بعضهم لحظات ،

ثم مدوا الأيدى إلى بعضهم بعضًا فى حب .

وسرعان ما تبادلوا السلاح

وكل ما فى البيت من زاد طيب ،

وتبادلوا الكلمة أيضًا . . .

وتبلغ المحبة ذروتها فى « الحديث » والحوار . إنه روح الحياة وحياة الروح :

ليس حسنًا

أن تستحوذ الخواطر الميتة

على المرء وتسلبه الروح .

لكن الحوار حسن وكذلك التعبير عن رأى القلب **

وأفضل منه الاستماع

إلى الكثير عن أيام الحب

والأعمال التى تتم . .

ستتحقق مملكة الله على الأرض ويتحقق معها الروح الشامل عندما تتحد النغمة الوحيدة فى النغم العام ، ويذوب وفاء الفرد فى تطور الكل ونمائه :

لتكن لغة الأحباب

هى لغة الأرض[1]

هنالك يزدهر الروح حولنا نحن البشر . وحين تأتى هذه الساعة تتسع شريعة المحبين فتصبح هى شريعة السلام :

أما الشرائع التى تصدق على المحبين

---

* عن قصيدة « التجوال » .

** عن قصيدة « ذكرى » .

(١) عن قصيدة « الحب » .

وتحقق التوازن الجميل
فستصدق على كل الكائنات
من الأرض إلى أعلى السماوات .

تلك هى مملكة الله التى سيأتى بها المستقبل . مملكة يحكمها الله ، وتدبرها شريعة الحرية والحب والوفاء التى يخضع لها الخالدون .. وليست فى نهاية الأمر إلا « البوليس »* أو المدينة المستقلة الحرة المزدهرة بالحضارة والكرامة والجمال . . .

عبر هلدرلين عن هذه المملكة المقبلة بشعره المنبعث من القلب كما عبر عنها صديقاه بالتأمل المجرد أو بالحدس والرؤية . .

ولكن مملكة الحق والخير والعدل لن تهبط من السماء ، بل لا بد أن تنبع من إرادة الفرد ، ولا بد أن يبنيها بجهده وعرقه وفكره . . لا بالثرثرة كما يتخيل الكثيرون . . .

* * *

* الـ Polis هى المدينة الحرة المستقلة كما عرفها اليونان .

الوحيد

« لكن إلى أين أذهب ؟ »

كان لدى هلدرلين إحساس فريد بالنماء والنضوج . ويكاد المرء يصدق أنه كان يسمع « النمو وهو يفور » ، وينصت للقوى التى تحرك الحياة من الجذور . إن الفنان قريب من مبدأ الخلق نفسه الذى « يجدد الأزمان » ، وهو يحيا فى جذور الوجود « حيث تدبر الطبيعة الأيام الآتية » ، وحيث « تنمو الأعوام » وتمتزج الساعات والأيام . وقربه من الحركة المطلقة والقوى التى تسيرها هو الذى يعطيه الحق فى التصرف فى قوانين الزمان والمكان ، وحرية المزج والتقريب بينها كما يقضى بذلك فكره ويوحى به شعره . .

والشاعر يتمتع بهذه الحرية نفسها فى تصوره للمكان . إنه يقول فى إحدى قصائده المتأخرة التى لم تتم :

الغناء حر كالعصافير ،
تطير وتتجول فرحة من بلد إلى بلد*

والشاعر القريب من مبدأ الوجود المطلق والنماء والتغير لن يكون الوطن عنده مكاناً ضيقاً تحده الحدود والسدود ، بل حقلا تزدهر فيه قوى الحياة وتترعرع ، وقلباً وبستاناً وأرضاً للحب والإلهام :

عسى الوطن لا يصبح مكاناً ضيقاً
بل هواء فحسب[1] . .

فالهواء هو عنصر الفنان المبدع الخلاق الذى لا يبدأ شيئاً ولا يتمه إلا فى ظل الحرية

انهل نسمات الصباح
حتى تتفتح ،

* عن مشروع قصيدته « إلى المشهور أو المعروف للجميع ص ٣٨٤ من الأعمال الكاملة .

(١) عن إحدى الشذرات المتأخرة .

وسم ما يتمثل لعينيك(١) .

فالانفتاح مغامرة من يريد أن يجرب كل شيء ، ويعرف كل شيء ، ويذوق كل شيء . . وعليه بعد ذلك أن يتعلم الشكر والعرفان لكل النعم المنبثة حوله أو فيه :

هذا ما عرفته . لأنكم ، فيما أعلم ،
أيها السماويون ، يا من تحفظون كل شيء ،
لم تقودونى أبداً فى رفق على الطريق السوى
كما يفعل المعلمون الفانون* (من أبناء البشر) .
يقول السماويون ، فليمتحن الإنسان كل شيء ،
حتى يمكنه ، بعد أن يشتد (عوده) بالغذاء ،
أن يتعلم الشكر على كل شيء ؛
ويفهم حرية الانطلاق إلى حيث يشاء(٢) .

والانطلاق هنا بمعنى الانفتاح على كل جديد ممكن ، والتهيؤ للسفر والتنقل والرحيل . وليست حرية الرحيل التى يتحدث عنها الشاعر شيئاً هيناً يمكنه أن يقوم به ببساطة على أى نحو شاء . إنما هو شيء يستلزم الفهم الدقيق ، ويتطلب من الإنسان عناء التعلم الجاد . .

* * *

قضى هلدرلين السنوات القصيرة التى تمتع فيها بقواه العقلية فى سفر ورحيل لا ينقطع . ففى الرابعة عشرة من عمره غادر بيت أمه إلى بلدة دنكندورف ، وفى السادسة عشرة انتقل إلى « ماولبرون » ، وفى الثامنة عشرة إلى مدينة توبنجن ، حيث استجاب لتوسلات أمه بدراسة اللاهوت ، وعاش فى مدرسة الدير خمس سنوات . وفرغ من دراسته فترك المدينة الصغيرة الحالمة على ضفة « النيكار » وأقام ما يقرب من العام فى بلدة فالترزهاوزن ثم غادرها ليقيم ستة شهور فى مدينة « يينا » التى كانت كعبة الفلسفة المثالية حينذاك . وفى ديسمبر سنة ١٧٩٥ دخل بيت عائلة جونتار كمعلم خصوصى ، ثم انتقل فى خريف سنة ١٧٩٨ إلى مدينة باد هومبورج . ولم تطل إقامته فى هذه المدينة أكثر من سنتين ،

(١) عن قصيدة « جرمانيا » (ص ٣٣٣ – ٣٣٦) .

* صفة للمعلمين ، وعبارة « من أبناء البشر » وضعها المؤلف للتوضيح . انظر المقدمة .

(٢) عن قصيدة « دورة الحياة » ، المقطوعتان الأخيرتان . (ص ٢٤٤) من الأعمال الكاملة. انظر كذلك القصيدة نفسها مع النصوص المختارة فى آخر الكتاب .

عاش بعدها ستة شهور فى مدينة شتو تجارت . وفى سنة ١٨٠١ قام بزيارة قصيرة لبلدة « هاوبتفيل » لم تزد عن أربعة شهور ثم قضى بقية السنة فى بلدة نورتنجن التى سبق ذكرها عند الكلام عن نشأته وصباه . وفى شتاء سنة ١٨٠٢ سار على قدميه متجهاً إلى مدينة « بوردو » الفرنسية ، ليعود منها فى الصيف وقد اضطربت حالته العقلية والنفسية اضطراباً شديداً . ولجأ مرة أخرى فى صيف سنة ١٨٠٤ إلى مدينة « هومبورج » ولكن حالته ازدادت سوءاً ، فنقل فى شهر سبتمبر سنة ١٨٠٦ إلى مستشفى مدينة توبنجن . ومرت سنة أخرى قبل أن يسلم للنجار « تسيمر » الذى تولى رعايته . وبقى الشاعر الذى تخلى عنه ملاكه الحارس أو شيطانه الملهم ستاً وثلاثين سنة — أى ما يزيد على نصف عمره — فى نفس المكان فلم يغادره إلا إلى التراب . .

* * *

لعل السطور السابقة قد أعطت القارئ صورة عن هذه الحياة القلقة التى لم تستطع أن تجد الأمن والهدوء فى أى مكان . شاء الحظ أن يظل صاحبها دائماً « على الطريق » ، أن يقضى أيامه القليلة التى سبقت ليل جنونه الطويل بين السفر والتجوال بدون أن يهدأ فى مكان أو يطمئن لإنسان . لذلك كان عليه أن يبدأ باستمرار ، أن يواجه المطلق وحده . ولم يبق أمامه لكى يستمر فى الحياة إلا أن يتجه للحياة نفسها ليستمد منها القدرة على التجدد والبقاء . ولذلك ظل « نبع الحياة » هو وطنه الوحيد ، وظل الالتصاق « بجذر الوجود » والإنصات إلى دبيب القوى الكامنة النامية فيه هو ملاذه وملجأه ، والفزع إلى الخالدين والسماويين والمقدسين عزاؤه ورسالته .

إنه يعبر عن تجارب هذه الحياة التى قضاها فى الرحيل والتجوال — بالمعنى الظاهر والباطن معاً — فى واحدة من أجمل قصائده ، وهى قصيدة « خيالية المساء » أو « فانتازيا المساء »[1] ، التى تتشابك فيها تجربته الذاتية بالقلق والعذاب مع تجربة موضوعية أخرى بالقدر الأسطورى القديم :

الفلاح[2] يجلس هادئاً فى الظل أمام كوخه ،
وينظر راضياً قنوعاً إلى الموقد الذى يرسل الدخان .

---

(١) ص ٢٢٢ من الأعمال الكاملة .
(٢) حرفيا : الحارث .

ناقوس المساء يرحب بالمسافر الوحيد[١]
وهو يدلف إلى القرية المسالمة .
والآن يعود الملاحون أيضاً للميناء ،
وتخفت فى المدن البعيدة جلبة الأسواق ؛
فى البستان الهادئ تتألق وجبة الطعام
الذى سيشترك فى تناوله الأصدقاء .
لكن إلى أين أذهب ؟ إن البشر الفانين
يعيشون على الأجر والعمل ، كل شىء يتقلب فرحاً
بين الراحة والعناء ، لكن لم لا تنام أبداً
هذه الشوكة المغروزة فى صدرى ؟
فى السماء يزدهر الربيع عند المساء ؛
تتفتح الزهور بلا عدد ويبدو العالم الذهبى هادئاً ،
آه ! خذينى إلى هناك أيتها السحب الأرجوانية !
وليذب هناك حبى وعذابى فى النور والهواء !
لكن السحر يفر بعيداً
كأنما أفزعته ضراعتى الحمقاء ؛
ينتشر الظلام وأظل وحيداً ،
كما كنت دائماً تحت السماء .
تعال أنت الآن أيها النعاس اللطيف !
القلب يسرف فى رغباته ، لكن شعلتك ،
أيها الشباب القلق الحالم ، ستنتهى إلى رماد !
أما الشيخوخة فستكون هادئة وصافية .

* * *

القصيدة كما ترى تبدأ بصور قليلة رحبة ترسم عالم المتجول الوحيد، وهو عالم أليف إلى نفسه وغريب عنها فى آن واحد . وتتردد فى المقطوعة الأولى كلمات أربع ، أشبه

---

(١) الترحيب هنا مرادف للكرم وسخاء الضيافة .

بالأثقال التى توضع فى كفة الميزان فلا يميل ، كلمات تعبر عن الهدوء والقناعة وكرم الضيافة والسلام . ولكن القناعة والكرم هما المحوران اللذان تدور حولهما القصيدة بأسرها ، فالقناعة تحمل أقصى ما يطمح إليه فكره ويقصر عنه أمله وهو الكمال والاكتفاء بالنفس ، والكرم يصور العاطفة التى تعذبه وتؤرق وجدانه ، إذ لا يجد المتجول الوحيد مكاناً يطمئن إليه ويلقى فيه كرم الضيافة . أما الظل المنعش ، وسحابة الدخان الرقيق ، وأنغام النواقيس التى تدق فى المساء فهى ترفرف على القصيدة كلها كحمامات السلام .

وتهتز القصيدة بالحركة عندما يدخل إليها الملاحون ، ومهنتهم قريبة من مهنة الشاعر والفنان المتجول. إنهم يعودون أيضاً إلى الميناء، إلىالمدينة البعيدة . ومع أن العودة مقرونة بالفرح وتألقالضياء، إلاأن القلب لايخطئ نغمة الألم المكتوم فى كلمة الأصدقاء. لا لأن الشاعر سيسأل بعدها مباشرة سؤاله الأول والأخير الذى يعذب حياته : « لكن إلى أين أذهب ؟ » ، بل لأن الصداقة بالقياس إليه — وهو الباحث الذى لا يهدأ عن المطلق — لم تكن فى يوم من الأيام ولن تكون سوى فترة عابرة أو جزيرة منعزلة فى خضم وحدته . .

والشاعر لا يصرخ وهو يسأل سؤاله : « لكن إلى أين أذهب ؟ » ، بل يهمس به فى حياء وسكون . ويوشك السؤال أن يتوه فى عالم يتقلب بين تعب العاملين وفرحتهم باللقاء ، ورضاهم عن نصيبهم من الأجر والجزاء .

وسؤال الشاعر — على خلاف الرومانتيكيين من بعده — تمتزج فيه الشكوى بالإباء . فهو لا يتلذذ بجراحه ولا يستسلم لعذابه ، بل سرعان ما يرفع بصره عنه ليتطلع إلى البريق الذى يشع من حوله ، فى ألق الربيع وازدهار الورود وألوان السحب الأرجوانية .

وتتضح الحدود الفاصلة بين الفكر والشعر : فالفكر يهيئ السؤال ولكنه يعجز عن الجواب المقنع ، والشعر يخلق واقعه ولكنه يتجاوز السؤال إلى بُعد آخر مختلف :

فى السماء يزدهر الربيع عند المساء

أى يحاول أن يقدم الجواب الشعرى على السؤال الذى يعذب المطارد الوحيد . ومع ذلك فإن الواقع الآخر الذى يخلقه ليس إلا المظهر الساحر الذى « يبدو » للعين أو النور الذى لا يدرى الشاعر كنهه ولا تستطيع عينه أن تتغلغل فيه :

العالم الذهبى يبدو هادئاً

وسرعان ما يتخفى السر مع أول رغبة حمقاء . . وتتحول اللغة إلى الاتزان والعقل ، ويعترف الشاعر بكل آلامه :

ينتشر الظلام وأظل وحيداً
كما كنت دائماً تحت السماء

ونقرأ المقطوعة الأخيرة فنحس بأن الواقع نسيج من الرضا والزهد والتسليم ، وأن الشعلة التى تحولت إلى رماد لم تخب فيها جمرات الصدود والانكسار . .

* * *

من الغريب أن يقضى الإنسان حياته فى التنقل والتجوال . ولكن الأغرب منه أن يتم ذلك دائماً فى عز الشتاء . .

لقد سافر الشاعر فى ديسمبر سنة ١٧٩٦ إلى فرانكفورت ، وفى يناير سنة ١٨٠١ إلى هاوبتفيل ، وفى يناير سنة ١٨٠٢ — « فى رحلة باردة طويلة » — إلى مدينة بوردو الفرنسية ، أما رحلته الأولى — على ظهر عربة بريد كئيبة — فكانت فى شهر ديسمبر سنة ١٧٩٣ إلى فالترزهاوزن القريبة من مدينة مييننجن ، عن طريق نورمبرج وارلانجن وبامبرج وكوبرج . كان الشاعر « شيلر » قد توسط له عند صديقته شارلوته فون كالب التى كانت على صلة طيبة بالحياة الأدبية ليعمل مربياً خاصاً لابنها « فرنس » البالغ من العمر عشر سنوات . وكان هذا العمل بداية سلسلة من المحاولات الفاشلة لكسب قوته من إعطاء الدروس الخاصة ، كما كان يفعل معظم الكتاب والشعراء البؤساء فى ذلك الحين . .

وتتضارب الأقوال حول الفترة التى قضاها هلدرلين فى هذا العمل وانتهت بإعفائه منه بصورة مفاجئة ، كما تختلف حول علاقته بهذه السيدة الغريبة الأطوار . كان من رأى الشاعر نفسه أن هذه السيدة — التى تكبره بتسع سنوات — امرأة نادرة لا نظير لها فى اتساع أفقها وعمق شخصيتها ورقتها . وكانت السيدة نفسها امرأة متقلبة ملتهبة العاطفة تتنقل فى سرعة خاطفة من حنان الأمومة إلى الغلظة والجفاء . ولقد استطاعت بفطرتها أن تحس بعذاب هلدرلين وتلمس آثار المحنة على كيانه الهش الرقيق . ولا نستطيع أن نجزم بشىء عن طبيعة العلاقة التى كانت بينها وبينه وخاض فيها كثير من الباحثين ، ولكن لا بد أنها كانت شيئاً أقرب إلى الصداقة العفيفة المترفعة ، ولا بد أنها كانت تنطوى

على شيء كثير من الإشفاق على الشاعر من حرفة التعليم التى لم يخلق لها ، بل ورطه فيها أكل العيش ، وأكل العيش مرٌّ كما نقول ! ويكفى أن نقرأ الرسالة التى كتبتها إلى شيلر راجية أن يبحث للشاعر عن عمل آخر خفيف : « إن طيبتك تستطيع أن تفعل الكثير من أجله . حاول أن تبحث له عن أعمال خفيفة يمكن أن تيسر له معاشه بشكل سريع وتخلصه من الهموم التى قد تفيد فلسفته العملية ، ولكنها لن تزيد الهدوء والاطمئنان فى حياته . ليكن المجد والقناعة والثبات من نصيب هذا الإنسان القلق ! إنها عجلة مسرعة فى الدوران ! » .

ويبدو أن السيدة الذكية قد نفذت ببصرها الثاقب وراء حجب الغيب ، ورأت العجلة المسرعة وهى تنقلب بصاحبها فى ليل الجنون ! .

مهما يكن من شيء فقد أعفى هلدرلين فى شهر يناير سنة ١٧٩٥ من عمله ، بعد الإخفاق فى مهمته التربوية العسيرة . وكان قد انتقل مع تلميذه وربيبه إلى مدينة « يينا » فى نوفمبر من السنة السابقة . وظل يعيش هناك بعد إعفائه من عمله إلى أن قرر فجأة أن يغادر المدينة ، فتركها فى أواخر شهر مايو وقفل راجعـًا إلى بلدته « نورتنجن » .

بقى السر وراء هذا السفر المفاجئ محوطـًا بالغموض . وظلت الإشاعات تلاحق الشاعر الذى راح يشكو بعد ذلك فى إحدى رسائله التى كتبها من مدينة فرانكفورت من علاقات نسائية نسبت إليه ظلمـًا : « سيلاحقنى الناس بأحكامهم القاسية حتى أخرج أخيراً من ألمانيا » . . وسواء أكان السبب فى هذه الإشاعات والأحكام الظالمة هو جماله الرائع الذى عرف عنه فى شبابه أو حساسيته المريضة المرهفة أو شعوره بالغربة فى كل مكان يأوى إليه ، فقد كانت كلمة واحدة تكفى لإثارة غضبه وحمله على الفرار بنفسه من بلد إلى بلد . .

* * *

كان أقطاب الشعر والفكر الألمان يقيمون فى ذلك الحين فى مدينتى « فيمار » و « يينا » . وكان كل هم شاعرنا القلق المتردد أن يتصل بهؤلاء الأعلام « ذوى القلوب الجريئة » علهم يبثون الشجاعة فى قلبه ويعصمونه من الهروب إلى الزهد والانعزال . كان القرب منهم — على حد قوله — يسحقه ويسمو به فى آن واحد . وكان يتمنى أن ينتزع نفسه من الضباب والنعاس الذى يخيم على حياته ، ويوقظ الطاقات التى أوشكت أن تموت فى صدره .

وكان شيلر فى طليعة هذه الأرواح والقلوب الجريئة التى أثرت عليه تأثير السحر ، وشدته إلى عالمها المثالى النبيل كأنها القدر . وكان موقفه منه هو موقف الإجلال والخوف الذى يجذبه إليه ويبعده عنه فى وقت واحد ، الإجلال لشخصيته القوية الواثقة ، والخوف من أن تتحكم فيه وتسيطر عليه . ولذلك فهو يعترف بأنه لم يستطع أن يقترب منه بروح الصفاء والمرح ، ولم يستطع كذلك أن يبتعد عن فلكه أو يخلص من تأثيره ، ولو فعل لكانت سقطة لا يغتفرها لنفسه . .

أقام هلدرلين ستة شهور فى مدينة « يينا » وقدر له أن يحظى بعطف شيلر ورعايته . ولكنه ظل على الدوام يحس أنه لا يستحق هذه الرعاية الأبوية ، حتى أنه كتب إلى أمه فقال إنه اعترف للرجل العظيم بدهشته من اهتمامه به ! وتتكرر نفس الكلمات المنكسرة فى بعض رسائله التى كان يكتبها لشيلر فيرجوه فى إحداها أن يتعطف عليه بنظرة اهتمام أو يعترف فى إحداها بأنه حاول بمختلف الوسائل أن يفوز منه بكلمات ودية قليلة . .

ووصل به الأمر فى أحد الأيام — وكان فى اليوم التالى على موعد مع شيلر — أن يقضى الليل مؤرقاً والنهار معذباً لا يستطيع أن يجد نفسه أو يهتدى إلى فكرة . .

ومهما يكن الأمر فى شأن هذه العلاقة بين الشاعرين فلم تكن علاقة بين شريكين يقدر كل منهما عبقرية صاحبه — كما كانت مثلا بين شيلر وجوته — بل شابها إشفاق هلدرلين من تفوق « الرجل العظيم » ، وكان ذلك فى أغلب الظن من الأسباب التى دفعته إلى الفرار من المدينة والعودة إلى حياة التجوال . .

والمؤكد أن شيلر قد عطف عليه من الناحية الإنسانية وحاول أن يعينه على مواجهة الحياة . ولكنه لم يستطع أن يقدر عبقريته حق قدرها ولم يتح له أن يسبر أغوارها ويدرك عمقها . . .

* * *

أما عن جوته — عملاق الأدب وكعبة حجاج الفكر فى فيمار — فقد كان لقاؤه الأول معه صدفة لم تجلب معها إلا المرارة والانكسار . . ذهب هلدرلين لزيارة شيلر ، ودخل من الباب فحياه الشاعر الإنسان ورحب به . وكان هناك زائر آخر سبقه إليه ، ولكنه لم يفطن إلى وجوده ، إذ لم تصدر عنه إشارة تدل عليه ، ولم يفه بكلمة تكشف عن شخصيته . وقدمه شيلر إليه ، كما نطق باسمه لهلدرلين ، ولكن هذا لم يفهم اسمه ،

ولذلك حياه فى برود ، دون أن ينظر إليه ، إذ كان لفرط ارتباكه مشغولا عنه بشيلر وحـــده .

وظل الغريب صامتـًا . وجاء شيلر بنسخة من مجلة « تاليا » التى كان يصدرها آنذاك فقدمها لهلدرلين ، وكان قد نشر فيها قطعة من روايته الوحيدة « هيبريون » وقصيدته إلى القدر . ومد الغريب يده فتناول المجلة من على المائدة ، وتصفحها لحظات دون أن يقول كلمة واحدة . وشعر هلدرلين أن وجهه يحمر ويزداد احمراراً . ونطق الغريب كلمات قليلة ، كانت لعمقها كفيلة بأن تلفت شاعرنا إلى شخصية صاحبها .

وأقبل زائر آخر هو الرسام « ماير » الذى كان يعيش فى مدينة فيمار . وأخذ الغريب



الشاعر فريدريش شيلر

يتحدث معه فى شئون مختلفة ، وبقى هلدرلين لا يفطن إلى شىء . . ثم انصرف بعد قليل ، وسمع فى نفس اليوم من نادى الأساتذة أن « جوته » نفسه هو الذى كان فى زيارة شيلر !

هكذا يصف لنا هلدرلين هذا اللقاء الأول الذى تم بمحض الصدفة ، وإن لم يكن للصدفة دخل فى أن يظل هذان الكوكبان بعيدين يسبح كل منهما فى فلكه. صحيح أنه يحدثنا فى بعض رسائله إلى صديقيه نويفر وهيجل، عن لقاء آخر مع جوته كما يذكر هذا اللقاء بالشكر والعرفان ويقول بالحرف الواحد : « إن أجمل متعة نحظى بها فى حياتنا هى أن نجد كل هذه الإنسانية مقترنة بكل هذه العظمة . . . إنه هادئ ، فى نظرته سمو وجلال ، وفيها كذلك حب ، وهو فى حديثه بسيط غاية البساطة » . . . غير أن هذه الكلمات المخلصة لا تغير من الحقيقة شيئًا . . والحقيقة هى أن الشاعرين الكبيرين لم يعرفا هلدرلين ولم يقدر لهما إدراك عبقريته . ربما كان المسئول عن هذا هو شخصيته القلقة المضطربة التى اعترف جوته بحيرته إزاءها ، وربما كان السبب هو أنهما ظلا حبيسين فى عالمهما الشامخ الواضح المحدد ، فلم تتح لهما النظرة الحرة إليه . وكانت النتيجة أن اعتبره شيلر من أصحاب النزعة الذاتية المتطرفة ، ووضعه جوته بين الشعراء الغنائيين الحالمين (وأوضح دليل على هذا أنه نصحه بالاتجاه إلى كتابة القصائد القصيرة ، وهى نصيحة لا تتفق بحال مع طبيعة هلدرلين ونفسه الطويل) ! ولعلهما فى النهاية قد شعرا نحوه بشىء غير قليل من الخوف والإشفاق جعلهما عاجزين عن وضعه فى إطار معروف أو قالب محدد .

ومن سوء الحظ أيضًا أنه لم يقدر له أن يلتقى لقاء حقيقيًا بالكاتب المؤرخ الفيلسوف هردر (١٧٤٤ – ١٨٠٣) وكان مثل هذا اللقاء خليقًا أن يكشف عن القرابة الروحية التى تجمع بينهما ، والجذور الفكرية المشتركة التى تجعلهما يقفان من الوجود الحى النامى موقف الخشوع والورع . لقد ذهب هلدرلين إليه ، واحتفى به « الرجل النبيل » حفاوة قلبية صادقة ، تركت فى نفسه أثراً لا ينسى . ومع ذلك فإن هذا اللقاء العابر لم يؤت الثمرة المرجوة ، ولم يتح لذلك الكاتب المتدفق الواسع الأفق أن يعرف شاعرنا عن قرب أو يوجهه ويرعاه ، وهو الذى يدين له عشرات الأدباء – ومنهم جوته نفسه – بفضل الرعاية والتوجيه . .

• • •

ويتكرر هذا الإخفاق أيضاً — ولكن فى صورة أكثر اختلافاً وأشد إثارة — فى صلة هلدرلين بفيشته (١٧٦٢ — ١٨١٤) ، وهو « روح مدينة يينا » فى ذلك الحين . ولكن لعل السبب فى هـــذا الإخفاق أن يكون كامناً فى موقفه من الفلسفة لا من الفيلسوف . .

كان صديقه « إمانويل نيتهامر » قد قدمه إلى كوكبة الفلاسفة الذين يشغلون المدينة بأخبارهم وأفكارهم . ويحدثنا هذا الصديق فى مذكراته عن اجتماع ثلاثة من أقطاب الفكر والشعر فى إحدى أمسيات الصيف فى بيته . وكان الثلاثة هم فيشته وهلدرلين ونوفاليس الشاعر الرومانتيكى الرقيق الحزين (وكان فى ذلك الحين فى الثالثة والعشرين من عمره) . . ولسنا ندرى ماذا تم فى هذا اللقاء . ولكن إشارة واحدة من نيتهامر عن النصيحة التى وجهها إليه صديقه هلدرلين بأن يحمى نفسه من الأفكار المجردة يمكن أن تلقى شيئاً من الضوء على صلة شاعرنا بالفلسفة والفلاسفة . .

اعترف هلدرلين بعد ذلك (وكان هذا فى شهر يناير سنة ١٧٩٩) فى سياق كلامه عن « صنعة الشعر العذبة » بأن الفلسفة قد أضنته إلى حد اليأس ، ووصفها بأنها نوع من السخرة وأن الحياة معها أشبه بحياة الجندية ! لقد أقبل عليها فى صبر وعناد ، ولكنها حرمته من الطمأنينة والسلام . وظل حائراً لا يدرى السر فى هذا حتى اكتشف أنها ابتعدت به عن ميله الحقيقى ، وأنه كلما انصرف إليها شهق قلبه حنيناً إلى « عمله الحبيب » ، كما يحن الرعاة السويسريون أثناء فترة تجنيدهم إلى المراعى والسهول والقطعان . . ثم يسأل نفسه قائلا : لماذا أكون إذن كطفل مسالم طيب عندما أفرغ للإلهام العذب بدون أن يزعجنى شىء ، وأنصرف « إلى أشد الأعمال براءة ؟ » . . لا عجب إذن أن يغضب المشتغلين بالفلسفة فيصفها بأنها طاغية ، وأن يعلن ضيقه بها ويتمرد على قيودها وجبروتها ! .

ولعل المسئول عن هذه اللعنات التى صبها هلدرلين على رأس الفلسفة هو فيشته نفسه . لقد كان ظاهرة وحده . وكان بفكره وشخصه طاغية تجسد فى هيئة إنسان . ولا نزاع فى أنه يمثل قمة التفكير الاستنباطى الذى مهد له ديكارت ، والذى راح يتأمل الواقع منطلقاً من التجريد . [وجدير بالملاحظة أن هيجل لا ينتمى إلى هذا الخط ، على الرغم من كل ما فى فلسفته من تجريد ، لأنه يضع الفكرة الواقعية المتحققة دائماً

نصب عينيه] . . وينظر هذا الفكر الاستنباطى إلى الواقع المتشابك - الذى تمتزج فيه الفكرة بالجسد بالإرادة بالإحساس بالقدر بغيرها من العناصر - نظرة أخلاقية خالصة . . [وكذلك كان الأمر أيضاً عند « كانت » . .] . . أى أن هذه النظرة الكونية تعتبر أن الواقع بأكمله ليس إلا المادة التى تعين على تحقيق رسالة أخلاقية معينة . هذا وحده هو الذى يجعله « واقعاً » ، ولذلك فليس له وجود إلا حيث يصلح أن يكون جواباً على فعل [الذى يتم وفق مبادئ وأصول أخلاقية] . أى أن هناك جانباً يجرد من الواقع ، وهو الجانب الذى يساعد على تأكيد « ذاتى عن طريق الفعل الذى أقوم به » . والغاية فى نهاية الأمر هى تأكيد هذه الذات أو هذه الأنا . .

ومن هنا بدت هذه الفلسفة أرستقراطية متعالية ، جسورة ووحيدة . ومن هنا أيضاً بلغ إعجاب هلدرلين بفشته وتحمسه لفلسفته أن قال فى نوفمبر سنة ١٧٩٤ إنه لا يعرف له نظيراً فى عمقه وطاقته العقلية . . وهى عبارة يدهشنا أن يصرح بها أثناء وجوده فى مدينة « يينا » بالقرب من شيلر الذى كان يؤمن بتفوقه الرائع ويخشاه فى وقت واحد !

بيد أن هذه العبارة كانت بنت اللحظة . فلم يلبث بعد قليل أن أدرك آفة التسلط الكامنة فى هذه الفلسفة المجردة ، وإن تردد مع ذلك فى توجيه النقد الصريح إليها . فها هو ذا يعترف لهيجل* بأنه اشتبه فى مبدأ الأمر فى جموده وتزمته (أو ما يعرف فى لغة الفلسفة بالنزعة الدُجماطيقية) وبدا له أن الفيلسوف يقف فى مفترق الطرق . ولعل شبهة التزمت أن تكون من أقسى وأصدق ما يوجه إلى هذه الفلسفة المثالية المتطرفة التى تقوم فى أساسها على أن « الأنا » هى التى تضع الواقع أو الوجود الخارجى . ومهما حاول فشته أن يدفع التهمة فإن المحاولة تستند إلى نفس الغرض الذى بنى عليه فلسفته ! . .

مهما يكن من شىء فإن الحوار الفكرى الجاد مع فشته لم يأت إلا بعد فترة طويلة فى أواخر سنة ١٧٩٩ عندما كتب هلدرلين مقاله الذى لم يتمه عن الدين . فقد حاول أن يرد على فلسفة فشته فى المطلق ، وفكرته فى أن الذات هى التى تضع الوجود ، أى أن الوجود الخارجى لا قيمة له إلا من جهة تأكيده لوجود الذات . أما فكرته عن الذات الأخرى أو « الأنت » التى اعتبرها « مجرد وسيط لتأدية وتوضيح واجباتى الأخلاقية » فقد رد

* فى رسالة كتبها إليه فى شهر يناير سنة ١٧٩٥ . .

عليها هلدرلين بفكرة أخرى مطلقة نابعة من تفكيره الإلهى العميق عن علاقة الأنا والأنت . ولا بد من باب الإنصاف أن يقال إن هذه الفكرة كانت جديدة كل الجدة فى تاريخ الفلسفة ، وأنها انتظرت أكثر من قرن ونصف قرن حتى تناولها الوجوديون فى الزمن الحديث — وبخاصة هيدجر وسارتر — فتعمقوها إلى أبعد حد فى فكرتهما عن « الوجود من أجل الآخرين » . [وإن اختلفت هذه الفكرة بالطبع عن مثيلتها عند هلدرلين] .

* * *

لننظر فى كلمات هلدرلين التى عبر بها عن فكرته الفلسفية تعبيراً يلائم حقيقة حياته ووجدانه . . فإذا أراد الإنسان — فى رأيه — أن يتحدث عن الألوهية وأن يصدر حديثه من القلب لا من الذاكرة « ولا بحكم الصنعة » فلن يستطيع بالرجوع إلى نفسه وحدها أو إلى الموضوعات الخارجية المحيطة به أن يتبين أن فى هذا العالم شيئًا أكبر من جهاز آلى سيار ، وأن فيه روحًا أو إلهًا ، وإنما يمكنه أن يتبين هذا لو اتصل بما يحيط به اتصالا حيًّا مترفعًا عن الحاجات الضرورية . من هنا يكون لكل إنسان إلهه الخاص به ، بقدر ما تكون له دائرته الخاصة التى يعمل فيها ، وبقدر ما يشترك عدد من الناس فى دائرة واحدة يعملون فيها ويتعذبون بصورة إنسانية ، أى بصورة تسمو على كل حاجة ضرورية ، بقدر ما يشاركون فى الألوهية . ثم يستطرد هلدرلين فى مقاله الذى أشرت إليه عن الدين فيقول* : إنه لا ينبغى علينا أن ننسى أن الإنسان يستطيع أن يضع نفسه فى موضع الآخر كما يستطيع أن يجعل الدائرة التى يحيا فيها « الغير » دائرة خاصة به ، أى أنه لن يعجزه بالطبيعة أن يقر بطريقة الإحساس بالألوهية وتصورها على نحو ما تتأتى من العلاقات الخاصة التى تربطه بالعالم الذى يعيش فيه ، بشرط ألا يكون هذا التصور وذلك الإحساس صادرين عن حياة متطرفة فى العاطفة أو الغرور أو العبودية . .

هكذا تبدأ تجربة الروح أو الإله على حدود الفرد . فحيث تنفتح هذه الحدود على القدر والكل والأنت تتم تجربة المطلق . .

والواقع أن هذه الفكرة لا تختلف عن فكرة فشته إلا فى الظلال الطفيفة التى تكسوها . فكلاهما يرى أن الإنسان لا يجرب واقعه إلا من خلال لقائه مع شريكه ، أو مع الآخر

---

* طبعة بيسنر ، ص ١٠٠٠ ، ١٠٠١ . .

كما تقول الفلسفة المعاصرة . غير أن نقطة البداية التى ينطلقان منها تختلف عند الفيلسوف عنها عند الشاعر . .

فالفيلسوف يعنيه أن يصنع الإنسان نفسه عن طريق تحقيق « مجال طاقته » أو « دائرته » الخاصة به ، أى أنه لا يشعر بتحقيق طاقاته وإمكانياته إلا من خلال الاصطدام بمجال آخر أو دائرة أخرى . إنه « يضع نفسه » — بالتعبير الشائع فى المثالية الألمانية — عندما يقيم « الوضع المضاد » أو الضد المقابل له . أما الشاعر فينصب اهتمامه على اللقاء الذى يتم بين الأنا والأنت التى يضعها القدر فى طريقه ، بحيث يبرز « الثالث » أو المطلق الذى « يقوم بينى وبينك » . وليس لنا أن نتوقع من الشاعر أن يتولى هذه الفكرة بالتحليل والتفصيل — فما خلق الشعراء لشىء من هذا — فذلك لا يتفق مع طبيعته وموهبته . ولذلك نجده يقف فجأة عند هذا الحد ، فى حين يمضى فشته مع فكرته على ترتيب دقيق حتى يصل بها إلى الغاية المرسومة لها فى فلسفته وهى « الفعل » .

على أن الشاعر لن يعدم فرصة أخرى تتيح له أن يعبر عن فكرته تعبيراً ملموساً . فهو يكتب إلى شقيقه فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ رسالة يقول فيها : « هكذا يجب علينا أن نقدم التضحية للألوهية التى تجمع بينى وبينك ، فنحتفل باللطف والنقاء اللذين يتمثلان فى حديثنا عنها إلى بعضنا بعضاً ، كما نحتفل بالروح الأبدى الذى يربط بيننا » . .

وتعود هذه الصورة فى رسالة متأخرة إلى صديقه بولندورف ، بعد أن تغيرت قليلا واكتسبت شيئاً من العمق : « أنا فى حاجة إلى أنغامك النقية . إن الروح * التى تؤلف بين الأصدقاء ، ونمو الفكرة فى مجرى الحديث وعلى صفحات الرسائل المتبادلة بينهم أمور لا يستغنى عنها الفنانون . ولو لم يكن الأمر كذلك ما بقيت لنا فكرة ، ولظلت ملكاً للصورة المقدسة التى نكونها » . .

والفكرة الأصلية هنا واضحة متميزة ، على الرغم من غموض العبارة وبخلها . فالشاعر يكرر رأيه الذى عرفناه ويزيده قرباً منا . .

إنه يؤكد لنا أن تجربة المطلق (أو الروح التى تجمع بين الأصدقاء) ليست تجربة مجردة أو معلقة فى الفراغ أو فوق السحاب . بل هى تجربة « بينى وبينك » . يمكن

* يستخدم هلدرلين الكلمة « اليونانية » بصيغة Psyche « أى النفس أو الروح . .

استخلاصها من الأحاديث العادية التى تدور بين الناس كل يوم . أما الصورة المقدسة التى نكونها بأنفسنا ، كما تقول الكلمات الأخيرة فى العبارة ، فهى تشير إلى بعد أسطورى عميق وجديد . فلعلها تريد أننا نحن البشر نشارك فى عمل المبدع الأعظم ، ونسهم فى جهود القوى الخلاقة وفى نسج « صورة الزمان التى يرسمها الروح الأكبر » على نحو ما تقول قصيدة « الاحتفال بالربيع » التى تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة . وواجبنا فى هذه الحياة هو أن نقف من الخالق المدبر موقف الطاعة والخشوع ، ونتأمل حكمته التى تتجلى فى الطبيعة والروح على السواء . .

* * *

كانت هذه هى منزلة هلدرلين من المثالية الألمانية ، عرضنا لها بإيجاز شديد وتبسيط نرجو ألاّ يكون مخلا . ومع أننا لم نحاول أن نجعل منه فيلسوفًا على الرغم منه ، فلا يمكن الإغضاء من مكانته كشاعر مفكر ، لأن الحدود الفاصلة بين الفكر والشعر دقيقة كالزجاج الشفاف ، وهما فى صميمهما متقاربان ، يسكنان على قمة جبلين متجاورين وإن كانا منفصلين . .

إن فكر هلدرلين فكر ملتزم بالمعنى الواسع الشامل لهذه الكلمة لا بمعناها الضيق الذى شاع فى هذه الأيام . فبينما يحاول التفكير الاستنباطى أن ينطلق إلى نوع من التفكير الحر المجرد المطلق [وهو الهدف الذى لا يكاد يبلغه لأن الوعى أو الذات لا وجود لها بغير الموضوع] نجد أن تفكير هلدرلين يبتعد جهده عن مجال التجريد ، ويلتزم على الدوام بالواقع المجسد المتحقق ، كما يرتبط بتيار التحول والتغير والصيرورة فى الحياة على اختلاف صورها وأشكالها وألوانها . إنه يصغى على الدوام لدقات قلب الحياة ، ويرصد عمليات التغير والنمو التى تتم فى تيارها الدافق. ليس من طبيعته أن يكون فكراً مغلقًا أو نهائيًا أو تامًا فى ذاته ، لأنه فى حالة نشوء مستمرة . ولا يهم صاحبه أن يقيم بناء من الأفكار ، بقدر ما يهمه أن يتحرك حركة متصلة ويتغلغل فى ما يحيط به من أسرار القدر والوجود ، ويتتبع الخيوط التى يتألف منها نسيج الحياة . إنه فكر يعرف حدوده — وهذه هى أول خطوة على درب المتواضعين الخاشعين ! — وهو لا يريد ولا يخطر على باله أن يبنى مذهبًا أو يشيد بناء يرتفع طبقة فوق طبقة ، لأن هذا البناء لا يناسب طبيعة شاعر قلق لا يهدأ فى مكان ولا يطمئن إلى شيء . .

والطبيعة نفسها تتكفل بتحديد معالم الصورة التى ينبغى أن يتعلم منها الناس . إن

الإله يتدثر بثوبه ، يحجب وجهه عن فضول البشر . ويستر جلاله المهيب خلف غلالة الهواء والزمان ، حتى يوشك أن يستعصى على صلوات الروح وضراعتها . أما الطبيعة فتنبسط أمام أعينهم كأوراق الشجر ، وعليهم أن يحبوها ويتعلموا منها :

لأن الطبيعة مفتوحة من قديم الزمان
ليتعلموا منها ، كالأوراق والخطوط والزوايا[1] .

وهلدرلين يقف من هذه الطبيعة المعلمة موقف الطاعة والخشوع . ويستمد منها تفكيره المحكم الدقيق الذى يختبر كل فكرة بمقدار تحققها فى صورة عيانية مرسومة بارزة المعالم . ولذلك فهو لا يحاول أن يعبر عن الروح بالتصورات المجردة ، وإنما ينظر إليها بعين الشاعر فيرى سحرها المنثور على جسد الواقع :

لذلك أحتفل اليوم بالعيد ،
وفى المساء عندما يسود السكون
تزدهر الروح حوالىّ . .[2]

والروح يتغير ويتحول أمام بصره وقلبه . يحتفل الأحياء بعرسه الخالد . وينعم الشجعان فى ظله بالنعاس الهادئ ، ويفرح العشاق بالدفء والعناق ، ويفزع الهائمون إلى ملجأ يؤويهم ، ويمد الحيارى أيديهم إلى بعضهم البعض ، ويرف الروح هامسًا حول الأشجار المعتمة والأزهار المبتهجة بالنور :

هناك يحتفل البشر والآلهة بالعرس ،
يحتفل به الأحياء جميعًا ،
ويهدأ القدر لحظة .
واللاجئون يلتمسون المأوى ،
والشجعان (يلتمسون) عذب النعاس ،
أما العشاق فهم
كما كانوا على الدوام ،
مطمئنون فى بيوتهم
حيث تبتهج الزهرة بالوهج الذى لا يضر

---

(١) عن الصياغة الثالثة لقصيدة « بلاد اليونان » ، طبعة بيسنر ، ص ٤٢١ .
(٢) عن قصيدة « الاحتفال بالسلام » ، الصياغة الأولى ، ص ٣٣٧ .

والأشجار المعتمة يرفرف الروح حولها ويهمس ،
أما الحيارى القلقون فيتغيرون
ويمدون الأيدى إلى بعضهم بعضًا مسرعين ،
قبل أن يأفل النور الودود
ويقبل الليل* .

إن الشاعر لا يصور الروح بالأفكار المجردة ، بل يلتمسها فى الواقع الحى ، بلغة مكثفة تعكس هذا الواقع « فإذا أراد أن يعبر عن الأمل أصبح عنده وهجًا حيًّا ملموسًا ، وإذا صوّر السلام لم يلجأ للفكرة المجردة بل للحدث المحسوس الذى تشاهده العين ويهتز له القلب . . .

استمع إليه وهو يخاطب الخالدين فى صياغته الأخيرة لقصيدة الاحتفال بالسلام :

الأنسام اللطيفة الأنفاس
تبشر بكم ،
الوادى الذى يتصاعد منه الدخان
والأرض التى لا تزال تدوى بالأنواء
تعلن عنكم ،
لكن الأمل يكسو الخدود بالاحمرار ،
وأمام باب البيت
تجلس الأم مع طفلها
وتتطلع للسلام .

ولقد نوه الشراح بالقرابة الروحية التى تجمع بين هلدرلين وبين المفكرين السابقين على سقراط . كان هؤلاء يفكرون فى الطبيعة ، ويحيون فى قلب الأسطورة ، ويدهشون لمعجزات الوجود الممتدة أمام أبصارهم . ولذلك كانوا مفكرين شاعريين ، يعبرون عن انبهارهم بالوجود بلغة الصورة والرمز والخيال والأساطير . ولذلك أيضًا كانوا هم الفجر الذى سبق ظهور الفلسفة بمعناها الدقيق . فإذا رأينا واحدًا منهم وهو هيراقليطس يصور الروح أو العقل فى صورة البرق الذى يلمع فى السماء ، فإن هلدرلين لا يبتعد عنه كثيرًا حين يرسم التفكير

* عن قصيدة « الراين » التى أهداها الشاعر إلى صديقه إسحاق فون سنكلار ص ٣٢٧ من طبعة بيسنر للأعمال الكاملة ..

على هيئة الأثير الرفاف ، ويصور الحب بلون البنفسج الأزرق الذى يكسو الأرض :

النيران أسيرة بين الشطآ ن المعشبة
وكذلك العناصر الأربعة . .
أما الأثير فيحيا فى الأعالى فى تفكر خالص .
وأما النور فهو فضى فى الأيام الصافية ،
والأرض زرقاء بلون البنفسج
علامة على الحب * .

* * *

هكذا ينظر إلى الأشياء والأحداث بعين الشاعر ، ويعبر عنها بلغة تصدق عليها كل الصدق ، فى جمل مكثفة واضحة محددة المعالم والأطراف ، مغروسة فى أعماق الرؤية الأسطورية بكل جلالها وقداستها . ولذلك تأتى هذه الأبيات بسيطة وبريئة وساذجة ، أعنى أنها بعيدة كل البعد عن الافتعال والصنعة والتجريب بهدف التجريب . ولذلك أيضاً يقترب هذا الشعر من روح الفلسفة ، وإن ابتعد عن نهجها المرتب ولغتها المجردة . صحيح أن هلدرلين قد اشتغل بالفلسفة واتصل بالفلاسفة ، ولا شك أنه لم يخرج من ذلك صفر اليدين ، ولكن طبيعته الشاعرة تمردت عليها ، بل بلغ به السخط عليها أن وصفها بالطغيان واتهم أحد أعلامها بالتزمت ، وضاق بفنونها الجدلية وحيلها النقدية وغرائبها الصورية أشد الضيق ! . وأعلن مقته للتفكير الميتافيزيقى المجرد الذى غلب على روح العصر ، حتى يمكن أن نقول معه إن « عقول الهواء ذات الأجنحة الميتافيزيقية » كانت من أقوى الأسباب التى عجلت بفراره من مدينة « يينا » . فقد كانت هذه المدينة أشبه بالحلبة التى يتصارع عليها الفلاسفة ، والحياة فيها كالحياة فى معسكر أو قشلاق . ولذلك فليس عجيباً أن يتسلل منها فى جنح الليل ، إذ كيف يعيش الراعى الطيب فى معسكرات الجنود ، وكيف يطيق الشاعر المسكين أن يحيا فى حلبة يتصارع فيها المتلاكمون بالمذاهب والأفكار ؟ . . وكيف لا يشعر المتجول القلق أنه غريب فى المدينة ، ووحيد أمام القصر الرائع الذى شيدته المثالية المجردة ؟ . .

---

* عن قصيدة « بلاد اليونان » التى سبقت الإشارة إليها . .

العاشق

« لا بد أن أصل لهذا السر الأكبر ، الذى يمنحنى الحياة أو الموت ! »

ديوتيما . . . .

هكذا أسماها قبل أن يلتقى بها ويجد فيها مثال الحب الذى طالما اشتاق إليه . ولا بد أنه تنبأ بإلهامه الصادق بما سيكون لها على حياته وشعره من أثر عميق ، فجعلها محور الصياغة الأولى لروايته الوحيدة التى تعرف بشباب هيبريون . فلما عرفها والتقى بها وقام بتعليم ابنها خلع عليها هذا الاسم الحبيب فخلدها فى تاريخ الأدب . ومن يدرى ؟ فربما كان حبه الجريح الكسير من أقوى الأسباب التى عجلت بانهياره إلى هاوية الجنون المظلم الطويل . .

ولكن من أين أتى بهذا الاسم الساحر القديم ؟ أكان استغراقه فى الروح الإغريقية والأدب والأساطير والآلهة الإغريقية — وقد ترجم بعض أشعار بندار ومسرحيتى أوديب وأنتيجونا لسوفوكليس ، وظل هذا العالم المقدس مثله الأعلى وغاية حنينه وشوقه — هو الذى أوحى إليه باسم هذه العرافة الحكيمة ؟

إن كل قراء الفلسفة المطلعين على محاورات أفلاطون يعرفون هذه الشخصية الرائعة الغامضة التى ترد فى محاورة المأدبة . فهى الكاهنة التى يقف منها سقراط موقف التلميذ من الأستاذ . . وهى المرأة الوحيدة التى اختارها أفلاطون ليجرى على لسانها رأيه فى « الايروس » أو الحب . وهى التى يعترف سقراط أيضاً بأنها علمته معنى الحب الفلسفى وهدته إلى معارج الجمال المطلق والحكمة الحقة . .

* * *

تلك هى ديوتيما القديمة . أما ديوتيما الحديثة فهى التى يهبها الشاعر قلبه وحياته . ويقف منها موقف سقراط من معلمته الغامضة ، بل يزيد عليه فيركع كالعابد عند قدميها . سقراط وهلدرلين كلاهما تلميذ يتعلم من أستاذته الحب والحكمة . والفرق بينهما هو الفرق بين الفيلسوف الماكر الساخر المتسامح ، العجوز الأفطس الأنف ، والشاعر القلق الوحيد

الرائع فى جماله وشبابه . والفرق بين المعلمتين هو كذلك الفرق بين عرّافة وكاهنة تفتى بالقول الفصل بعد اختلاف الآراء فى شأن الحب ، — ولا بد أنها كانت عجوزاً حتى تؤتى هذه الحكمة — وبين شابة هادئة رقيقة تفيض عيناها وقلبها بالطيبة والحنان والفهم للشاعر الذى ألقت به المقادير فى طريقها وشاءت أن يعيش فى بيتها ويروى عطشه الأبدى من نبعها ويغرق كذلك آخر الأمر فيه . . ولكنه قبل كل هذا يتعلم من حكمتها العذبة الحية ، وهى التى لم تعمر أكثر من ثلاثة وثلاثين ربيعاً . . ويجد كيانه القلق السكينة التى ينشدها فى نظرة التلميذ المتطلع إلى معلمه :

« دعنا نهدأ يا ولدى ، ولنتعلم أبداً » . . .

غير أنه لا يريد أن يتعلم شيئاً بعينه . فهو الباحث المتعب عن المطلق ، وهو الظامئ دوماً إلى العلم الحق : إلى الحياة والحركة الدائمة والميلاد المتجدد والتيار الذى لا يتوقف عن التدفق والجريان :

. . لا ، لست أريد أن أكون شيئاً ،
إنما أريد أن أتعلم . .

أرادت الأقدار القاتمة الطيبة التى طالما رفع إليها أجمل صلواته أن يصادف هذه المربية وأن تمد له يدها لتربت على رأسه المتعب وتشفى جرحه العنيد . . لكن إلى حين لن يطول :

لأننى تعلمت كيف يكون التبجيل الإلهى الهادئ
عندما شفت ديوتيما (جراح) وجدانى . .

* * *

ولكن لنبدأ القصة من أولها . . .

يبدو أن لقاء هلدرلين مع ديوتيما قد تم بالروح والوجدان قبل أن يناديها باسمها أو يتعرف على شخصها بفترة طويلة . لقد رأينا فى الصفحات السابقة كيف كان يعانى مرارة الإخفاق فى الحب والخيبة مع المرأة التى قد تعطيه شيئاً ولكنها تبخل عليه بكل شىء ، وقد يجد لديها المودة والعطف ، ولكنه يفتقد فيها مثال الحب المطلق الذى يتمنى أن يفنى فيه ويهبه كل حياته ، كما يفتقد « السر الأكبر الذى يمنحه الحياة أو الموت » . . هكذا أخفق فى حبه لإليزه ليبريت التى أعطاها أكثر مما أخذ منها ، وضاق بهذا الحب الذى ظل طافياً على السطح حتى استطاع أن يتخلص منه وهو يشهق ويتنهد : « طوبى لى ،

إن خلصنى رب طيب ، خلّص قلبى من هذا الحب » . . * . .

ثم كانت علاقته بصديقة مجهولة عرفها فى مدينة شتوتجارت ، علاقة غلب عليها الحياء والهمس والكتمان . ويبدو أن هلدرلين قد عرف هذه الصديقة معرفة سريعة عابرة ، ولكنها كانت كافية لتحريك أعماقه ، إذ رف عليه منها نسيم الصفاء الذى ينتظره من الحب الخالص المرتسم فى خياله . ها هو ذا يكتب إلى صديقه نويفر بعد أول لقاء له معها : كان مسلكى معها غريباً شاذاً . وكلما تذكرت كيف غفلت عن صحبتى لها فى ساعة الوداع تمنيت لو أصفع جبهتى بيدى . ولكن أحلام طفولتى قد تبددت كما قلت لك . ولو أنها ضحكت على الشاعر المريض ضحكة مجلجلة لما كان من حقى أن أغضب . إلا أن روحها كانت أطيب وأرق من أن تفعل هذا. إلهى ! . سوف أكن لها الاحترام إلى الأبد . إن النبل والهدوء اللذين يملآن كيانها يخالفان ما أعرفه من المخلوقات التى أراها هنا أو فى غير هذا المكان ، والتى لا تحرص على شىء حرصها على جذب الأنظار إليها والزهو بفطنتها والاستغراق فى ضحك لا تريد أن تكف عنه » . .

ثم يكتب إلى صديقه بعد ذلك بستة شهور أنه يشق عليه أن ينساها كما كان ينوى أن يفعل ، وأنه توسل إليها فى صوت هامس أن لا تحرمه مودتها ، ولم يزد على ذلك ولم يطلب سواه . .

بيد أن علاقته بهذه الصديقة المجهولة ظلت كما قلت علاقة سريعة عابرة . لقد أثارت نفسه وحركت شوقه إلى الحب النقى ، ولكن لم يتح لها أن تتغلغل فى قلبه أو ترضى شوقه . ومع ذلك فقد استطاعت أن تبعث فيه ما لم تستطعه امرأة قبلها ، وصورت له أنها تحقق مثال الجمال الكلاسيكى الذى عبر عنه فنكلمان — مؤرخ الفن الملهم المتيم بالروح اليونانية والجمال اليونانى ** — بكلمته المشهورة « بساطة نبيلة وعظمة هادئة » . . وهو كذلك قد وجد عندها ما ينشده فى المرأة من الجد ، إذ كانت تختلف عن كل النساء اللاتى عرفهن ، كما لمس منها الحنان والتفهم والعطف فواتته الجرأة أن يطلب ودها ، وهو ما لم يطلبه من امرأة أخرى قبلها . .

غير أن هذه البذرة الطيبة لم تجد الظروف المواتية التى تجعل منها ثمرة ناضجة ، وإن

---

* من رسالة كتبها فى شهر أكتوبر سنة ١٧٩٥ إلى صديق عمره نويفر . .

** راجع إن شئت الفصل الأول من كتابى « البلد البعيد » تحت عنوان الألم الجميل دار الكاتب العربى بالقاهرة . ص ١٠ إلى ص ٢٤ . .

كانت على كل حال قد أفلحت فى تمهيد الأرض لتلقى بذرة أخرى تؤتى الثمرة الحلوة المرة ، وتجلب عليه نعمة الحب الكبرى ونقمته الكبرى فى آن واحد . .

بدأت أمواج الشرق والصفاء تغمر كيانه فى هذه المرحلة من حياته ، وأخذت تنثر رذاذها وزبدها على شاطئه الموحش ، وتروى رمال عطشه القديم . واتجه فكره بطبيعة الحال إلى عالم اليونان ليستمد منه مادته ، وبدأت التجربة الأولى فى سلسلة تجاربه العديدة لصياغة روايته الوحيدة التى حملت عباراتها الغنائية المجنحة كل أشواق قلبه وعذاب فكره . ونشرت هذه الصياغة القصيرة التى تعرف بشذرة هيبريون فى صيف سنة ١٧٩٤ فى مجلة « ثاليا » التى كان يصدرها الشاعر شيلر . ومن يقرأها اليوم يعرف ظمأ الأرض العطشى لأمطار الحب ، وحنينها لعناق البذرة الطيبة القاسية . . إن سطورها الأولى تتحدث عن البطل الشاب الذى راح يبحث عن الحقيقة ، أى عن كل شىء ، لأن كل ما عداها باطل وعدم . وهو لهذا يبغض أوساط الأمور كما يبغض الموت ، فلا يستطيع أن يقنع بشىء إلا أن يكون « الكل » وإلا فهو عنده عدم . هذه الحقيقة الكاملة ، هذا الكل ، هو الذى يمكن أن يجد عنده « الراحة » . . أجل ! الراحة التى تسعى إليها الروح الظامئة . ولكن من يقدر أن يعيد إلينا اللحن الذى تغنى به القلب فى أيام الطفولة السعيدة المباركة ؟ لقد فتش عنها حينـًا بين الإخوة والأصحاب ، وبدا له أن فقره سيصبح ثروة عريضة لو وجد القلب الذى يتحد به ، والحياة التى لا يحرمه منها فراق ولا خداع . ولكم احترق شوقـًا إلى ضحكة من القلب ، وذاب حنينـًا إلى ظل من الحب . إلا أن الخيبة كانت دائمـًا من نصيبه ، وكل صداقة جديدة كانت تتركه فقيراً معدمـًا كما كان ، أشبه بصبى أعمى ، حاول أن يبتاع اللؤلؤ من شحاذين أشد منه فقراً ، وإن كانوا مزهوين بأسمالهم ، غافلين عن الخرق التى تلف أجسامهم . .

فإذا مضينا فى قراءة هذه الشذرة وجدنا المشكلة الوجودية التى تعذبه على لسان هيبريون* تزداد حدة ، والبحث عن المجهول يزداد ضراوة . إن العبارة التى تختتم بها الشذرة تقول : « لا بد أن يخرج هذا السر الأكبر . . . السر الذى يمنحنى الحياة أو الموت » . . فالروح الظمأى تفتش عن هذا السر ، سر الحقيقة والوجود نفسه . وهى فى طريقها إليه لا تعرف راحة ولا تدخر جهداً . ومع ذلك تقف آخر الأمر أمامه كأنها تقف أمام حبيبة تخفى

---

* يدل الاسم فى اليونانية على صفة من صفات هليوس قرص الشمس ، ومعناه « الحائم فوقنا » . .

وجهها وراء ألف قناع . ويمضى فى سعيه إليها ، ويصور له الوهم أو الأمل أنه سيجدها فى كل ما يراه حوله ، وأنها لن تلبث أن تبرز أمامه فجأة ، من واد يختفى وراء الجبل ، أو على سطح الماء فى رحلة يقوم بها فى قارب . ويظل واقفاً أمام باب المجهول الموصد فى وجهه . ويتخيل لحظة أن الباب يفتح ، والمجهول يتقدم نحوه كأميرة جميلة وجليلة ، ويحس أنه يتحد بكل ما يراه ويتلاشى فيه ، حتى يوقظه رفيف الأغصان من حوله ، ويدعوه أن يصحو من نومه أو من موته السعيد . .

* * *

بقى شاعرنا إذن على بؤسه وفقره . والفقر تجربته الأصيلة التى صحبت خطوات عمره وصبغت أنغام شعره . وعرف الكثيرين والكثيرات وظن أنهم أصدقاء وصديقات . ولكنه كان كالفراشة القلقة التى لا تعثر على الزهرة التى تشبع جوعها وتريحها من عناء السفر وتعب الرحلة . وكان يفرح بكل إنسان يظن أنه وجد فيه ضالته ، ثم ينفض يديه منه ويلوذ بوحدته . وربما وجد فيهم شيئاً مما يبحث عنه ، ولكنه لم يجد أبداً ما يشتاق إليه . وليس غريباً أن يخيب أمله فى الجميع ، لأنه يريد المطلق ، يريد « الكل » بينما كان كل واحد منهم يعطيه شيئاً ، أى لا يقدم له فى الحقيقة أى شىء ! . .

فى هذا الفقر الموحش ظهرت ميليته (وهى فى الشذرة التى نتحدث عنها الآن بديل ديوتيما فى الرواية المكتملة) . ظهرت فى هيئة كاهنة الحب ، رائعة ونقية ومقدسة . لا يكاد ينقصها من صفات العرافة القديمة الغامضة إلا الاسم . ها هو ذا يصف كيف ظهرت له أول مرة : « وسط هذا الشعور الأليم بوحدتى ، بهذا الفؤاد الجريح المقفر من البهجة ظهرت لى ؛ وقفت أمامى حلوة مقدسة ، كأنما هى كاهنة الحب ، أو كأنها نسجت من النور والعطر فصارت روحاً شفافة رقيقة ، ترى عينيها الواسعة المتوثبة بالحياة تستوى فوق ابتسامتها المفعمة بالهدوء والطيبة كأنها إله جليل يتربع على عرشه ، وخصلات شعرها الذهبى تتموج فى نسمات الربيع حول جبينها كالسحب الصغيرة التى تسبح فى ضوء الصباح . ويعجز قلمه عن أن يعبر لصديقه « بلارمين » عما لا سبيل إلى التعبير عنه ؛ عن رعشة قلبه . عن شعوره بأن عذاب حياته وليلها وفقرها وضنكها وفناءها قد زال فى لحظة واحدة ، لحظة أسمى وأسعد من كل اللحظات ، لأنها لحظة الخلاص التى تعدل دهوراً من حياتنا الرتيبة المجدبة . . . لحظة تموت فيها أيامنا الأرضية ، ويتوقف الزمن ، وتبعث الروح ،

وتتحرر النفس من قيودها لتعود إلى أصلها ومنبعها . . لأنها لحظة الحب ! لقد ظهرت فى حياته وتمثلت له كما تتمثل ربة من ربات الأساطير ، منسوجة من النور والعطر ، طيبة كالسماء ، جليلة كالآلهة ، ذهبية الشعر كملكة ساحرة فى حواديت الأطفال . . .

ويحس الشاعر البائس أن وجوده قد عثر على ضالته ، وأن قوة الأبد أصبحت حقيقة ، وأن الدهر قد تجمع فى لحظة الخلاص . لم تكن « ميليته » هذه إنسانة بل قدراً تمثل له أبهى من كل خيالاته وأحلامه ، فارتجف وعجز عن الكلام . . وشعر أن روحه هربت من جسده ، وتحولت إلى ضراعة العابد الذى يتبتل لمعبود لا يكاد يدرى شيئًا عما يدور حوله ! وتقف كاهنة الحب أمامه ، وترتفع فوق كيانها الإنسانى الفانى وتعلمه سر القدرة . وتتحدث إليه فتكشف عن عطفها الجارف عليه وإشفاقها العميق من الأحزان التى تعذب روحه . وتتمنى لو أمكنها أن تعيد إليه الطمأنينة المقدسة ، والعيد الهادئ الذى يأتى من أغوار الروح ، كما يأتى من كل شىء يلمسه أو يراه ، من النور والنسيم والسماء والأغصان والأزهار . . أما العابد الخاشع فيقف كالأخرس ، ويصمت فيه كل صوت أرضى ، ويحس أن الطبيعة الإلهية التى تجلت له هى المجهول نفسه . . ويصل إليه صوتها ليعلمه حكمة الحب : « قل لقلبك من العبث أن يفتش الإنسان عن السلام فى الخارج إذا كان لا يستطيع أن يمنحه لنفسه » . وتهديه إلى طريق الحب المطلق ، وتفتح عينيه على اللحظة الوحيدة التى يمكن أن تنقذه وتداويه ، وتوقظ فيه الشوق إلى الحب الذى عليه أن يبحث عنه ويجده بنفسه . . ويخفق قلبه الشاب ويزداد خفقانه ، ويشعر أن عاطفة الحب الغامض ، وهى أم كل عاطفة وكل حياة ، لم تمت فيه بعد . ويدفعه الشوق إلى أحضان الطبيعة . ويجلس فى مساء يوم من أيام الخريف الهادئة تحت أشجار الحور التى يهمس النسيم لأوراقها الجافة . ويوشك أن يسمع نداء الطبيعة صاعداً إليه من أعماق الأرض والبحر : لماذا لا تحبنى أنا ؟ ويزداد العالم قداسة فى عينيه ، ولكنه يزداد غموضًا . ويترك وطنه ليفتش عن الحقيقة فيما وراء البحر . . ويقول لنفسه ما يقوله كل من يريد أن يبحث عنها بحق وصدق : لسنا شيئًا . إن ما نبحث عنه هو كل شىء . .

* * *

كتب هلدرلين هذه الشذرة قبل أن يلتقى بديوتيما بحوالى عام ونصف عام . والغريب أنه سجل فيها بإحساس الشاعر وإلهامه تجربته الحية مع هذه السيدة الطيبة الرائعة . ولا

يهمنا إن كان قد رسم صورتها بوحى الشاعر وإلهامه أو استمدها من تلك الصديقة المجهولة التى لا نعرف عنها شيئاً . فالمهم أن معظم ملامح هذه الصورة قد تأكد صدقه وانطباقه على « الأصل » . وأن كاهنة الحب التى عرفها بلحمها ودمها قد فاقت كاهنة الحب الخيالية فى الصدق والعمق والجد والجمال . .

كتب هلدرلين الصياغة التالية لروايته أثناء إقامته القصيرة فى مدينة « يينا » وسماها « شباب هيبريون » * . وحلت « ديوتيما » فى هذه الصياغة الجديدة محل « ميليتا » . ولم ينقض العام حتى التقى بديوتيما الحقيقية « سوزيته جونتار » . .

* * *

كانت زوجة أحد رجال البنوك الكبار ، واسمه يعقوب فريدريش جونتار . وكان قد بدأ كرجل أعمال متواضع الحال ثم ظل يصعد على سلم المال حتى أصبح من أصحاب الملايين . وكانت الحياة فى بيته هى حياة رجل الأعمال الذى لا ينسى مصالحه ، والبرجوازى الذى لا يحرم نفسه من المتع التى يتيحها له حب الظهور . .

فالحفلات الصاخبة لا يهدأ لها ضجيج ، والضيوف على اختلاف طباعهم وسحن وجوههم يترددون على الأسرة طوال العام . إنهم — كما يصفهم هلدرلين فى رسالة إلى أمه — مخلوقات كاريكاتورية مخيفة ، يذهب الثراء بألبابهم كما يذهب النبيذ الجديد بعقول الفلاحين . وهم لا ينقطعون عن اللهو والصخب والمرح ، ولكنه لهو غليظ وصخب مزعج ومرح مغرور . ولذلك فلا عجب أن يقف الشاعر منهم موقف الدهشة والذهول ، وأن يتعلم الصمت والوجوم فى حضورهم . .

كان رجل الأعمال يفهم على حد قوله شيئاً فى شئون التجارة والمال ، ولكنه يجهل كل شىء عن تربية الأطفال ! ولذلك فقد سأل طبيب الأسرة (يوهان جوتفريد إيبل) أن يبحث له عن مرب يقوم على تعليم أبنائه . وكان الطبيب يعرف شاعرنا فسعى لدى رجل المال ليلحقه بالعمل الذى تولاه فى شهر يناير سنة ١٧٩٦ . وسرعان ما اكتشف الشاعر أنه يشغل وظيفة رقيقة الحال ، وأن من واجب المعلم المسكين ووظيفته أن يبقى دائماً فى الظل تحت سقف بيت لا يقيم وزناً إلا للمظهر والمال . صحيح أن من حقه أن يحضر الحفلات المختلفة التى تقام فيه ، ولكن هذا شىء يسمح به من باب اللياقة وحدها .

* كتبها فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٧ ..

ولا بد أن يتذكر دائماً أنه « هو العجلة الخامسة فى العربة » ، وأن المعلمين خدم أيضاً . ولايحق لهم أن يطالبوا بميزة خاصة لأنهم يؤجرون على عملهم . وليس هناك شك فى أن هلدرلين — الذى نعرف عنه اعتزازه بنفسه على الرغم من بؤسه أو ربما بسببه! — لم يكن ليتحمل هذا الهوان لو لم تكن هى هناك : كاهنة الحب . . الرقيقة الطيبة سوزيته جونتار . .

* * *

كانت فى نقائها وجمالها الشاعرى الهادئ أشبه « بفينوس » فى لوحات الرسام الإيطالى الشهير تيسيان (١٤٩٠ — ١٥٧٦) . وكان يشع من جسدها الناصع ووجهها اللطيف وعينيها الزرقاوين اللامعتين وشعرها الكستنائى وملامحها الناعمة الطيبة وشخصيتها الحنون العطوف ، كانت تشع منها هالة من السحر الذى لا يقاوم ولا يتصور إنسان لفرط جماله ونقائه وترفعه أنه يمكن أن يكون من هذا العالم .. كانت تحضر الحفلات التى يقيمها زوجها ولا تشارك فيها ، وكانت كل عين تنظر إليها تدرك على الفور أنها أمام روح نبيلة مهذبة وقلب هادئ مفعم بالرحمة والخير . وكانت أجمل ما تكون وهى تداعب أولادها أو تجرب النغمات على أصابع معزفها . . هناك تبدو مشرقة طيبة مضحية حريصة على الواجب الأسمى ، سعيدة به كل السعادة . وهناك يحلو للإنسان أن يقترب منها كما يقترب من نبع طاهر . . وكان حبها للموسيقى والغناء يفوق كل شىء . ولا بد أن وجود الشاعر فى بيتها قد حرك شفتيها بعد صمت طويل . ولا بد أن هذا الغناء هو الذى ألهم هلدرلين هذه السطور من روايته « هيبريون » : « عندما كانت تغنى ، كان الإنسان يعرف فيها تلك المحبة الصامتة التى لا تميل بطبعها للكلام . هناك تتبدى تلك الأبية السماوية فى جلالها وحسنها ، هناك ترف الأغنية فى معظم الأحيان متضرعة ودوداً من الشفاه الرقيقة المتقدة ، وتنبعث فى أحيان أخرى كأنها وصية من وصايا الآلهة . وكم كان القلب يجيش فى هذا الصوت الإلهى ، وكم كانت العظمة والتواضع ، كم كانت كل أفراح الحياة وأحزانها تبدو أجمل مما هى عليه فى نبل هذه الأنغام وروعتها ! . لم نكن نحس بالبهجة ولا بالإعجاب ، كنا نشعر بأن السلام يهبط علينا من السماء . ألف مرة قلت لها ولنفسى : أجمل الأشياء هو أقدسها . هكذا كان كل شىء فيها . وكما كان غناؤها ، كذلك كانت حياتها » . .

لكن كل هذا الجمال يظل كملك عارى الرأس لا يكسوه إلا تاج العطف والحدب على آلام الناس . يظل ناراً لا تضىء ، شمساً لا تدفئ ، سيفاً قاسياً براقاً يسلط علينا

ويشعرنا بفنائنا وضعفنا وقدرنا الحزين . . هنالك لا يطلب الإنسان المتعة فى حضن الأنثى . بل ينشد الأمان على صدر من أصبحت هى الأم والأخت والحبيبة التى تحنو وتفهم وتعلم . وهناك تبدو له كل همومه القديمة كحماقات الأطفال . . ويعجب لنفسه كيف عاش حتى هذه اللحظة تعيساً بلا أمل ولا حب ولا إيمان . . وينتفض كالنسر الذى تذكر جناحيه . ويشع نور الربيع على حياته المظلمة فتدب فيها الصحة والقوة والفرحة والشباب . . وهناك أخيراً يتوقف المطارد الغريب الذى طالما هام على وجهه ويفكر فى المأوى والبيت . . إن لقاءه القدرى يرفعه فوق سأم أيامه المكرورة ، ينبت له جناحين يرفرفان فى أعياد البهجة .



سوزيته جنتار (ديوتيما)

يذيب كيانه الواحد فى الكل الأكبر ، يجعل قطرة اللحظة العابرة تتسع لبحر الزمن الأبدى . .
« ربما أوفق إلى رسم لمحة واحدة من ملامح وجودها ، ولكن لا بد أن أجد ساعة مواتية بعيدة عن كل إزعاج لكى يتاح لى الكتابة عنها » . . هكذا يكتب هلدرلين بعد دخوله بيت هذه الأسرة ببضعة شهور * . ثم لا يلبث بعد ذلك أن يكتب فى روايته هذه العبارة :

« أحسسنا أن كلا منا خلق للآخر ، قبل أن يفطن أحدنا إلى ذلك » . .

* * *

كانت سوزيته قد سمعت بهلدرلين قبل أن تلقاه بسنة واحدة . فقد أهداها صديقها السويسرى الشاب « تسيرليدر » نسخة نقلها بخط يده من « شذرة هيبريون » التى نشرت فى مجلة « ثاليا » التى يصدرها شيلر . . ولعل هذه الكلمات التى لا شك أنها قد قرأتها فى الشذرة لم تكن وليدة الصدفة : « سوف أعثر عليها مرة أخرى ، فى أية مرحلة من مراحل الوجود الأبدى » . .

ولم يكن من محض الصدفة أن يتحول الشاعر فى قربها إلى خاشع ينصت ، وتلميذ يتعلم . لقد التقى « هيبريون » « بديوتيما » . لا بل إنه يعيش الآن فى بيتها ويربى أبناءها . . ويكفى أن نستمع إلى هذه القصيدة ** التى كتبها بعد فراقه لها لنرى كيف كان يتطهر من نبعها وينصت لصوتها *** :

أغربى ، أيتها الشمس الجميلة ، فما انتبهوا إليك إلا قليلا ،
لم يقدروك ، أيتها المقدسة ،
لأنك أشرقت فى هدوء
وبلا تعب على المتعبين .

* * *

أنت تغرب وتشرق لى فى عطف ووداد ،
وعينى تأنس إليك ، أيها النور الرائع !
فقد تعلمت الإجلال الإلهى الهادئ

---

* فى يوليو ١٧٩٦ . .
** هى قصيدة « أغربى أيتها الشمس الجميلة » . ، الأعمال الكاملة ، ص٢٣٠ — ٢٣١ . .
*** قصيدة « رضا الناس » ص١٨٧ .

منذ أبرأت ديوتيما أوجاعى .

أنت يا رسول السماء الحبيب . كم أنصت إليك !
إليك يا ديوتيما ! وهذه العين
كم تطلعت إليك ثم إلى النهار الذهبى
وهى متألقة ممتنة . هنالك بدا خرير الينابيع
أكثر حياة ، وبراعم الأرض المظلمة
كأنما ترسل أنفاسها الحبيبة إلىّ ،
والأثير المبتسم خلال السحب الفضية
ينحنى ليمنحنى بركته .

* * *

استطاعت ديوتيما أو سوزيته جونتار بطيبتها وانعطافها أن تطلق الطاقات المدفونة فى وجدان الشاعر . كان قد عاش طويلا مع الأفكار الفلسفية المجردة ، وكانت حياة أشبه بحياة الجنود فى المعسكرات . . ولكن الحب النقى أعاده إلى نفسه الحقة ، الحب الذى ينمو فى ظل التقوى والخشوع والإنصات ، الحب الذى يصبح الإله فيه حقيقة ماثلة للقلب والعين :

ألم يصبح قلبى مقدسًا ، مفعمًا بالحياة الجميلة .
منذ أن أحببت ؟ لماذا كنتم تهتمون بى
عندما كنت أكثر غروراً وتوحشًا ،
وأغنى بالكلمات وأشد خواء ؟

آه ! الجمهور لا يعجبه إلا ما يروج فى الأسواق ،
والعبد لا يحترم إلا [السيد] الجبار ؛
وليس يؤمن بالإله
إلا من كانوا بطبعهم إلهيين .

لا شك أن تأثير ديوتيما الجديدة لم يأت بمحض الصدفة . لقد كانت من العقل والوعى والذكاء بحيث تفهم هلدرلين وتمد له طوق النجاة . وقد استطاعت أن تتغلغل فى سراديب

روحه المعذبة ، وتكتشف جرحه الذى ينتظر الشفاء والعزاء ، وتدرك أنه جاء إليها « ممزق العواطف » من مدينة « يينا » ، لينقذ نفسه بين ذراعيها . ولذلك فليس غريبًا أن يقول على لسانها بعد فراقهما بوقت قصير :

« بُعِث الفتى بين ذراعى
وقد جاء وحيداً وحزينًا *
من بلاد بعيدة » . . .

* * *

علمته ديوتيما إذاً ، ووقف منها موقف التلميذ الشاكر المطيع . حدث هذا بلا جهد أو عناء . فالكاهنة الطيبة تعرفه ، وهى تستمد معرفتها به من قلبه . ولهذا تستطيع أن تنصت لصوت هذا القلب ، وتستطيع أن تخلصه وتنقذه « حين تنصت لمد القلب وجزره » . . وهى تبذل أيضًا كل ما فى طاقتها لتنزع شوكة اليأس والشك المغروزة فى هذا القلب : « هتفت قائلة : أسكت ولا تتهكم بقدرك ، لا تتهكم بقلبك . لأننى أفهمه ، وأفهمه خيراً منك » . . أليست هذه الكلمات من « هيبريون » هى التعبير عن عقيدة الشاعر التى طالما رددها فى شعره ونثره ؟ « قلب الإنسان هو قَدَره ؟ » . .

فى هذا الجو المعطر بأريج الحنان عرف هلدرلين الراحة والاطمئنان ، فى ظل الشجرة الطيبة التى لا تبخل بشىء استطاع أن يصل إلى حقيقة نفسه . فى هذه الحقيقة التقى البشر والخالدون ، اجتمع المبدأ الأول والزمن المتغير . إنها وراء كل تصور ، فوق كل تفكير ، لأنها هى حقيقة الحب : « ما قيمة كل ما فعله الناس وفكروا فيه منذ آلاف السنين ، بالقياس إلى لحظة حب واحدة ؟ . . إن كل الدرجات على عتبة الحياة تؤدى إليها . . منها نأتى ، وإليها نمضى » . .

* * *

هو الحب إذن ! ليس هو « الجوع الذى تسمونه حبًا » ** . . بل هو رسول السماء الذى طالما انتظرناه . الحقيقة التى نكتشفها فى العذاب ، حين نكتشف أن للعذاب رسالة إلهية . استسلم الشاعر لقدره، أى لقلبه . وهو يعلم الآن أننا لا نستمع إلى الأغنية الإلهية

* من قصيدة « إن عرفتنى من البعد » بعد ما افترقنا . ص ٤٢٣ المقطع التاسع .

** عن رواية هيبريون .

التى تشدو بها الحياة ويترنم بها العالم حتى نكابد العذاب العميق . وهو يعلم أيضًا أن كنه هذه الحقيقة هو المعرفة المطلقة بقوة الحياة . ها هو ذا يقول فى موضع آخر من روايته : « ما يحيا لا يتبدد ، يبقى حرًّا حتى فى أعمق أشكال عبوديته ، يظل واحداً واو فرقته من أساسه ، ولو مزقته حتى النخاع ، وإن جوهره ليفلت ظافراً من بين يديك » . .

* * *

بقى أن نتتبع باختصار رحلة قدره مع ديوتيما ، مع سوزيته جونتار . .

يبدو أن هذا القدر لم يعلن عن نفسه إلا خلال سفرهما إلى مدينة دريبورج ، هربًا من وجه القوات الفرنسية الزاحفة . ويبدو أيضًا أن المهاجرين الشابين قد عاشا أيامًا سعيدة حقًّا ، وانطلقا معًا فى نزهات ذهبية . كانت سوزيته فى صحبة أولادها . وكان معهما رجل آخر نبيل الروح ، غارق إلى أذنيه فى عبادة الحس والفن والجمال هو الكاتب الثائر فيلهلم هينزه (١٧٤٦ — ١٨٠٣) الذى كان من أشد المعجبين بها (ويروى عنه أن نبأ وفاتها قد صدمه صدمة قوية أدت إلى إصابته بالشلل النصفى بعد موتها بخمسة أيام . .) — كان هذا الكاتب المعروف بمقالاته فى الفن وقصصه ورواياته عن الفنانين ، ودعوته للحب والمتعة ولذة الحس إلى حد الخروج على الأخلاق فى سبيل الجمال — كان فى ذلك الحين كهلا فى الخمسين من عمره . ويظهر أن هلدرلين انجذب إلى شخصيته التى جمعت بين ثقافة العقل وبراءة الأطفال فى وحدة نادرة جعلته يصفه بقوله : « إنه شيخ رائع . لم يسبق لى أن عثرت على هذه الثقافة الهائلة مع هذه البساطة التى تشبه سذاجة الأطفال » . كان هينزه فى سنوات نضجه قد بدأ يولى الموسيقى جانبًا كبيراً من اهتمامه الذى ظل حتى ذلك الحين مقصوراً على الرسم والنحت . ويظهر أن لقاءه مع هلدرلين وسوزيته قد أكد صحة العبارة التى قالها قبل ذلك بسنوات قليلة حين وصف الموسيقى بأنه ساحر حقيقى يصور حياة النفوس والأرواح . . فقد كان الأصدقاء الذين يترددون على بيت جونتار يعرفون أن هلدرلين وسوزيته ثنائى جمعت الأنغام بين روحيهما إلى الحد الذى جعل بعض النفوس والألسنة الصغيرة تنشر حولهما الشائعات . كان الشاعر يعزف على البيان ، فتجاوبه سيدة البيت بالغناء . . ومن يدرى ؟ فربما ترنمت فى بعض الأحيان بأشعاره التى تنقلها إلى أثير الآلهة الخالدين وتفعم روحها التقية بجلال الأساطير . .

ولا بد أن « هينزه » قد أثر على هلدرلين من ناحية أخرى . فالمعروف أنه كان فى

شبابه من أشد المتحمسين للثورة والثوار ، ثم لم يلبث هذا الحماس أن خمدت شعلته ليصبح الثائر القديم من أشد المتحمسين للحياة التى لا تكف عن التدفق والتغير والجريان . ولابد أن هلدرلين كان واقعًا تحت تأثير هينزه عند ما كتب فى أكتوبر سنة ١٧٩٦ إلى شقيقه الأصغر الذى كان فى ذلك الحين من أكبر المتحمسين للثورة : « ستجد عندما ترانى أن حالة الثورة قد خفت عما كانت عليه من قبل . . لقد أصبحت الآن ألتزم الهدوء التام حول الأمور التى تجرى حولنا » . . . وشاء القدر أن يؤيد هذا الإحساس الجديد فى نفس هلدرلين إذ تلقى بعد كتابته لهذه السطور رسالة محزنة من الطبيب ايبل [صديق عائلة جونتار الذى توسط له فى الالتحاق بوظيفته] ، وكانت الرسالة التى وصلته من باريس تفيض حزنًا على مصير الثورة الفرنسية وتعبر عن خيبة آماله وآمال الناس فى الحرية والعدالة والإخاء . . .

ورد عليه هلدرلين محاولا أن يصبره ويواسيه . فمن المؤلم حقًا أن يودع الإنسان مكانًا تصور أن كل أزهار البشرية وثمارها قد ازدهرت فيه ، ومن المحزن أن يتوهم رؤية الحقيقة والعدل حيث لا وجود لهما ، ويشعر أن قلبه أنبل من أن يحتمل الحياة فى عصره . ولكن لاحيلة للإنسان فى هذه الحالة إلا أن يعتصم بنفسه وبأصحابه القليلين ، ويجد فيهما العالم الذى افتقده فى الواقع ، ويبقى على إيمانه بثورة مقبلة تغير إحساس الناس وطرائقهم فى التصور والشعور . . فكلما نمت الدولة فى هدوء ازداد حظها من العظمة والمجد واقتربت من النضج والكمال . . (ومن الواضح أن هذه الأفكار تشهد بالتحول الذى طرأ على هلدرلين . . فهو الآن فى بيت المحبوبة وتحت رعايتها أكثر هدوءاً وأقدر على الإنصات والتعلم ، وأقدر على تعهد البذرة الباطنة حتى تنضج فى سلام وسكون . وهو الذى كان ثائراً متحمسًا للجمهورية فأصبح « جمهوريًا بالعقل والحقيقة » كما قال عنه أحد أصدقائه أو بالأحرى أحد الذين اتصل بهم أو اتصلوا به . ولا ريب أن هذا كله يشهد على التحول الخطير فى تفكيره وإحساسه ورؤيته بعد لقائه بسوزيته ، ولا ريب أيضًا فى أن « كاهنة الحب » الجديدة قد جعلت منه كاهنًا طيبًا وصبوراً ، يستطيع أن يلوذ بالحكمة إذا أعجزه أن يسعد بالحب ! . .

* * *

يأتى على الفنان حين لا يطلب فيه من الناس إلا أن يتركوه فى حاله ، ولا ينغصوا عليه حياته ووحدته بالأقوال الصغيرة التى لا تصدر إلا عن نفوس صغيرة . لكن تجارب

الفنانين والشعراء والأدباء والمفكرين تثبت دائمًا أن هذه الأمنية المتواضعة البسيطة طموح بعيد المنال . .

لم يترك الناس هلدرلين وسوزيته فى حالهما . بل سرعان ما انتشرت حولهما الشائعات ، وتطفلت الأعين ، ولهجت الألسنة الصغيرة بما يصح وما لا يصح أن يقال . بدأ الناس يتحدثون ، سواء منهم من كان يعيش مع عائلة جونتار أو من يتردد عليهم من الضيوف والأصدقاء . ولم تقف غربان الشائعات عند حدود فرانكفورت بل تجاوزتها إلى قلب العاصمة برلين . فها هو ذا أحد المترددين على بيت جونتار يصف فى سنة ١٧٩٩ اهتمام أهالى فرانكفورت بأخبار العاشقين المسكينين وهلعهم من الأخبار التى تصل إلى أسماعهم أو يتطوعون بإذاعتها عنهما : « لقد حرم على أن أذكر اسمه هنا فى فرانكفورت ، حتى لا يصرخ الناس فزعًا من أخباره ، لمجرد أنه أحب امرأة واستلهم هذا الحب فى كتابة روايته هيبريون » . . وها هو ذا صدى الشائعات المنتشرة عنهما فى برلين يصل فى صيف سنة ١٧٩٧ إلى آذان الناس فى فرانكفورت مع قول القائل : « العشاق يعيشون لأنفسهم وبأنفسهم ، والعالم كله بالنسبة لهم ميت لا حياة فيه » . .

وبدأت سحب الأزمة التى نشأت بين الزوجين تتجمع وتكفهر وتضيق الخناق على شاعرنا المسكين وحبيبته العفيفة الصابرة . كانت تعيش مع زوجها الغنى الناجح فى إطار العرف والتقاليد (وقد زف إليها وهى فى السابعة عشرة من عمرها) وكانت بإحساسها وكيانها تحيا بعيدة عنه بُعْدَ الحمل الطيب الذى كتب عليه أن يعاشر الذئب القوى المعتد بنفسه ، والقمر الشاحب الحالم عن الشمس الجبارة المنتصرة . ومع ذلك فهى تحتمل فى صبر الملاك الطاهر ، ولا تبخل على الناس بابتسامتها ونظرتها الطيبة الحنون . حتى إذا ذكر زوجها أو رأته قادمًا طافت بالنظرة والابتسامة سحابة حزن عميق . وها هو ذا أحد الزوار يقول عنها : « قطعة اللحم المقدد حين تجوع ، الكلب الذى تربت عليه يداها ، العصفور الذى تطعمه ، وأنا حين أحكى لها . . . نحن جميعًا نتلقى منها نفس النظرة الودودة الطيبة التى لا تتعكر إلا إذا وقعت عيناها على زوجها أو سمعت اسمه » . .

أما هلدرلين فكان دائم الشكوى من سوء معاملة الزوج وتحقيره له بسبب وبغير سبب . وبلغت إهانات الزوج للمربى الفقير ذروتها فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ . ويبدو أنه قد دخل عليهما فى لحظة من لحظات الانسجام الإلهى مع النغم والغناء أو مع التجاوب

الرقيق مع الشعر . . هنالك قرر الحبيبان المحرومان أن ينفصلا على الفور عن بعضهما بعضًا ، وأن يبقيا على نبل العلاقة التى تجمع بينهما بالفراق الأبى المتكبر . . . وهكذا غادر هلدرلين الطفل الذى يربيه والأم التى يقدسها ويتبتل إليها بالحب المحروم والشعر الكسير . . . وآثر أن يمضى إلى مدينة هومبورج القريبة ليعيش فيها عامًا ونصف عام . . .

* * *

لم يستطع الحبيبان صبراً على هذا الحرمان الذى يفوق كل قدرة على الاحتمال . . وبدآ يتراسلان فى خطابات شحيحة مذعورة من الرقابة الغاشمة التى فرضها رجل المال والأعمال . . ومن الصعب أن نقول إنهما رضيا بهذا الحرمان أو احتملا هذا الفراق . فقد طالما عبرت كلماتهما عن حنين اللقاء . لكن اللقاء ظل بعيداً كأحلام الفقراء ، وظل هذا السؤال الحزين يتردد بينهما فى صور مختلفة : « يجب علينا الآن أن نتسول من القدر ، وبألف وسيلة ووسيلة ، دربًا واحداً يجمع بيننا . ماذا عسى أن تكون حالنا او اختفى كل منا بالنسبة لصاحبه ؟ » . .

وظل السؤال الأخرس يتردد كهتاف الغريق فى الرسائل المتبادلة بينهما [ولا زالت رسائل سوزيته محفوظة إلى الآن ، أما رسائل هلدراين فلم يبق منها سوى ثلاث مسودات لم تصل إلى يديها . .] . .

ويكفى أن نقتبس شذرات قليلة من هذه الرسائل التى يعرفها العشاق المقهورون فى كل زمان . . هذه بعض سطور كتبتها سوزيته إلى هلدراين فى شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ : « إن لمست منى الهدوء والجفاف فلا تتشكك فىّ ، لأن النار تشتعل فى أعماقى ، ولا بد لى ولك أن نحفظ أنفسنا من الانفعال . إن الهم يمض قليلا ، غير أن الكآبة الحلوة الشافية تأتى دائمًا فى الوقت المناسب من السماء وتصب نعمتها فى القلب . لن أيأس أبداً من الطبيعة ، ولو أحسست بالموت يتسلل إلى كيانى فسوف أقول : إنها توقظنى من جديد ، ترد إلىّ كل مشاعرى التى صنتها فى وفاء ولم يحرمنى منها إلا ظلم القدر . ولكنها تنتصر ، تنتزع لى من الموت حياة جديدة جميلة ، فبذرة الحب ثابتة وعميقة الجذور فى كيانى » . .

* * *

احتدم الصراع فى نفس الحبيبين . وأصبح الفراق هو الحل الوحيد الذى فرض عليهما وحاولا بكل طاقتهما على الزهد والحرمان والكبرياء أن يقبلاه . لكن ماذا فى وسع الطائر أن

يفعل وهو يرى قضبان الأسر تشيّد حوله، قفص التقاليد يضيّق الخناق عليه ، يد الجلاد الشرعى تقص ريشه وتلوى رقبته وتخنق صوته ؟ . هل نلومه إذا صرخ ورفرف بجناحيه واستنجد بربة الحرية والحب من بطش الناس ؟ ها هى ذى كاهنة الحب تجد نفسها وحيدة ذابلة ، بلا معبد ولا إله ولا وثن ولا أتباع ، بعيدة عن الإنسان الذى يمكنه أن يقف معها ويملأ وحشتها ويعطى معنى لوجودها . ومع ذلك فهى تحاول أن تمد إليه حبل العزاء عبر الجدران والأسوار ، أن تطمئنه إلى لقاء الأرواح على الرغم من فراق الأجساد المحتوم ، أن تحمل عنه عبء الاختيار الذى ليس منه بد : « لا تترك عبء القرار الثقيل يقع علىّ وحدى . إن ما تراه خيراً هو كذلك رأيى وإرادتى ، وإذا اعتقدت أن من الخير أن نفترق فراقاً تامًّا فلن أنكرك لهذا السبب . إن الوشائج الخفية بيننا سوف تظل مع ذلك قائمة . الحياة قصيرة . إننى أحس البرودة ! !هل من حقنا أن نستخف بها لأنها قصيرة ؟ آه قل لى ! أين نلتقى مرة أخرى ؟ أيها الروح العزيز الحبيب ! أين أجد الراحة ؟ دعنى أعرف واجبى وأنسى نفسى ، وإذا كان هذا الواجب عسيراً ، فأعنى على القيام به ؛ ولكنى ما زلت أجهله . الإبقاء على نفسى شىء لا أستغنى عنه ، ونسيان نفسى شىء آخر يتناقض معه ، لأننى أشعر أن كل ما يمكن أن أقاوم به حبى إنما يدمرنى ويفضى بى للهلاك . يا للحب من فن عسير ! من ذا الذى يفهمه ؟ من ذا الذى يفلت منه ؟ » . .

* * *

لم يعد إذاً من الفراق بد . ويمضى الزمن فيثبت للحبيبين أن كل ألوان الزهد والصبر والحرمان والكبرياء ليست إلا أوهام عزاء . لقد استمرت الحبيبة تخدع نفسها بالجلد والاحتمال ، حتى تبين لها قرب النهاية أن الحياة بغير الحبيب ذبول بطىء وموت محتوم . وها هى ذى تقول فى إحدى رسائلها المتأخرة : « شعرت شعوراً حيًّا أن حياتى من غيرك تذبل وتجف وتخطو للموت ببطء » . . ويرد عليها هلدرلين برسالة لم تبق منها إلا مسودتها ، ويبدو أنه أشفق على المحبوبة من كآبتها السوداء فلم يتمها ولم يبعث بها إليها . ها هى ذى سطور قليلة منها ، كل حرف فيها جرح ينزف ويئن : « لو أمكننى أن أرقد عند قدميك وأرعى موهبتى الفنية فى هدوء وحرية ، لاستطعت فيما أعتقد أن أعجل بتحقيق ذلك الهدف الذى يشتاق إليه قلبى المعذب المفجوع فى أحلامى وفى وضح النهار ، وكثيراً ما يحن إليه فى يأس صامت . . انظرى ! هذا ما يجعلنى أحياناً ألتزم الصمت المطبق ، إذ لا بد أن أحمى نفسى من مثل هذه الأفكار . مرضك ، رسالتك . . . لقد وضح أمام عينى . . .

وكنت أتمنى لو أصبت بالعمى . . . أنك لا زلت تعانين وتتألمين . . . قولى لى ، أيهما أفضل ، أن نتكتم ما فى قلبينا أم أن نعلنه ونبوح ؟. . لهذا تظلم الرؤية غالبًا أمام أعيننا ، فلا ندرى من نحن ولا ما نملك ، لا نكاد نعرف أنفسنا ، هذا الصراع الأبدى وهذا التناقض الذى تحسينه فى أعماقك لا بد أن يحكم عليك بالموت البطىء ، وإذا لم يخفف الرب وطأته فلن يكون أمامى إلا الهلاك يأسًا عليك وعلى نفسى ، أو إغفال كل شىء إلاّك والبحث معك عن طريق يريحنا من هذا الصراع . لقد خيل إلى أن فى استطاعتنا أن نعيش على التجاهل وأنه قد يشد من عزمنا أن نودع الأمل إلى غير رجعة » . .

انقطعت سطور هذا الخطاب فجأة . ولعل الشاعر قد أحس أنه يخدع نفسه أيضًا ، ويحطم رأسه على جدار المستحيل . ولعله قد لجأ فى هذه الفترة إلى الشعر [وهل يملك ملجأ غيره ؟ !] ، فراح يؤلف أغنية ربما كانت أرق أغانيه التى كتبها فى ذلك الحين وأكثرها يأسًا وعذابًا . ولكن أغنية الفراق لم تتم كما لم يتم الخطاب الذى قرأت بعض سطوره . وأنّى لها أن تتم وسط هذاالصراع الذى ينهشه ويحرقه ؟ إليك أبيات الأغنية التى جعل عنوانها « فى الحق أمضى كل يوم » ولم يستطع أن يكملها فترك مقطوعتها الثانية ناقصة :

أمضى كل الأيام على درب غير الدرب ،
أحيانًا للشجر الأخضر فى الغابة ، أحيانًا للنبع ،
للصخرة حيث الأزهار مفتحة الأكمام ،
انظر من فوق التل إلى السهل ،

لكنى لا أجدك أبداً يا حبى ،
فى أى مكان لا أجدك أبداً فى النور ،
تتطاير منى كلماتى تذروها الأنسام
كلماتى الطيبة وكانت فى ماضى الأيام . . .
حقًّا كم أنت بعيد ، ناء يا وجه النعمة
يخبو نغم حياتك
وأنا لا أملك أن أنصت . . .

يا أيتها الألحان الساحرة الصوت ،
يا من أفرغت على قلبي الراحة من نبع الخلد

ومن كف الأرباب العلويين
طال العهد وغاب . شب الولد وشاب .
حتى الأرض – وقد كانت تتبسم لى –
عابسة الوجه .

* * *

الآن أقول وداعاً ، عيشى فى خير .
روحى كل نهار ترحل عنك تعود إليك ،
عينى تبكيك ، تريق الدمع
تتمنى يوماً أن تصفو كى ترنو لك
فتراك هناك وتهنأ بك . . .

* * *

كل شيء إذاً قد انقضى . واللقاء أبعد وأتعس من أشواق الشعراء المساكين . وإذا كان العاشق يتلفت بقلبه وعينيه إلى هناك حيث تقيم المحبوبة ، فهو لا يستطيع أن يخدع قلبه ولا عينه عن بعد الشاطئ واستحالة اللقاء . ليقل إذن وداعاً ، ولتسقط الكلمة على أرض الواقع بعد ما رنت فى أنغام الشعر ! .

* * *

وهذا هو الذى حدث بالفعل !

فقد تم الوداع النهائى فى شهر مايو سنة ١٨٠٠ .

وحاول الحبيبان أن يؤجلا الفراق الأخير بالوهم والأمل ، ولكنهما كانا يعلمان فى قرارة نفسيهما أنه قدر لا مناص منه . ومع ذلك فهما يعلمان أيضاً أن الفراق هو فراق الجسد ، والحرمان هو حرمان العين أن ترى العين ، واليد أن تسعد بلمس اليد ، ولذلك فلا حيلة لهما إذا استمر القلب يحس بالقلب ، وظلت الروح تهفو إلى الروح وتتشبث بأمل بعيد فى مستقبل أبعد . .

إن سوزيته تكتب إليه فى إحدى رسائلها المتأخرة فتقول بعد أن استحكم اليأس من الحاضر ، ولم يبق لأتقياء القلب إلا الثقة والانتظار : « عدنى أنك لن ترجع مرة أخرى وأنك سترحل من هنا بهدوء ، لأننى إذا لم أعرف هذا فسوف أظل إلى الصباح ملازمة للنافذة وأنا فى أفظع حالات القلق والتوتر ، ولا مفر لنا فى النهاية من أن نسترد الهدوء . لذلك دعنا نمض على طريقنا فى ثقة واطمئنان ، ولنحاول فى صميم ألمنا أن نشعر بالسعادة ، ولنتمن أن يدوم لنا هذا الألم طويلا طويلا لأننا نستمد منه إحساسنا بالنبل الكامل والقوة على احتمال قدرنا . وداعًا ! وداعًا ! ولتباركك السماء ! » . .

واستجاب الشاعر لهذا الدعاء . . وبدأ يحس فى نفسه قدرة جديدة على الرضا بالألم أو النظر إليه كقدر حقيقى لا مفر منه . ولذلك أصبح موقفه الجديد هو موقف التحمل والصمود ، أى الانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل العذاب الهادئ الطويل ، لا يستطيع الإنسان أن يبلغها حتى يصطدم كما قلت بآخر حدود الألم . هناك تسمو الذات فوق عذابها « الذاتى » وتتأمله كما يتأمل الخالق مخلوقه ، فى صمت وصبر وأسى لا يخلو من الشعور بالموت والفناء . . .

وطبيعى أن يحلق الشاعر فى مثل هذه المرحلة إلى أسمى ما يمكن أن يصل إليه جناحاه ، وأن يبدع أبقى أعماله وأنقاها وأبعدها عن الشكوى والكآبة والأنين . . فقد وصل إلى مرحلة « موضوعية » — إن صح هذا التعبير — وانفصل عن ذاته أو ارتفع فوقها وراح ينظر إليها من أعلى . وهل جوهر الفن إلا فى هذا البعد أو الابتعاد عن موضوعه ؟ وهل يستطيع الفنان أن يخلق فنًا جديراً بهذا الاسم إذا ظل غارقًا فى حمى عواطفه وأشجانه وأحزانه ؟ وهل يمكن أن يملك السخرية والدعابة الصافية ، أو القدرة على التجربة المتجددة والرؤية الشاملة إذا لم يرتفع فوق مادته ليسيطر عليها لا لتسيطر عايه ؟ . .

لا أريد أن أستطرد فى هذا الرأى الذى عبرت عنه فى مجال آخر ، وإنما أحب أن أنتقل منه إلى قصيدة أو بالأحرى « مرثية » من أجمل المرثيات التى كتبها هلدرلين وهو فى قمة نضجه وشموخه بين سنتى ١٧٩٩ و ١٨٠٠ . وعنوان المرثية نفسه وهو « نواح مينون على ديوتيما » يدل على روحها . فاسم « مينون » قد ورد كثيراً فى التراث اليونانى ، وهو بمعناه اللغوى يفيد الصبر والريث والتحمل والصمود . ولا بد أن نقف قليلا عند هذه القصيدة التى تحتل مكانة هامة فى شعر هلدرلين وحياته على السواء ، شأنها فى هذا شأن المرثيات

الأخرى الطويلة (كالخبز والنبيذ والعودة) . ولن نستطيع بالطبع أن ننقل كل أبياتها* ، بل سنكتفى بتقديم عدد قليل منها يفيدنا فى الإحساس بموقف الصمود والصبر والأمل اليائس الذى انتهى إليه الشاعر بعد رحلة العذاب والحيرة الطويلة . .

وأبدع ما فى المقطوعة الأولى هى صورة الضياع على الدروب المختلفة ، والقلق على القمة أو فى الحضيض ، والروح الهائم الذى يلتمس الراحة عبثًا فى كل مكان ، أشبه بالحيوان الوحشى الذى فقد دفء العرين وأخذ يضل فى الغابات ، لا يدفئه النور ولا تعينه رطوبة الليل ، ولا تشفى الأمواج ولا الرياح ولا الأعشاب جراحه :

« فى كل يوم أخرج من بيتى ** وأواصل البحث عن شىء آخر ،
سألتها جميعًا ، سألت كل الطرقات والدروب ؛
هناك أزور القمم الرطبة ، أزور الظلال جميعًا والينابيع ؛
الروح يهيم حائراً فى صعود وهبوط ينشد الراحة ،
كذلك يفر الوحش الجريح إلى الغابات ،
بعد أن كان فى الظهيرة يستريح آمنًا فى الظلام . .
لا دفء النور ولا رطوبة الليل تعين
وفى أمواج النهر يغمس جراحه عبثًا . . .
وكما أن الأرض تمد إليه العشب الشافى بغير طائل
وما من نسمة تهدئ دمه الفوار
كذلك فيما يبدو ، يا أحبابى ، قد أصبح حالى
ما من أحد يمكنه أن يرفع عن جبهتى الحلم المحزن .

* * *

وتغالبه خواطر الموت فيخاطب إلهته قائلا : لا يليق بك أن تمسكى الرجل المقهور وتقيديه وتأخذيه معك إلى ليل الموت المرعب . ليستمر هناك فى البحث أو الدعاء أو العراك معك ، أو يصبر على القيد المخيف الذى حكمت به عليه ، أو يستمع مبتسما لأغنيتك

---

* تبلغ فى صياغتها الأولى ١١٦ بيتا ، زادها الشاعر وأضاف إليها فى الصياغة الثانية فأصبحت ١٣٠ بيتا قسمها على تسع مقطوعات ..

** حرفيا : أمضى إلى الخارج .

الرهيبة . ثم يخاطب نفسه ويقول : إن كان الأمر كذلك فانسى كل أمل فى النجاة واستسلمى للنوم بلا صوت . ولكنه يعود فيلمح شعاعـًا فى الظلام ، ويتذكر أن اليأس لن يستطيع الإطباق عليه فيقول لنفسه : « ومع ذلك فإن صوت الأمل يبعث فى صدرك . ولن يمكناك يا نفسى أن تتعودى على الظلام ومملكة الظلام ، ولذلك فأنت تحلمين وسط النوم الحديدى ! إنك لست وحيدة كما تتصورين ، فهناك شىء حبيب يقترب منك على الرغم من بعده ، ولا بد أن أبتسم وأعجب كيف أحس السعادة والنعمة وأنا فى قلب العذاب . .

ثم تعاوده صور الحب القديم وأيامه الذهبية التى أضاءت ظلام لياليه ، ويتذكر الحدائق الجميلة والجبال المكسوة بحمرة الشفق ، والدروب الصامتة التى تشهد كلها بالسعادة السماوية التى عرفها فى شبابه ، ويناجى النجوم التى طالما أطلت عليه وهو يسير مع محبوبته وأرسلت إليه نظراتها الحنون ، ويسمى « أطفال الربيع الجميلة » من زهور وزنابق بأسمائها ، فكم كانت كلها قريبة من قلبه ، أنيسة إلى نفسه ، وكم كانت صادقة ومشرقة وبديعة . غير أن الأيام تأتى وتذهب ، والعام يطارد العام ، والزمن يركض مسرعـًا فوق رؤوس الفانين . ومع ذلك فالذين التى باركها الحب ترى الأمر رؤية أخرى ، والأحباب تكتب لهم حياة مختلفة . فهم جميعـًا قد توجوا الساعات والأيام وأعوام النجوم والبشر بالبهجة والفرح والجد ، وهم جميعـًا أبناء الأثير الأصلاء وقد عاشوا من حولنا ، يا ديوتيما ، يجمعهم الحب الأبدى الحميم . .

لكن ديوتيما قد غابت عنه والبيت أصبح خرابـًا :

آه ! أين أنت الآن يا حبيبة ؟
أخذوا منى عينى ، وقلبى فقدته معها .
لهذا أهيم هنا وهناك ، وعلىّ أن أعيش
كما تعيش الظلال وكل شىء يبدو لى بلا معنى .

إنه يريد أن يحتفل ، ولكن بأى شىء ؟ يريد أن يقدم الشكر ، لكن على أى شىء ؟ ويريد أن يغنى ، ولكن لمن ، وهو الآن وحيد محروم من كل نعمة إلهية ؟ إن الألم الأخير يأكل كل ذكرى ويسلب الشفاه كل كلام ، والحياة تتوقف والوجود يصبح كالعدم :

هذا هو ضعفى ، أعرف أن اللعنة تشل عروقى

وتطرحنى بعيداً كلما بدأت شيئاً ،
فأجلس بالنهار جامداً أخرس كالأطفال ،
تنساب الدموع الباردة من عينى فى أحيان كثيرة ،
ونبات الحقل وشدو الطيور يعكر صفوى
آه ! والسماء باطلة جوفاء كجدران السجن
معلقة فوق رأسى كأنها عبء ثقيل . .

ثم تتجه النفس إلى الحبيبة وتتعلق بها كما يتعلق الغريق بطوق النجاة . وينفتح لها أفق جديد . فطالما أشارت له الحبيبة إلى شيء آخر أكبر منها ، شيء أعظم وأجمل :

ولكن أنت ، يا من أشرت لى قديماً وأنا على مفترق الطرق
عندما سقطت أمامك ، وعزيتنى بشيء أجمل ،
أنت يا من علمتنى بصمتك وأوحيت لى فى هدوء
أن أرى العظمة وأغنى للآلهة الصامتة ،
أنت يا ابنة الآلهة . . . هل تتجلين لى
وتحيينى كما كنت تفعلين ، وهل تلهمينى الحياة والسلام من جديد ؟

لقد تعلم منها الشاعر وما زال يريد أن يتعلم . وهو فى حيرته ويأسه لا يدرى لمن يتجه إن لم يتجه إليها . تحت ثقل الألم تحطمت قدرته على الشكر ، أى قدرته على الصلاة . ولكنه لا يزال يأمل أن تهديه ديوتيما إلى منطقة الأمان التى يبدأ منها حياة أخرى جديدة ، لا يزال يرجو أن تعيده لنور الباطن ، لكهف الرضا وملجأ الشكر والصلاة ، وما الصلاة عنده إلا الخلق وإبداع الشعر :

هكذا أريد ، أيها السماويون ، أن أشكر أيضاً ،
فتتنفس صلاة المنشد من صدر خفيف .
وكما كنت قديماً أقف معها على قمة مشمسة ،
يتحدث إلىّ من داخل المعبد إله يبعث فىّ الحياة ،
أنا أيضاً أريد أن أعيش ! ها هى ذى الأرض تخضر ! .
وينادى صوت مشجع من جبال أبوللو الفضية
كأنه ينساب من قيثارة مقدسة !

تعال ! قد كان (الماضى) أشبه بالحلم . الأجنحة الدامية
شفيت من جراحها ، وكل الآمال عادت للشباب .
كثير أن نعثر على شيء عظيم ، ولم يزل أمامنا الكثير ،
ومن أحب هذا الحب يسير ، ولا بد أن يسير
على طريق الآلهة .

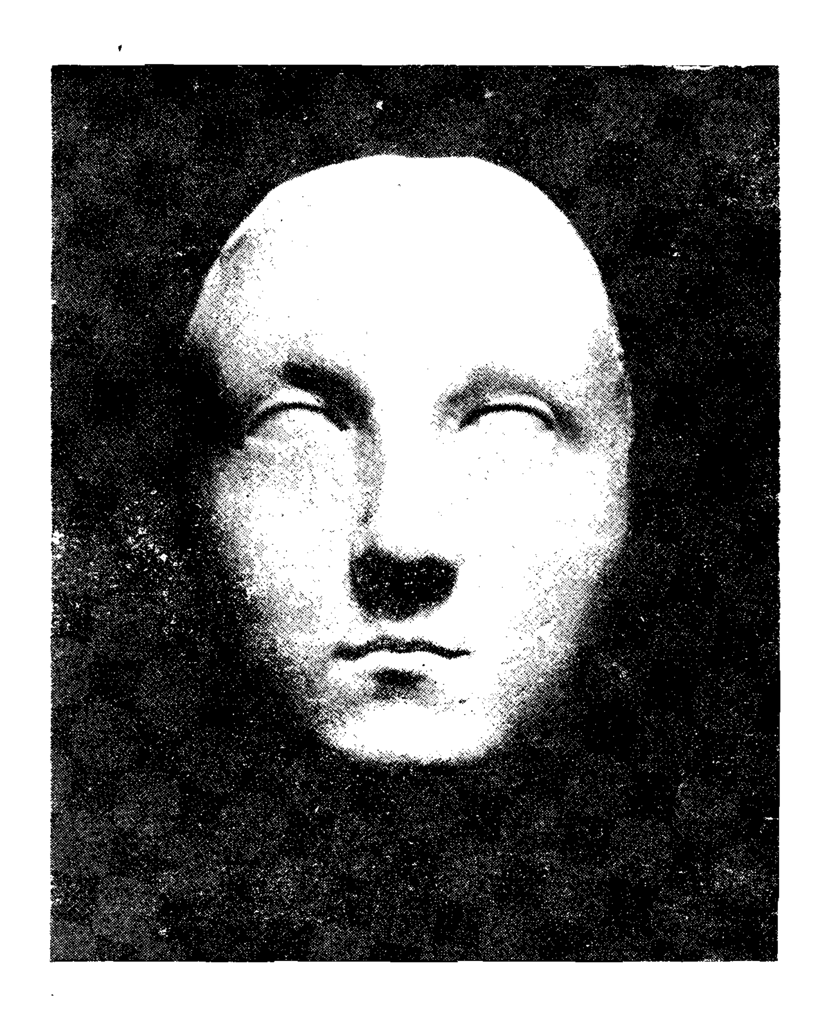
* * *

لم يصل الشاعر إلى هذه المرحلة بجهده ، بل قدمت له هدية . إن الحياة دبت فيه بكلمة من الله ، والشباب عاد إليه وجدد قلبه العجوز فهتف بفرحته لعودة الربيع واخضرار الأرض .

غير أن الفرحة بمعجزة الحياة والشباب والربيع توحى فى نفس الوقت بأن فكرة الموت كانت تغرز شوكتها فى قلبه . وقد يبدو أن عاطفة الحماس للحياة أبعد ما تكون عن عاطفة الموت . والحقيقة أن النقيضين أقرب مما نتصور . فما من قلب يهتف للحياة إلا وهو يحس بثقل الموت ، وما من صوت يضحك إلا وهو منبعث من صميم المأساة ، وما من فم يشدو للربيع إلا ويحس الرعشة من كآبة الشتاء ! .

والحق أن فكرة الموت كانت فى ذلك الوقت جاثمة على صدر الحبيبين . وربما أشفقت « سوزيته » عليه من شبحها المظلم فتضرعت إليه قائلة فى إحدى رسائلها فى فبراير سنة ١٨٠٠ : « أبق على نفسك من أجلى » ! . وربما أحس هلدرلين أنه كان قاسياً أكثر مما ينبغى عندما تنبأ بموت ديوتيما المحتوم فى روايته هيبريون فكتب يقول لها : « اغفرى لى موت ديوتيما » . . ولكن النبوءة كانت صحيحة . .

فقد سارت الحبيبة على طريق القدر حتى بلغت نهايته . سارت عليه فى رضا وهدوء وعلى شفتيها هذه الكلمة : « أفضل لى أن أموت ضحية الحب من أن أعيش بدونه » . وأسلمت أنفاسها الأخيرة فى شهر يونيه سنة ١٨٠٢ بعد أن زارها الضيف النحيل الشاحب الوجه الذى يحب الإقامة فى صدور الشعراء والفنانين والعشاق . . كانت صديقتها الوحيدة « مارجريتا سومرنج » قد سبقتها إلى الموت فى شهر يناير . ولا بد أنها شعرت بوحدتها الرهيبة بعد موتها ورأت أن حياتها لم يعد لها معنى بعد أن أقفرت من الحبيبة والحبيب . لقد كتبت ذات يوم لهلدرلين : « شعرت بأن حياتى تذبل من غيرك وتموت ببطء » .



سوزيته جنتار (١٧٦٩ – ١٨٠٢)
قناع من صنع الفنان لاندولين أوماخت

وها هى ذى تذبل وتحترق بنار السل . . ويشتد عليها المرض فى الأسبوعين الأخيرين من حياتها فتسلم الروح فى مساء اليوم الثانى والعشرين من شهر يونية سنة ١٨٠٢ . .

* * *

تزوج رجل المال والأعمال بعدها مرتين . ولكنه لم يعف الشاعر المسكين من شكوكه

وإشاعاته التى بلغت ذروتها عندما اتهمه بأنه تسبب فى موتها وأنه يعرف تماماً على من يقع ذنبها . . أما الشاعر نفسه فقد سار على طريق العذاب، بعد فراقه الطويل لحبيبته ولم يعزه عنه قليلا إلا قدرته على الحب والشكر ، أعنى قدرته على الشعر . . وبدأت الكآبة المميتة تهاجمه . كانت نوعاً من الانتحار البطىء الذى عبر عنه على لسان الفيلسوف اليونانى إمبادوقليس فى * القصيدة والمسرحية اللتين كتبهما عنه بين سنتى ١٧٩٨ و ١٨٠٠ . .

وإمبادوقليس فيلسوف وطبيب وكاهن يونانى ولد حوالى سنة ٤٨٢ أو ٤٩٠ قبل الميلاد فى مدينة أجريجنت عاصمة صقلية ومات حوالى سنة ٤٢٣ أو ٤٣٠ بعد أن كاد أهلها يؤلهوه ثم طردوه منها أو اضطروه للفرار ! نسجت حوله الأساطير والخرافات ، والتف حوله التلاميذ والأتباع ونسبوا له قدرة على التنبؤ بالغيب وقوى سحرية خارقة لا تنسب إلا للسحرة والأنبياء وأنصاف الآلهة . والمعروف أنه قال : إن اختلاط العناصر الأربعة وتنافرها هو أصل الأشياء ، وأن الحب والكره هو مبدأ الوجود . والمعروف أيضاً أنه بنى أفكاره على أساس نظرية بارميندز عن الوجود الثابت الذى لا يتغير ولا يزول ، ولا ينشأ من العدم ولا يفنى فى العدم . كما اشتهر بقدرته على التأثير بالكلمة حتى قال عنه أرسطو إنه أبدع فن الخطابة . . ولكن القصة التى تروى عن موته هى التى خلدت اسمه وأوحت للشعراء بالكتابة عنه * * . فيقال إنه ألقى بنفسه فى فوهة بركان « إتنا » وترك حذاءه بجانبها ليكون أثراً يدل عليه . . هل كان ذلك الانتحار العجيب استجابة لنداء الأرض الأم ، أم رغبة فى الاتحاد بالطبيعة الإلهية ، أم حيلة ماكرة يقصد منها تخليده ذكره ؟ * * * . . المهم أنه شغل هلدرلين فترة طويلة من حياته ، وتمثل له بطلا مقدساً استجاب بجسارة لدعاء الأرض وضحى بحياته فوق سطحها ليجدها فى أعماقها . .

ولو قرأنا هذه الأبيات من قصيدة هلدرلين الأولى عنه :

أنت تبحث عن الحياة ، تبحث عنها ، وتنبثق وتلمع لك

---

* Empedocles فيلسوف وسياسى إغريقى فى القرن الخامس قبل الميلاد . من تلاميذ فيثاغورس وبارميديدس . تقول الأسطورة إنه ألقى بنفسه فى فوهة بركان إتنا ليثبت أن اختفاءه المباشر سببه كونه من الآلهة .

* * ومنهم شاعرنا المبدع محمد عفيفى مطر ...

* * * انظر قصيدة « حذاء إمبادوقليس » التى كتبها برشت عن هذا الانتحار العجيب .

راجع إن شئت كتابى قصائد من برخت ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

نار إلهية من أعماق الأرض ،
وأنت بالشوق الواجف
تلقى بنفسك فى لهب « إتنا » .
مع هذا فأنت عندى مقدس ، مثل قوة الأرض
التى اختطفتك ، أيها المقتول الجسور !
وكم تمنيت أن أتبع البطل إلى الأعماق :
لولا أن الحب يمنعنى .

لو قرأنا هذه الأبيات لرأينا أن الكآبة لم تكن بعد قد أحكمت حصارها حوله ، فلا زال يتشبث بالحب ، ولا زال يأمل فى النجاة على يديه . ولكن « الموت البطىء » أو الكآبة السوداء كانت قد بدأت تهاجمه عندما راح يكتب مسرحيته أو مأساته « موت إمبادوقليس » التى صاغها فى ثلاث صور مختلفة ، تعبر كلها تعبيراً أسطوريًّا عن فكرة الانتحار . .

وبعد أن كان هبوط الفيلسوف العراف فى فوهة البركان تكفيراً عن ذنبه الذى اقترفه عندما وضع نفسه فى مصاف الآلهة ، أصبح فى الصياغة المتأخرة تعبيراً عن شوق صوفى إلى رحم الأرض ، كما أصبح العراف هو البطل الذى يضحى بنفسه ويدمر سعادته ليرجع إلى حضن الأم وأصل الأشياء :

عندما ينوح الآن قلب الأرض
فى وحدته الأليمة ، وتنشر الأم المظلمة
— وهى تذكر الاتحاد القديم —
ذراعها النارية للأثير ،
ويأتى الحاكم* فى هالة إشعاعه
هنالك نغوص فى اللهب المقدس
علامة على قرابتنا له .

* * *

ولقد غاص هلدرلين فى هاوية اللهب الأسود . وبدأت الكآبة المميتة تحاصره من كل ناحية وتضطره للتسليم شيئًا فشيئًا . وبدأ جسده الرقيق يذبل ويشف بالتدريج حتى

* المقصود به الشمس .

تحول فى نظر الأصدقاء إلى شبح أو ظل يائس . أما الروح فحاولت أن تتشبث بذكرى الحب أو بشيطان الشعر ليحميها من السقوط . ولكنها كانت قد بدأت الرحلة المخيفة إلى الأعماق ، كما بدأت ظلال عالم الجنون تلتف حولها يومًا بعد يوم . كان الحب قد أصبح جرحًا وحيداً ينزف دمه فى صمت . والشعر الذى بلغ قمة نضجه فى السنوات القليلة التى تلت وفاة الحبيبة لم يستطع أن يتماسك على الطريق الموحش بلا أمل ولا عزاء ولا صديق . . . ؟

العابد

« لكن حيث يكون الخطر تلوح كذلك سبل النجاة » * .

من الأدباء من يكتب « أدبًا » ، ومن الشعراء من يؤلف « شعراً » .. أما الأديب الحق « فيكتب » الأدب والشعر من خلاله ، لأنه « وسيط » يملى عليه فيطيع ، وينادى فيستجيب ، ويؤمر فيمتثل للأمر الأعلى .. هذا النوع من الأدباء يعيش الأدب ولا يعيش منه أو عليه . إنه يتحد بحياته ، وحياته تتحد به . الشعر عنده هو الشاعر ، والشاعر هو الشعر . الشعر عنده رسالة ، نبوءة ، تبشير وتحذير ، عبادة وطاعة . ولهذا كان فى كل شاعر حقيقى جزء من النبى . . فكلاهما يلهم ويوحى إليه ، وكلاهما يبلغ ويعلن ، وإن اختلف مصدر الوحى واختلفت طبيعة الرسالة . .

وشعر هالدرلين صلاة وعبادة ، شكر وعرفان ، يفيض من نبع التقوى العميقة ، والنقاء المحض . ولهذا فهو يعد نفسه من خدمه وعباده ، ولا يجد حرجًا فى أن يكون عبداً له . بل يعتبر ذلك نعمة كبرى من نعم السماء . هكذا يقول عن نفسه فى قصيدته إلى العذراء :

أيتها العذراء ،
كثيراً ما تعذبت فى سبيلك
وفى سبيل ابنك ،
منذ أن سمعت عنه
فى شبابى الحلو ؛
فليس الرائى وحده
بل كذلك العابدون
يخضعون معه لقدر واحد .

---

* عن قصيدة باطموس .

وهكذا يسمى نفسه « العبد » فى قصيدة « باطموس » التى تعد من أجمل ما قاله فى شعره الأخير الذى بلغ ذروة نضجه وكماله . .

وتنقسم هذه المرحلة الأخيرة من حياة هلدرلين إلى قسمين : قضى أحدهما بين سنتى ١٨٠٠ و ١٨٠١ فى شتوتجارت وهاوبتفيل ونورتنجن . وقضى الآخر بين سنتى ١٨٠٢ و ١٨٠٦ فى مدينة بوردو الفرنسية وفى مدينتى نورتنجن وهومبورج . .

* * *

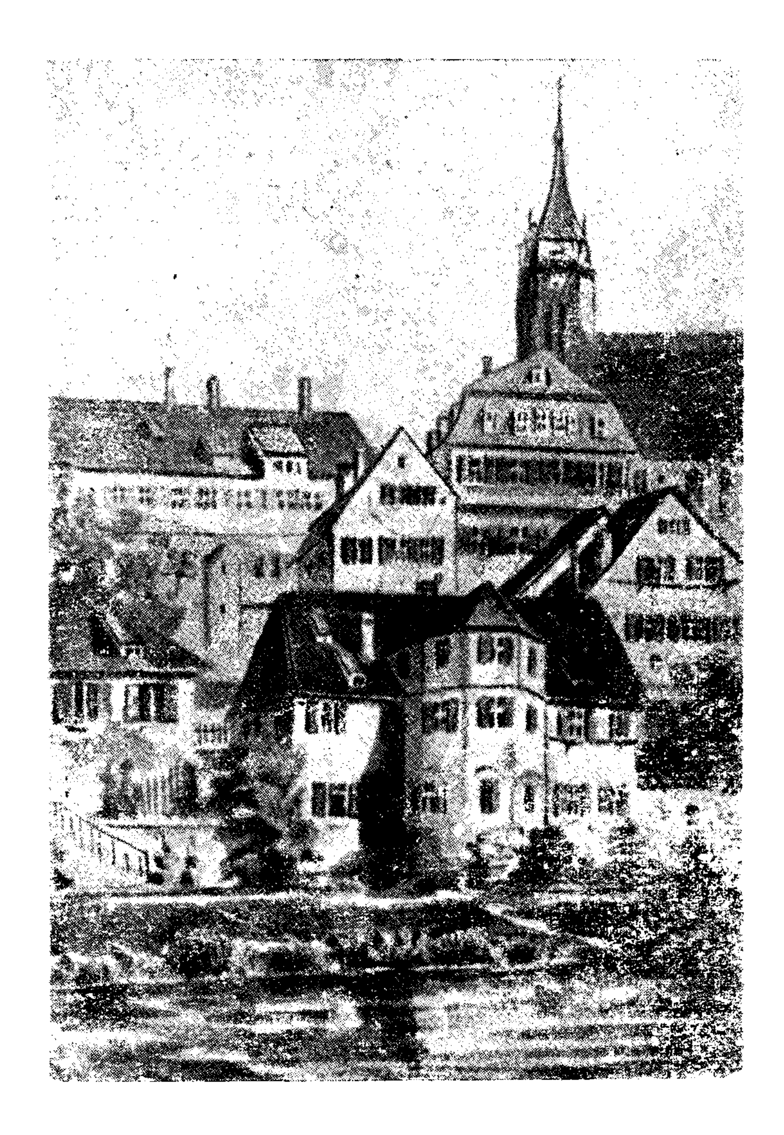
ودع حبيبته « ديوتيما » الوداع الأخير وذهب إلى بلدته نورتنجن . ولم يكد يقيم فيها عشرة أيام حتى اضطرته لقمة العيش إلى الرحيل . فهو مدرس خصوصى يتسول من أسرة إلى أسرة ، وقدره البائس يدفعه للبحث عن بيت جديد يعمل فيه . ودخل هذه المرة بيت تاجر القماش « كرستيان لانداور » فى مدينة شتوتجارت ، وكان بيتاً جميلا وجد فيه « الحب والوفرة والهدوء » . ولم تمض أيام على وجوده فيه حتى أحس الراحة بعد طول السير على « درب ضيق » ، وأكبر صاحبه الكريم المغرم بالأدب والفن ، وفتح له قلبه حتى صار عنده « صديق الأصدقاء » . وكان من حسن حظه أن يجد رب البيت من هواة الموسيقى والغناء ، وأن تتاح له ساعات ذهبية يقضيها وسط الأنغام . كان كل هذا يدفعه إلى الإحساس العميق بالشكر والعرفان ، كما يدفعه إلى المقارنة بين هذه الحياة التى يحياها فى بيت غريب وبين حياته القلقة التى ختمت عليها الأقدار بالحرمان : ها هو ذا يعبر عن هذا حين يخاطب مضيفه بقوله :

تختلف حظوظ الناس من العيش
كما يختلف النور عن الظلمة ،
أما أنت فتسكن فى الوسط الذهبى .

ويعود فى بداية شهر يونية إلى وطنه فى نورتنجن . ثم يمضى الصيف والخريف فى صحبة أصدقائه فى مدينة شتوتجارت . ولا ندرى متى ولا كيف ترك بيت « لانداور » ولكن المهم أنه خرج منه وهو صديقه الحميم . وربما كان السبب فى تركه هو إخفاقه المستمر فى مهنة التعليم التى لم يخلق لها ولم تتفق فى يوم من الأيام مع إحساسه بالكبرياء ، وربما كان المسئول عن ذلك أيضاً هو قلقه المستمر ورغبته الملحة فى الوحدة والتجوال . .

وغادر وطنه من جديد بحثاً عن لقمة العيش . . وذهب فى شهر يناير سنة ١٨٠١

إلى مدينة هاوبتفيل (فى سويسرا) ليلتحق بعمله عند عائلة « فون جونزنباخ » ويقضى ثلاثة أشهر فى كنفها قبل أن يتأكد مرة أخرى من إخفاقه . وكان رب هذه الأسرة —



برج هلدرلين والبيت الذى عاش فيه
بمدينة توبنجن على نهر النيكر

كما يقول شاعرنا نفسه — رجلا مهيبًا يبدو عليه أنه جرب كثيراً فى حياته ، وإن لم يمنعه هذا من الاحتفاظ ببراءته وبساطته . أما زوجته فكانت امرأة عملية نشيطة تعيش وتفكر كما يعيش التجار ويفكرون ! وعلى الجملة فقد كان الرجل وزوجه كما يقول الشاعر أيضًا فى عبارة لا تخلو من الحدة والسخرية : « من أولئك المستقيمين الذين يشاركون الغرباء بالقدر الذى لا يضعف قلوبهم » . . .

تبين للشاعر كما قلت أنه أخفق فى مهمته التربوية . فعاد إلى أهله فى « نورتنجن » مع بداية شهر أبريل سنة ١٨٠١ . وقضى بقية السنة فى وطنه الصغير ، عاكفًا على كتابة أنضج أشعاره ، ومن بينها المرثيات والأناشيد الكبرى . وحاول فى أثناء ذلك بعض المحاولات التى باءت بالفشل . فقد دخل فى روعه على ما يبدو أنه يستطيع أن يلقى محاضرات فى الفلسفة أو الأدب فى جامعة « يينا » . وسعى إلى ذلك لدى المسئولين فأغلقوا الباب فى وجهه ! ولا شك أنهم أدوا له وللشعر نفسه خدمة لا يمكن أن تنسى . فقد استطاع فى هذه المرحلة أن يجد نفسه ويبلغ قمة نضجه وعبقريته . .

ولا شك أن الفيض الذى تدفق منه فى هذه السنوات القليلة التى سبقت انحداره إلى هاوية الجنون (سنة ١٨٠٦) سيظل لغزاً من ألغاز الخلق الفنى ، وأن قصائده الطويلة التى كتبها ستبقى من أجمل وأنقى ما تعتز به مملكة الشعر .

كان قد وجد نفسه واطمأن إليها وظهر أثر ذلك فى قصيدته التى أشرنا إليها فى الفصل السابق عن نواح مينون على ديوتيما . ويبدو أنه ازداد بعد ذلك عكوفًا عليها وثقة بطاقاتها ورغبة فى التعبير عنها . تدل على هذا سطور قليلة كتبها إلى صديقه « لانداور » فى شهر فبراير سنة ١٨٠١ يقول فيها : « كلما زادت ثقة الإنسان فى نفسه وتركيزه على حياته الفضلى ، وكلما سهل عليه الخروج من أجواء مشاعره الجانبية والعودة إلى التحليق فى جوه الأصيل ، ازدادت عينه قدرة على الرؤية الواضحة الشاملة واستطاع أن يهب قلبه لكل سهل وعسير وعظيم ومحبب إليه فى هذا العالم » . .

وهذه السطور القليلة تكشف عن « المعرفة » التى اطمأن إليها الشاعر فى هذه المرحلة من حياته . فالحياة عنده « مدرسة » يتربى فيها ويتعلم منها وينمى مواهبه بالتأمل فيها والإخلاص لها والإقبال على خير ما فيها . أما العالم — وهو الكلمة التى تختم بها السطور السابقة — فهو الإمكانية الشاملة التى لا تحد ولا تنتهى ، وهو منبع كل عظيم وحبيب إلى

القلب . وأما الفعل الذى يحقق به نفسه ويستجيب لإرادة الخلق فى طبيعته فهو توجيه انفعالاته ومشاعره من التشتت إلى التركيز ، ومن العرضى إلى الثابت ، ومن الظواهر المتعددة إلى الحقيقة الباقية . أبداً لن يتوصل إلى هذه الحقيقة – وهى فى نهاية الأمر حقيقته هو – بالعقل والتفكير المجرد ولا بقسر عواطفه والضغط عليها ، بل بالتحليق بجناحيه فى « جوه » الأصيل ، والاستجابة لصوته الباطن ، وتلبية نداء الخلق . وهو فى نهاية الأمر أيضًا نداء القلب . وهذا النداء الآتى من الأعماق له رنين اللحن ووقع الغناء ، وهو شىء لا يسمعه الإنسان ولا يستجيب له إلا إذا كان قادراً بفطرته على الانفعال باللحن والغناء . . أعنى أن الخلق فى ذاته عمل موسيقى يصدر عن طبيعة موسيقية . وربما كانت قصيدة « بلاد اليونان » التى صاغها فى هذه المرحلة ثلاث مرات هى خير ما يعبر عن الجو النفسى الذى عاش فيه الشاعر فى هذه الفترة التى لم تستمر للأسف طويلا . فهى تصور فى صيغها الثلاث ما حاولت السطور السابقة أن تصوره فخانها التوفيق إلى حد كبير – وهو فى الغالب يخون الناثر ! – وتعبر عن الاطمئنان والثقة والراحة التى أحس بها هلدرلين وهو يرى أنضج قصائد عمره تفيض منه كما يفيض الماء من النبع . وليس أدل على هذا من أن القصيدة تعبر عن هذه الحالة مرة بالثقة والاطمئنان وأخرى بالفرح والسرور ، كما ترسم لنا صورة الإنسان الوحيد الذى يسبح فى جو الموسيقى والأساطير ، بعد أن استقر على قمة طاقاته الفنية ، وجمع شتات نفسه ، ووجد الأمان فى التجمع والتركيز ، ولمس النغمة الخاصة به وحده . ومن فوق هذه القمة ترى العين رؤية مشرقة ، ويتكشف أمامها العالم الواسع الممتد ، وينفتح القلب لتجربة هذا العالم الرحيب . ولا شك أنه لم يصل إلى هذا الاطمئنان أو هذه السعادة بمحض الصدفة ، بل جاهد فى سبيلها وعانى من أجلها وتعب حتى ارتقى إليها . ولذلك فإن خير ما يوصف به هذا الشعور المطمئن السعيد هو الحرية . الحرية بأدق معانيها وأنبلها . الحرية التى يشق الإنسان فى السعى إليها ويغامر من أجلها ويقتحمها ويغزوها ... فهكذا تتطلب كل حرية حقيقية ، لأنها لا تسقط أبداً فى حجر الضعيف العاجز المتواكل . لنقرأ معًا بعض أبيات « بلاد اليونان » فى صيغتها الثالثة والأخيرة :

آه يا أصوات القدر . أنت يا دروب المتجول (الوحيد)
لأنه فى زرقة المدرسة* ،

---

* يلاحظ أن الشاعر أضاف كلمة المدرسة إلى الصيغة الثالثة ، أما فى الصيغة الثانية فلا نجد إلا فى السماء ، وهكذا تحولت السماء والعالم إلى مدرسة يتعلم منها ..

من بعيد ، فى ضجيج السماء
يرن جو[١] السحب المرح
وقد استراح لوجود الإله ، وللرعد والبرق
ورنينه أشبه بغناء الشحرور
ونداءات كالاستشراف ،
للخلود والأبطال ؛
كثيرة هى الذكريات .
حيث تنغم الأرض
كأنها جلد العجل[٢] ،
من بعد الخراب وإغواء القديسين
– لأن العمل يتكون فى البدء –
وتتبع القوانين العظيمة
التى تغنى للمعرفة[٣] والحنان
وتظهر بعد ذلك للسماء منشدة أناشيد السحب .
لأن صرة الأرض ثابتة .
إذ أن (ألسنة) اللهب والعناصر العامة
سجينة بين الشطآن المعشبة
أما فى الأعالى فيحيا الأثير منصرفاً للتفكير .
ولكن فى الأيام الصافية
يكون النور فضياً .
وكعلامة على الحب
تكون الأرض زرقاء كالبنفسج .
البدء العظيم

---

(١) يلاحظ أن الكلمة الأصلية (Stimmung) تستعصى على الترجمة إلى أية لغة . فهى تدل على الجو النفسى والانفعالى أو الشعور والإحساس العام . وكذلك الفعل منها الذى عبرت عنه بكلمة « استراح » يتصل بها ويصور الحالة الوجدانية بوجهها الطيب المريح ..
(٢) زائدة فى الصيغة الثالثة .
(٣) فى الصياغة الثانية الوحدة .

قد يصبح كذلك قليلا[١] .
أما اليوم العادى فعجيب محبب للبشر
الرب يلبس رداء .
ويخفى وجهه عن [أسباب] المعرفة
ويتفنن فى تغطية الهواء .
والهواء والزمن
يحجبان المخيف
حتى لا يفرط أحد فى حبه بالصلوات
أو [تحبه] النفس . لأن الطبيعة
مفتوحة [الأبواب] للتعلم [منها][٢]
كالأوراق أو الخطوط والزوايا
والشموس والأقمار أشد صفرة ،
لكن فى بعض الأوقات ،
عندما تريد ثقافة الأرض القديمة أن تبرز ،
وذلك فى الحكايات ،
[الحكايات] التامة المحاربة بشجاعة
يسيِّر الرب الأرض (وكأنما تسير) فوق الذرى .
بيد أنه يحد الخطى المعوجة ،
أما طاقات النفس ووشائجها
فتتجمع كالنورات الذهبية ،
حتى يؤثر الجمال
الساكن على الأرض
ويأنس أحد الأرواح
بعشرة البشر .

* * *

(١) الصيغة الثانية أوضح قليلا : ولكن كالرقصة فى العرس ، قد يستحيل المبدأ العظيم أيضاً إلى شيء ضئيل .
(٢) الكلمات الموضوعة بين قوسين زيادة منى لفهم النص المكثف الذى يكتفى بالإشارة والتلميح.

تبدأ القصيدة بالمتجول الوحيد الذى يجوب الدروب والآفاق ، ويتعلم من زرقة السماء وصفاء السحاب كما يتعلم التلميذ من مدرسة ، ويستثير ذكريات الماضى الجليل ويستشرف حكايات الأبطال الخالدين ، ويتأمل قوانين الخلق الأزلية التى تغنى لحن المعرفة والحنان ، ويرى كيف يروض اللهب والعناصر المعربدة ، فيخضع النهر للشطآن ويتجلى النور الفضى وتتطهر الأرض وتبزغ عروسًا زرقاء بلون البنفسج ، ويتلفت البشر لصوت الإله ومعجزة الوجود فإذا به يخفى وجهه المهيب عنهم ويفتح لهم كتاب الطبيعة لعلهم أن يروا النور فى انعكاساته ويدركوا سر الخلود من تاريخ الخالدين . . هذا المتجول الوحيد يستقر فى نهاية الرحلة ويطمئن إلى نفسه ويلم أشتات طاقاته « حتى يؤثر الجمال أن يسكن على الأرض وتأنس الروح بعشرة البشر » . لقد انتهت به الرحلة إذاً إلى نفسه ، وكأنه لم يضطرب بين معجزات الطبيعة والتاريخ ولم يشق فى البحث عن السر الأكبر إلا لكى يعثر على هذه النفس الراقدة بين جنبيه ! حتى إذا وجدها وجد معها الجمال على الأرض ، والسعادة على وجوه الناس ، وأحس أن كل شىء قد رد إليه حين استعاد الطمأنينة إلى قدرة الخلق والإبداع الكامنة فى قلبه ، أى استعاد حريته . .

وهذه رسالة أخرى كتبها إلى نفس هذا الصديق (لانداور) تعبر عن الصراع الطويل الذى انتهى به إلى الحرية السعيدة المبدعة . فقد وقف يومًا أمام جبال الألب الرائعة ، وارتعش ذاهلا وهو يتأمل جلالها وهدوءها ، ثم أفاق على أعياد الربيع من حوله ، وشعر أن هذا الربيع قد أقام عيداً آخر فى نفسه . .

ولا بد من قراءة سطور قليلة من هذه الرسالة لنعرف أن هذا الربيع لم يكن كله غناء وجمالا ونوراً بل امتزج فيه الغناء بالبكاء ، والجمال بالعذاب ، والنور بالظل : « ما زلت أقف مذهولا أمام جبال الألب التى تمتد على مسافة ساعات قليلة من حولى . الحق أننى لم أجرب مثل هذا الانطباع فى حياتى . إنها أشبه بخرافة عجيبة من خرافات الشباب البطولى لأمنا الأرض — تذكرنا بالعماء القديم الذى خرج منه التكوين — على حين تطل من عل فى هدوء ، وفوق ثلوجها الزرقاء الصافية تسطع الشمس والنجوم ليلا ونهاراً . يمكنك إذاً أن تتصور حالى وأنا أنعم بكل العناصر فى أوائل الربيع ، وأمتع عينى بمشهد التلال والجداول والبحيرات من حولى ، فهذا هو أول ربيع يأتى على منذ ثلاث سنوات وأتذوقه بنفس حرة وأحاسيس حية منتعشة » . .

* * *

هى إذن رحلة صراع طويلة سبقت هذا الشعور الطيب بالسعادة والراحة والحرية . ولكنه شعور مهدد فى كل لحظة . لأن النور فيه لا ينفصل عن الظل ، والسعادة لا تخلو من الشقاء . فلا تكاد تمضى بضعة أسابيع على هذه الرسالة حتى نجد رسالة أخرى إلى نفس هذا الصديق يقول فيها : « . . . أحس منذ بضعة أسابيع أن رأسى يدور على نحو عجيب . آه ! أنت أدرى بهذا ، لأنك تطلع على نفسى حين أقول لك إن هذه المشكلة لا تنفك تلح على كلما ثابرت على كتمانها ، مشكلة أنّ لى قلبـًا وإن كنت لا أعرف هدفـًا لوجوده ، وأننى لا أجد أحداً أبوح له بسرى وأفضى إليه بما أجد . قل لى ، أهذه الوحدة التى كتبت علىّ ، نعمة أم نقمة ؟

ثم يواصل الشاعر حديث القلب إلى أن يقول هذه الكلمات : « اذكرنى إن ذهبت إلى فرانكفورت » . ونحن نعرف لمن تهفو نفسه فى فرانكفورت . .

هو الصراع إذاً بين نقيضين : بين ربيع الحرية التى يحس أنه يستريح على قمتها وبين محنة المتجول الوحيد الذى لا بيت له ولا وطن . ولقد باح للصديق بما يجد ، ولمس حد المأساة التى ستصرعه فى النهاية . ولكنه يكتب لأخيه [من أمه] فيحاول أن يكون أكثر تماسكـًا وتجرداً ، وإن لم يستطع مع ذلك أن يخفى عنه هول المأساة : « لقد تسلط علىّ الكفر بالحب الأبدى . وكان على أن أستدرج إلى هذا الإيمان الخرافى المخيف بما هو فى الواقع علامة على النفس والحب ، فإذا أسىء فهمه أصبح علامة على موتها . صدقنى أيها الحبيب ! لقد كافحت حتى أصابنى الإعياء المميت لكى أثبت الحياة العليا بالإيمان والرؤية . أجل ! لقد كافحت وأنا أعانى من ألوان العذاب ما يفوق فى النهاية كل ما تقوى إرادة الإنسان الحديدية على احتماله » . .

هكذا يفرق هلدرلين تفرقة صارمة بين سوء الفهم الذى يحيل الإيمان « بعلامة النفس والحب » إلى موت للحب الأبدى ، وبين الحياة العليا فى ظل الحرية التى يحققها هذا الحب الأبدى عن طريق الصراع الذى ينهك صاحبه إلى حد الموت . ولا بد أنه كان يتعذب بين هذين القطبين الأليمين عند ما راح يكتب أروع قصائده وأناشيده فى هذه السنوات القليلة التى كانت أنضج مراحل عمره . .

ولا بد أن محنة الوجود وإرادة الخلق قد تعاونا معـًا على تهيئة الشاعر لطاعة الشعر ، ووضعه فى خدمة روحه الملهم . ولا شك أن وجدانه الرقيق المعذب الباحث أبداً عن المطلق

قد أصبح مسرحًا لهذه الفورة الروحية النادرة . غير أنه لم يكد يشف وينفتح لاستقبال الحرية حتى بدأ يتفتت شيئًا فشيئًا تحت وطأة محنته الوجودية ، ولم يكد ينضج الثمرات العذبة حتى ذبلت جذوره فى الأرض العطشى إلى الحب والحنان . . كان عيد الربيع الذى تحمس له الشاعر هو عيد الكلمة . وقدم القربان فى هذا العيد الخالد قبل أن يهجم عليه شتاء الصمت والمرض والجنون . وليس فى مقدورنا أن نتناول فى هذا المجال كل زهور هذا الربيع وفواكهه — وقد أربت على خمس مرثيات وتسع قصائد وأغنيات رائعة نشأت كلها فى خلال سنتين عكف فيهما الشاعر على وحيه الملهم وانتزع من اللغة أقصى ما يمكن أن تعطيه — ولهذا سنكتفى بالإشارة إلى الأبيات الأولى من قصيدة واحدة تعد قمة هذه المرحلة وتاجها البديع ، وهى قصيدة باطموس * التى أشرنا إليها على الصفحات السابقة . وليس من الممكن أيضًا أن نقف عند أبيات هذه القصيدة الحافلة بالأسرار والألغاز التى تزخر بها أشعار هلدرلين فى هذه المرحلة المتأخرة من حياته ، بل يكفى أن نقرأها ونتركها تؤثر على قلوبنا ونقف أمامها كما نقف أمام ظاهرة معجزة تكاد تستعصى على التحليل . إن كل كلمة فيها تستريح فى ذاتها ، وتتجلى نقية طاهرة كأنها خلقت لأول مرة . وكل كلمة تحمل طاقة أكبر منها ، ومعنى أبعد من السياق الذى وضعت فيه . ولذلك فهى تكاد تقف وحدها كما قلت ، أشبه بنجوم القدر الذى يسير حياة الشاعر ومصيره وعبقريته . ومن العبث كما ذكرت أن نبحث عن معناها فى الجملة أو السياق ، إذ لا بد من البحث عنه فى إنتاج الشاعر كله :

« قريب
وعصى على الإدراك هو الإله .
لكن حيث يكون الخطر
تلوح كذلك النجاة ** .
فى العتمة تسكن النسور
وبلا خوف يعبر أبناء الألب
فوق الهاوية

---

* هى إحدى الجزر اليونانية فى بحر إيجه ، ويقال إن يوحنا اللاهوتى قد رأى فيها رؤياه المعروفة ..

** حرفيا : ينمو المنقذ .

على جسور خفيفة .
لهذا تتراكم حولنا
قمم الزمان ، وأحب الأحباب
يسكنون قريبا
منهكين فوق جبال متباعدة (*) ،
أعطنا إذاً أيها الماء البرىء ،
أيتها الأجنحة أعطنا
أن نعبر إليها بحس عميق الوفاء
ثم نعود .

ليس فى استطاعتنا كما قلت أن نقدر عظمة هذا الشعر إلا إذا وضعناه فى سياق العمل الكامل ، ونظرنا إليه كحجر فى معبد ضخم ، وهو أمر يخرج عن حدود هذا الكتاب الذى لا يريد إلا أن يكون تمهيداً لقراءة الشاعر والإلمام بمأساة حياته . ولعل هذه المرحلة المتأخرة من حياته أن تكون مفترق الطريق الخطر أو القمة الوحيدة التى بدأت عندها تتفتت وتنحدر إلى الهاوية . ولعله قد أحس بهذا فأخذ يتدبر مصيره ويفكر فى قدر حياته وشعره على السواء . إن هذه العبارة الموجزة تصور علاقته بشعره أدق تصوير :
« أردت أن أغنى الغناء الخفيف ، غير أنى لا أوفق أبداً إليه » . .

تمنى الشاعر أن يوفق إلى هذا الغناء الخفيف ، الغناء المتحرر من ثقل قدره وظلام وجدانه . أراد أن يكون الشعر « عيد الكلمة » ، أن يكون مرآة فرحته النقية العالية التى لا تعكرها قتامة قدره فى الحب والحياة . وأراد أيضاً أن يصل إلى هذه الفرحة نفسها ، إلى هذه الخفة المطلقة ، إذ كان الإحساس المطمئن فى رأيه هو الإحساس المرح ، وكانت خطوة الشجاع « الذى لا يخاف » تسير فوق « جسور خفيفة » . .

ولكنه لم يوفق إلى شىء من هذا . كان اليأس أكبر منه . ولعلنا نحمد الآن لهذا اليأس أن ألهمه أنضج شعره وأحفله بالمعانى والأسرار . ولم يكن هذا اليأس مجرد كآبة عبر عنها فى شعره أو نفس بها عن كربه [فنحن نظلم الشعر والفن بوجه عام لو قصرناه على هذه

* فسر هيدجر هؤلاء الأحباب الذين يسكنون فوق قمة جبلين متجاورين ومنفصلين بأنهم هم الشعر والفكر أو الأدب والفلسفة .. فليت الذين يصرون على الفصل بينهما أن يذكروا هذا التفسير !

المهمة !] بل كان قدراً مظلماً مميتاً صحب الشاعر فى كل حياته وشعره . ونحن نظلم الشاعر أيضاً لو حاولنا أن نفسر هذا القدر تفسيراً نفسياً أو مرضياً . فالعبارة التى أوردناها تبين كيف اتحد الشعر بالشاعر فلم يستطع أن ينفصل عنه ، وكيف اتحد الشاعر بالشعر فلم يكتبه، بل عاشه وكانه ، وخضع له وفنى فيه فناء العبد فى معبوده . لنستمع إليه وهو يتحدث إلى قوى السماء فى ختام أغنيته الجميلة « عند منبع الدانوب » :

أنت أيتها الأرواح الطيبة ، أنت أيضاً موجودة هناك[1] ،
غالباً ، عندما ترف السحابة المقدسة فوق إنسان
يصيبنا الذهول ولا ندرى كيف نفسر معناها .
أما أنتم فتمزجون[2] أنفاسنا بالنكتار[3] .
وعندئذ نفرح فى معظم الأحيان أو تفجأنا الحيرة ،
لكن إن أحببتم إنساناً حباً شديداً
فلن يجد الراحة حتى يصبح واحداً منكم .
لهذا ، يا أيها الطيبون ! التفوا حولى خفيفين
كى يتسنى لى أن أبقى ، فلم يزل بى شوق للغناء[4] .
أما الآن فتختم أغنيتى الطيبة النواحة
كأنها خرافة حب ،
وكذلك انقضى شأنى معها منذ البداية
بين الخجل والشحوب .
وكذلك ينقضى كل شىء .

* * *

والنزعة الصوفية الواضحة تغلب على هذه الأبيات . فالبشر الفانون لا يدرون كيف يفسرون ظهور السحابة المقدسة ، بعد أن تاهوا فى الأرض كالأيتام — كما تقول القصيدة

(١) إشارة إلى المقطوعة السابقة التى تتحدث عن أبناء السماء الأول أو أبناء القدر الذين تركوا لنا — نحن الجاحدين — آثارهم المقدسة ..

(٢) حرفيا : تتبلون .

(٣) هو شراب الآلهة .

(٤) حرفيا : فلم يزل على أن أغنى المزيد ..

نفسها فى موضع آخر – وفقدوا الإحساس بالوفاء للبطولة والألوهية والقداسة . والحيرة تفاجئهم وتصيبهم الدهشة والذهول – ربما لأنهم لم يتوقعوا ظهور القداسة على الأرض أو لأنهم نسوها وفقدوا الصلة بها. ولهذا تضيع الأغنية من الشاعر كما ضاعت منه منذ بدأ يحاول الغناء . ولهذا أيضًا يحس فى نفسه حاجة للمزيد من الغناء على الرغم من انقطاع أغنيته ، إذ لا تزال الأرواح الطيبة تناديه وتؤثر على حياة الإنسان لترده للطاعة والوفاء .

ولا يخفى على القارئ أن مثل هذا الشعر يصبح مستحيلا بغير الإيمان العميق . فهو مؤمن بأن الآلهة أو الخالدين أو الأرواح الطيبة تحب الإنسان حبًّا شديداً . ولقد عبرت عن حبها للشاعر نفسه بما احتمله فى سبيلها من عذاب قاس انتهى به إلى التسليم . فكل شىء طيب وخير ، والشاعر الذى فقد كل شىء حين فقد نعمة الحب لا يملك إلا الشكر – أى لا يملك إلا الشعر . والشعر هو سبيله الوحيد للتعبد والطاعة والوفاء . .

ولقد وهب هذا الشعر أو هذا الغناء الطيب الحزين كل حياته . فالشعر يجرى فى حياته جريان الدم فى عروقه . ولكنه كذلك يمر وينقضى . والشاعر يقف على الشاطئ ، يجرفه تيار النغم ويحس نحوه بالخجل والشحوب . . ربما لأنه عجز عن الغوص فى تيار الحياة فقنع بتيار الشعر الذى راح ينشده بين النشوة والبكاء . ويمضى التيار . وتتساقط الدموع التى كان يدخرها للحب . ولا يبقى له غير هذا العزاء : وهكذا ينقضى كل شىء . .

* * *

كانت محنته فى قلبه . أراد « الغناء الخفيف » فأثقل قلبه بالحب المحروم ، بمرارة الفقد والفراق وخيبة الأمل . لم يتعلق هذا الحب بشخص واحد ولا موضوع واحد . ولو اقتصر عليه لكان من السهل تعويضه أو التعزى عنه . .

بدأ هذا الحب مع « مليته » فى الشذرة أو الصياغة الأولى لروايته هيبريون ، فكانت هى « الوحيدة » . ثم أصبحت ديوتيما ، فى الخيال والواقع ، هى « سلام السماء » . وعبر ليل الحزن والمعرفة فتجاوز شخص الحبيبة ذات الأسماء المتعددة إلى المطلق . وتجسد هذا المطلق فى أواخر حياته فى شخص المسيح وعذابه وصعوده . وهنا أصبح المسيح هو « السلام المبارك » وهو « الوحيد » :

لكن الحب
يتعلق بواحد .

إذ أن الغناء
قد خرج فى هذه المرة
من صميم القلب ،
أريد أن أصلح الخطأ
حين أغنى لآخرين .
أبداً لن أجد المقياس
كما أتمنى .
لكن إلهًا يعرف
متى يأتى الخير الذى أتمناه .

فالقلب متعلق الآن بحب واحد ، أو هو يحاول هذا على الأقل . إنه يفور ويجيش فى باطنه ، ويريد لذلك أن يتعلق بموضوع واحد ، ويجد الحد والمقياس العدل فى الحب والشعر على السواء . وهو يعرف أنه طالما اضطرب وتمزق وتشتت ، ولهذا يحاول أن يجد الحبيب الوحيد الذى يتشبث به كطفل يتيم يفتش عن جدار يمكنه أن يستند إليه ليبكى ويبكى . إذن فقد أخطأ وأذنب ، وهو يعرف هذا ويعترف به ·

لكنى أعرف ،
إنما هو ذنبى
فيا شد ما أتعلق بك
أيها المسيح ! .

وجد الآن سيده ومعلمه . ولكن هل استراح ؟ إن روحه ما زالت مترعة بالحزن ، وكأن الآلهة قد آلت على نفسها أن تتركه فى الحيرة والعذاب :

سيدى ، مولاى
أنت يا معلمى !
لم بقيت بعيداً ؟
ولـمَّا أبصرت الأبطال والآلهة
بين الأرواح القديمة ،
لم غبت عنهم ؟

والآن روحى مفعمة بالكآبة ،
وكأنكم ، يا أيها السماويون ،
قد آليتم على أنفسكم
إن صليت لمعبود
أن أفقد معبوداً آخر .

غير أن هذه الحيرة نفسها ، هذا الوهج الباطن والجيشان الدائم الذى أنساه الحد والمقياس هو نفسه الذى أعطاه القدرة على الغناء . صحيح أنه اشتاق « للغناء الخفيف » فلم يوفق إليه . ولكن متى استطاع الشعراء أن يغنوا بغير بكاء ، ومن أين يأتيهم الشوق إلى الغناء الخفيف لولا الحزن الذى يثقل قلوبهم ؟ المهم بعد كل شىء أنه غنى ، وترك لنا فى هذه الفترة القصيرة — بين سنتى ١٨٠٠ و ١٨٠١ — أغنيات باقية تعبر عن شكره وطاعته ، أى عن تسليمه لقدر الحب والشعر . .

* * *

سافر هلدرلين فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٠١ إلى مدينة « بوردو » ليواصل مهنته البائسة فى تربية أبناء القنصل الألمانى المقيم فى ذلك الميناء الفرنسى على نهر الجارون . وقد أرسل قبل رحيله بأيام قليلة بضعة سطور إلى صديقه بولندورف تكشف كالبرق الخاطف عن رؤيته للقدر الذى يهيمن على حياته ، وإحساسه بالموت الذى يتربص بطريقه : « كنت فيما مضى من الزمان أستطيع أن أفرح وأهلل لحقيقة جديدة ، وأرى ما يمتد فوقنا وحولنا رؤية أفضل . أما الآن فإنى أخشى أن تكون نهايتى كنهاية تنتالوس* العجوز الذى أعطته الآلهة أكثر مما يطيق أن يهضم . غير أنى أفعل ما أستطيع ، بقدر ما أستطيع ، وحين أرى أننى سائر على الطريق الذى سيؤدى حتماً إلى نفس المصير الذى سينتهى إليه غيرى ، أحس أن من الكفر والجنون أن يبحث الإنسان عن طريق مأمون من العثرات ، وأن الموت لا يستعصى عليه شىء . والآن وداعاً يا صديقى الحبيب ! وإلى رسالة أخرى . قلبى الآن مفعم بالوداع » . .

والسطور تكشف كما ترى عن حزن عميق فاجع يعبر عن رؤية الشاعر لقدره ومصيره ،

---

* هو فيما تقول الأساطير اليونانية ملك الليديين الذى زارته الآلهة فأكرم ضيافتها بتقديم أعضاء ابنه « بيلوبس » لها . وقد غضب عليه كبيرها زيوس فقذف به فى ظلمات العالم السفلى وحكم عليه أن يجوع ويعطش إلى الأبد ...

وإحساسه بأن الطريق العسير الذى يخطو عليه لا بد أن ينتهى به إلى نهاية محزنة فاجعة . هذه الرؤية أو هذه الرؤى القاتمة التى يتصورها شاعر – يتحقق فيه معنى الرائى أو العراف القديم – تعبر عن تنبئه بانهياره الوشيك . فالعذاب الذى يتحمله والحياة التى يحياها بلا حب ولا أمل إلا فى ماض أسطورى ذهب ولن يعود ، تفوقان فى النهاية قدرة العقل البشرى . ولا بد فى النهاية أيضاً أن تسوقاه إلى حافة التمزق والدمار . .

ها هو ذا يتعذب ويتحمل ، ويفنى فى الشعر والخيال إلى الحد الذى يفقده الصلة بالأرض والواقع ، ويحاول أن يحافظ على نقائه وبراءته وحقيقته وسط صحراء الرؤى المميتة ، ويعبر عن هذا فى أبيات من قصيدة « الوحيد » التى قرأنا جزءاً منها على الصفحات السابقة :

صحراء زاخرة بالرؤى
هائلة على الدوام
وتغرى بالموت
بحيث يصبح البقاء
فى الحقيقة البريئة
عذاباً . . .

وطبيعى أن تنضم صورة الموت إلى هذه الرؤى . فهو يغرى الإنسان أو يغويه بالموت ، والموت عند شاعرنا يرادف البعد عن الحقيقة والبراءة ، أى التحلل من المطلق . ويبدو أن فكرة الموت كانت فى هذه الفترة مسيطرة على عقل هلدرلين ووجدانه . ويكفى أن نعيد قراءة السطور السابقة لنرى أنه يذكره مرتين ، مرة حين يقول إنه لا شىء يستعصى على الموت* ، وأخرى بالفراق والوداع . ولا يمكن أن تبتعد رؤيا الموت عن شاعر ظل يصارع قدره حتى أنهكه وأهلكه ، وظل يحيا حياته وعينه لا تكف عن التطلع إلى الصور الأولى والنماذج الخالدة للبطولة والقداسة والنقاء . ولا بد أنه عرف بوضوح ما يعترف به الآن فى رسالته إلى صديقه ؛ لا بد أنه عرف أن شبح الموت يحوم كنسور القدر القاتم فوق الرحلة العظيمة . وهل اختلف مصير الأبطال والشعراء العظام عن هذا المصير ؟ » . .

* * *

سافر هلدرلين إلى « بوردو » عن طريق ستراسبورج وليون ، ومعه جواز سفر يحدد

* حرفيا : ما من نبتة تستعصى على الموت أو تقف فى وجهه . .

شخصيته بأنه « أديب » . . وعبر طريقـاً موحشـاً تطل عليه أعالى جبال الأوفيرون المخيفة ، وتعصف به الرياح ، ويخيم عليه الليل البارد برودة الثلج . . وبجانبه مسدسه المحشو الذى يتحسسه باستمرار وهو يتقلب على فراشه الخشن . . ووصل إلى بوردو فى الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٠٢ . وجاءت أول رسالة منه وكلماتها تحمل ذلك الرنين المعدنى الذى نعرفه من أغنياته الطويلة المتأخرة . فقد عود نفسه على العيش الخشن واحتمل الدور المكتوب عليه . وجاءت رسالته التالية معبرة عن السكون الشامل الذى بدأ يطوى حياته ، فى لغة زجاجية تكشف على الرغم من سحرها وشفافيتها عن برادر الجنون التى أخذت تظهر عليه . فهو يطلب من أحبائه أن يذكروه ويفكروا فيه بالقدر الذى لا يزعج حياتهم . وهو يصارحهم بأن مشاغله العديدة وغربته عن الوطن ومسافة البعد التى تفصله عنهم تجعله ضنينـاً بالكتابة إليهم . (وواضح أن هذا البعد لم يكن بعداً جغرافيـاً فحسب . .) . .

ونحن نكاد نجهل كل شىء عن حياة هلدرلين فى « بوردو » . وكل ما نعلمه أنه نزل فى بيت القنصل الألمانى « دانييل كرستوف ماير » الذى كان يتاجر فى النبيذ إلى جانب عمله الرسمى . . وكان رجلا أنيقـاً ذكيـاً ، يعيش فى بيت فخم بنى على الطراز الكلاسيكى . وقد كتب هلدرلين إلى أمه عن هذا البيت فقال إنه يعيش فيه عيشة بالغة الأبهة والفخامة ، ويتمنى لو كانت حياته أكثر بساطة وهدوءاً . ولا بد أنه استمتع مع ذلك بالطبيعة الحالمة التى كانت تحيط به ، فعبر عن ذلك فى قصيدته المشهورة « ذكرى » التى تزخر بذكرياته على ضفاف الجارون وبين حدائق « بوردو » وغاباتها . ولا بد من قراءة هذه القصيدة لنستطيع الإلمام بتفاصيل البيئة التى عاش فيها الشاعر وعرض مشاهدها وانطباعاتها فى نفسه كما يعرض طفل مجموعة من الصور التى تسجل ألعابه الحلوة البريئة :

تهب ريح الشمال ،
أحب الرياح إلى نفسى
لأنها تعد الملاحين
بالروح المشبوبة والرحلة الطيبة .
لكن اذهب الآن
وحى « الجارون » الجميل
وحدائق بوردو ،
هناك حيث يمتد الطريق

على الشاطئ الوعر
وينحدر الجدول
إلى أعماق النهر ،
أما من فوقه
فيطل زوج نبيل
من أشجار البلوط والحور الفضية .

ما زلت أذكر هذا
وكيف تحنى الغابة
ذراها العريضة فوق الطاحونة ،
أما فى الغابة فتنمو شجرة تين .
أما فى أيام الراحة
فتمشى النساء السمراوات هناك
على أرض من حرير ،
فى فصل الربيع *
عندما يتساوى النهار والليل ،
وفوق الممرات البطيئة
ترف الأنسام .
مثقلة بالأحلام الذهبية .

فلتمتد إلىَّ يد
بالكأس العطرة
المترعة بنور مظلم
علِّى أجد الراحة
ما أحلى النوم
تحت الظل .

---

* حرفيا : فى شهر مارس .

ليس حسنًا
أن تحيا بلا روح
وتستحوذ عليك الخواطر الميتة .
لكن الحديث حسن
والإفضاء برأى القلب ،
والإنصات إلى الأخبار الكثيرة
عن أيام الحب ،
وما تم من الأعمال .

لكن أين الأصحاب ؟
أين بيلارمين [1] ورفاقه ؟
أكثر الناس يمنعهم الخجل
من الذهاب إلى النبع ،
لأن الثراء
يبدأ فى البحر .
إنهم كالرسامين ،
يجمعون جمال الأرض
ولا يزدرون الحرب المجنحة ،
ولا الحياة لأعوام طويلة
وحيدين تحت الشراع الجاف [2] ،
حيث لا تسطع أعياد المدينة فى الليل
ولا أنغام الأوتار ولا الرقص القومى .
أما الآن فقد ذهب الرجال
إلى الهنود ،

---

(١) بيلارمين هو الصديق الألمانى الذى كتب له هيبريون قصته فى مجموعة من الرسائل الشاعرية ..

(٢) أى العاطل من أوراق الشجر .

هناك على القمة التى يرف حولها الهواء
بين التلال التى تغطيها الكروم ،
حيث ينحدر « الدوردونى »[1]
وينسكب التيار عريضًا كالبحر
مع الجارون الرائع .
لكن البحر يهب الذكرى ويستردها ،
والحب كذلك يثبت أعيننا ،
أما ما يبقى فيؤسسه الشعراء .

* * *

لم يكد هلدرلين يمضى أربعة شهور فى « بوردو » حتى فكر فى العودة إلى وطنه . ولم يكتف بالتفكير فأخرج فى اليوم العاشر من شهر مايو (١٨٠٢) جواز سفر لرحلته . ولسنا ندرى شيئًا محدداً عن سبب عودته المفاجئة . أكان هو الإخفاق من جديد فى مهمته التربوية التى لم يخلق لها بطبيعته بل أجبرته عليها لقمة العيش المرة ؟ أم ألوان أخرى من الذل التى لم يحتملها قلبه الجريح ؟ أم ضيقه بالمسكن الفخم الذى جعله يحن للوحدة والبساطة والسكون ؟ أم هى أخبار وصلته عن مرض حبيبته الطاهرة التى لم تنقطع عنه رسائلها على الرغم من الفراق الحاسم الأخير ؟ — لسنا ندرى شيئًا كما قلت . صحيح أن هناك من يفسر رحيله بأسباب تتصل بكرامته وكبريائه ويذهب إلى أنهم هناك فى بوردو قد « فرضوا عليه بعض المطالب التى عجز عن الوفاء بها أو وجدها جارحة لشعوره » ، ولكنها كما ترى فروض لم تتحقق حتى الآن . والمهم أنه عبر الحدود الألمانية الفرنسية عند مدينة كيل * فى اليوم السابع من شهر يونية على قدميه ، ثم لم يلبث أن ظهر بعد ذلك بقليل فى مدينة شتوتجارت ولفت الأنظار بملامحه المرتبكة وغضبه العارم وحالته التى تنم عن الجنون واليأس الفظيع . وفهم منه الناس أن اللصوص سطوا عليه فى الطريق ، أو أنه أصيب بضربة شمس وهو يخترق الجنوب الفرنسى الحار . ولكن الكارثة كانت قد بدأت بالفعل ..

---

(١) نهر فى جنوب غرب فرنسا يبلغ طوله ٤٩٠ كيلو متراً ويلتقى بنهر الجارون عند رأس أسبيس ..

* مدينة Kehl فى مقاطعة « بادن فرتمبورج » وتقع فى مواجهة مدينة ستراسبورج الفرنسية . وهى غير مدينة « كيل » على بحر الشمال ..

« من الكفر والجنون أن يبحث المرء عن طريق مأمون من كل العثرات » . هكذا كتب قبل بداية رحلته الكبرى إلى صديقه بولندورف . ولقد قرأنا سطوراً من هذه الرسالة ورأينا كيف تقمصته روح الشاعر العراف الذى انكشفت له حجب الغيب فى لمحة خاطفة . فقد تحدث فيها عن الجنون والموت . ولكنه حديث المؤمن الذى يعتقد أن من الكفر وجحود النعمة أن يرفض السير على طريق حددته له السماء من قبل . إن عليه أن يقطع هذا الطريق مهما انتهى به إلى الجنون أو الموت . بل إنه يعلم أن الجنون والموت ينتظرانه فى نهايته . ولكن لا مفر من السير عليه ، لأن هذا هو واجب الطاعة والخضوع الذى لا يوجد واجب أسمى منه . ولقد كتب يقول أيضًا فى هذا الخطاب إنه قد تعود على الحياة الخشنة وأصبح مستعدًّا لما يأتى به المستقبل . فهل معنى هذا أنه استعد للحادث العظيم والكارثة المخيفة ؟ لا بد أنه أحس بهذا . فحديثه عن الموت فى هذه الرسالة ، وقوله إن قلبه مفعم بالفراق، يدلان على أنه كان ينتظر شيئًا أكبر من طاقته وقدرته . . ولكنه انتظار الرضا والاستسلام . . لقد ظهرت عليه بوادر الجنون الذى تمكن منه بعد ذلك بأربع سنوات . وتفتتت شخصيته مزقًا متناثرة ، وفقدت الوسط والمركز والرباط الذى يوحد بينها . تكسرت سفينة العبقرية على صخرة اليأس والجنون ، وتحولت إلى حطام لا يستطيع أن يحمل فكرة أو عاطفة . أما الموت فقد أخطأه فى هذه المرة وأصاب حبيبته . . ولكن هل أخطأه حقًّا وهو الذى فنى فيها واتحد كيانه بكيانها ؟

* * *

ماتت « سوزيته جونتار » فى نفس الوقت الذى فقد فيه هلدرلين عقله أو كاد . انتهى صراعها القصير مع السل فى الثانى والعشرين من شهر يونية سنة ١٨٠٢ . وظهر هلدرلين قبل ذلك بحوالى أسبوعين « بملامح مرتبكة » فى مدينة شتوتجارت . . هل كانت هنالك صلة بين الحادثين ؟ وهل يمكننا أن نربط بينهما كما نربط بين السبب والنتيجة ؟ إن مأساة الموت أو مأساة الجنون أكبر من أن ننظر إليها هذه النظرة العلمية أو شبه العلمية . إنها سر من أسرار الحياة تعجز الأسباب والنتائج عن إدراك حقيقته . وكل ما نملك حياله هو أن نشعر بما فيه من عذاب الإنسان وجرحه وانكساره . وماذا عسى أن تفعل الحجج والأسباب أمام القلب الذبيح والعقل الجريح ؟ ماذا يملك العلم أمام السر ؟ . .

« كنا زهرة واحدة لا غير . . عاشت روحانا فى كيان واحد . . » هكذا يقول هلدرلين فى روايته هيبريون . فهل يدهشنا بعد هذا أن يكون الموت قد أصابه حين أصاب حبيبته ؟

وهل كان الجنون الذى بدأت نيرانه تلتهم عقله إلا نوعاً من الموت ؟ وهل هذا الذى جرى له ولحبيبته إلا تحقيق الرؤيا التى رآها قبل ذلك بشهور معدودة ؟ . . كان هلدرلين قد اتحد بالفكر والروح والشعور بحبيبته إلى حد الفناء الذى يعرفه شهداء العشق فى كل العصور . وكل كلام عن هذا الاتحاد يفسده ويفقده معناه . وكل شرح يصبح ثرثرة سخيفة من النوع الذى تفوق فيه عصرنا إلى حد مخيف . لا بد إذاً أن نحس به . وليس أمامنا إلا أن نفعل ذلك إن استطعنا ، فهذا هو السبيل الوحيد للشعور بعذاب الإنسان خلف قناع الموت أو الجنون . ويكفى أن إحساس هلدرلين بفنائه فى شخصية حبيبته قد وصل إلى تلك الدرجة التى يصفها علماء النفس كما يصفها المتصوفون فى آخر الطريق . ويكفى أن الشاعر سئل عن « ديوتيما » وهو فى الواحد والسبعين من عمره (أى وهو فى قمة جنونه وقبل موته بسنتين) فقال : لقد أصابها الجنون » . . .

* * *

كان لقاء هلدرلين بالموت من وحى إلهامه كشاعر وهب حياته للشعر وحده . وقد يبدو هذا شيئاً بعيداً عن العلم قريباً من الخرافة ، ولكن لا بد من التسليم به ونحن إزاء شاعر كبير مثله . . وفى كل شاعر كبير شىء من العراف القديم الذى يحس بالغيب ويتنبأ بالقدر . . .

ومع ذلك فهناك من يقول إن للصدفة دوراً فى هذا اللقاء . وهناك من مؤرخى حياته من يرجح أن يكون قد تلقى رسالة من سوزيته أثناء وجوده فى « بوردو » تخبره فيها بمرضها الأخير ، وتودعه وداع من يشعر أن الموت قريب منه . ولقد قال بهذا الرأى شقيقه من أمه « كارل جوك » الذى أرخ لحياته . ثم تشكك الدارسون فى هذا الرأى بحجة أن سوزيته لم تمرض بداء السل إلا عشرة أيام قبل موتها . ثم تبين بعد ذلك للباحثين أنها قاست من هذا الداء شهوراً طويلة . ومهما يكن الأمر فى هذه المسألة فقد أبلغ هلدرلين بوفاة حبيبته فى الأيام الأولى من شهر يوليو سنة ١٨٠٢ على لسان صديقه « إسحق فون سنكلير » الذى قال له فى خطابه إليه : « إننى أبكى وأنا أكتب إليك بهذا النبأ » . .

عاش هلدرلين السنتين التاليتين فى تمزق وانهيار . وبدأ الموت البطىء يفترس عقله وقلبه ، وينخر هيكله المحطم قبل حلول الكارثة الفظيعة . ومع ذلك فقد أتيح له فى أيام أو ساعات قليلة أن يجمع نفسه ويلم شتات عبقريته . واستطاع فى هذه الأيام والساعات النادرة أن يكتب أغنياته الأخيرة أو على الأصح ما بقى منها من شذرات لم تتم . .

والمتأمل لهذه الأغنيات والترانيم يكتشف أن علاقة الشاعر بالشعر قد تغيرت عما كانت عليه . كنت تحس فى أشعاره السابقة بأنه متحكم فى مادته وصوره وأفكاره وأنغامه ، وأن هنالك « ذاتا » تنظم وترتب وتبنى . أما الآن فأنت تحس أن هذه الذات قد فقدت السيطرة على مادتها وأن الصور والأشكال والخواطر والأنغام تتحكم فيها وتستغلها أداة للتعبير عن نفسها ، بدلا من أن تتحكم هى فيها وتعبر بها . لقد أصبح الشاعر موضوعًا لها — إن جاز أن نستعير هذه الكلمة من لغة الفلسفة — كما أصبح موضوعًا لقوى أخرى أكبر منه تعمل عملها على نول القدر والوجود :

لأن قوى هائلة
تتجول فوق الأرض ،
ويهيمن قدرها
على من يكابده ويراقبه ،
كما يهيمن على قلب الشعوب .
لأنه لا يقدر أن يحيط بكل شىء
إلا نصف إله أو إنسان ، بحسب عذابه ،
عند ما ينصت وحده ،
أو عند ما يتحول هو نفسه ،
إذ يحس خيول الرب من بعيد .

ولا يقتصر الأمر على تغير الذات وحيرتها وتفتتها ، بل يتعداه إلى الموضوعات التى يطرقها الشاعر . فقد كانت الأغنيات أو الترانيم أو التراتيل * التى كتبها فى المرحلة التى بلغ فيها ذروة نضجه الفنى تدور حول مبدأ أعلى ينظم كل شىء ويرعاه رعاية الأب لأبنائه . وكانت موضوعاتها الرئيسية تدور حول شخصية هرقل أو المسيح أو حول الروح والكلمة . ثم تحولت فى المرحلة المتأخرة التى نتحدث عنها إلى مبدأ أو قوة أخرى أسطورية ذات طابع أمومى . فهناك

---

* ليس هناك ترجمة دقيقة لكلمة Hymne فى اللغات الأجنبية . وقد كانت فى الأصل قصيدة تغنى بمصاحبة الموسيقى فى مدح إله أو بطل ، ومن أشهرها ٣٣ قصيدة تنسب إلى هوميروس فى الثناء على ديونيزيوس وديميتر وأبوللون وهيرميس ، وست لكاليماخوس وقصائد بندار المشهورة فى الثناء على الفائزين فى الألعاب الأوليمبية ، وكذلك قصائد هوراس . وقد ظلت محتفظة بطابعها الدينى والحماسى ثم دخلت عليها بعد ذلك مضامين جديدة مختلفة مع تغير العصور الأدبية ..

الهاوية المظلمة العميقة . وهناك المملكة الساكنة ، المادونا أو العذراء المقدسة . وهناك الوطن . ونلمس فى كل هذه الموضوعات روحًا شفافة هامسة، تدير حديثًا خافتًا عذبًا مع الأم الأولى ، مع الأرض ، ونحس فيها شيئًا أشبه بعودة البطل إلى بيته ووطنه من غربة بعيدة . تقول أغنية « الوطن » ، وهى إحدى هذه الشذرات التى ترك الشاعر بعض أبياتها ناقصة :

ولا أحد يدرى

ثم ينقطع الكلام قبل أن يتصل بعد ذلك بقليل :

لكن دعينى أتجول
وأقطف التوت البرى ،
كى أطفئ حبى لك
على دروبك ، يا أيتها الأرض
هنا حيث . . .

وينقطع الكلام مرة أخرى ثم يقول :

وأشواك الورد
والزيزفون الحلو ينشر عبيره
بجوار أشجار الزان ،
فى وقت الظهيرة
عندما يهمس النماء فى حقل القمح المصفر الشاحب
للأعواد المستقيمة
وتحنى السنبلة عنقها جانبًا
لما يفعل الخريف ، أما الآن فتحت قبة السنديان العالى
حيث أتفكر وأتطلع بسؤالى للسماء ،
ترن فى سمعى من بعيد دقات الناقوس
الأليفة إلى نفسى رنينًا ذهبيًا
فى الساعة التى يصحو فيها الطائر .
عندئذ يطيب كل شىء . . .

* * *

ويلاحظ القارى أن الجملة الأخيرة فى القصيدة الزاخرة بالصور الحية الملموسة تعبر عن روح متدينة ترحب بكل شىء وتثنى على كل شىء . ولن يغيب عنه أيضاً أن مثل هذه الروح التقية المستسلمة لا تخلو من الإحساس بسلطان الموت . ولقد رأينا كيف عبر الشاعر عن هذا الإحساس القاتم المضىء فى قصيدة الذكرى التى قرأناها على الصفحات السابقة أجمل تعبير وأصفاه حين قال :

فلتمتد إلىّ يد
بالكأس العطرة
المترعة بنور معتم
فلعلى أجد الراحة .
ما أجمل أن يحلو النوم
تحت الظل . . .

* * *

يبدو أن وطأة الإحساس بالموت والفناء قد اشتدت على الشاعر فى هذه السنوات التى تلت وفاة حبيبته فخنقت قدرته على الخلق أو كادت . ولذلك وجد متنفسه فى ترجمته الرائعة لمسرحيتى سوفوكليس « أوديب » و « أنتيجونا » التى كان قد بدأها مع نهاية القرن . وهى ترجمة رائعة تعد من درر اللغة الألمانية ، ولا يقلل من روعتها أنها بعيدة عن الترجمة الحرفية والعلمية الدقيقة ، لأنها ستظل أثراً باقياً من آثار الترجمة الخلاقة التى لا يقدر عليها إلا الأدباء والشعراء الكبار . ولذلك جاءت أخطاؤها أخطاء رائعة ، لأنها خرجت من يد شاعر كبير ، ولأنها فى مجموعها خلق جديد لا ترجمة حرفية دقيقة . وقد قدر لهذه لترجمة أن تجد ناشراً جريئاً سخياً فى كرمه ونبله ، وهو « فريد ريش فيلمانس » الذى لم يمنعه بؤس الشاعر وظلم الحياة الأدبية له من طبع ترجمته التى ظهرت فى مدينة فرانكفورت سنة ١٨٠٤ . والمجال لا يتسع لمناقشة هذه الترجمة الخالدة التى تعد جزءاً لا يتجزأ من أدب هلدرلين وشخصيته وحنينه إلى عالم أسطورى جميل وجليل . ولعل الأيام أن تسعفنى بالحديث عنها وعن أثر الفكر والأدب اليونانى على شاعرية هلدرلين وأسلوبه وخياله ومثاليته . . .

* * *

يبدو أن هلدرلين وصل فى هذه الفترة من حياته إلى حال مؤلمة من الاختلاط والفوضى

العقلية والنفسية. تشهد على هذا رسالة كتبها الفيلسوف « شيلنج » فى الثانية والسبعين من عمره وراح يتذكر فيها اللقاء المحزن الذى تم بينه وبين الشاعر المسكين فى ربيع سنة ١٨٠٣ . فقد سعى الشاعر إليه وعبر المسافات الطويلة على قدميه ليراه ، وكأنما ساقته غريزته أو صداقته القديمة للفيلسوف الصوفى الكبير . . . كان لقاء حزينًا كما قلت ، أقنع الفيلسوف العجوز بأن « هذه الآلة الموسيقية ذات الأوتار الرقيقة » قد اختلت إلى الأبد. كان شيلنج كلما عرض لفكرة أو شىء يتعلق بحياتهما الماضية وجد منه الجواب الصحيح ، ثم لا يلبث الخيط أن ينقطع ، ويضطرب كلام الشاعر ويغمغم بحديث لا يفهم . ومع ذلك فقد تأكد للفيلسوف — كما يشهد بنفسه — أنه أمام عبقرى لم يفقد شيئًا من فطرته النقية ولا رقته الأصيلة . ولقد لبث هلدرلين ستًا وثلاثين ساعة فى ضيافته فلم يصدر من سلوكه أو حديثه ما يناقض خلقه النبيل أو جوهره النقى الذى عرفه فى شبابه الباكر* . . .

أما صديقه القديم « إسحاق سينكلير » فقد أسرع لنجدته ، وبذل أقصى جهده ليرد إليه إيمانه بنفسه وينقذه من الجنون الذى يتهدده . فقد جاء به فى صيف سنة ١٨٠٤ إلى مدينة هومبورج وسعى لدى أميرها الحاكم لتعيينه أمينًا لمكتبته وتعهد أن يدفع راتبه من جيبه ، لكى يوفر له الحياة التى تعينه على الخروج من محنته . . .

وكانت طريقة الحياة فى بلاط الأمير « الناسك فريد ريش » — كما لقب نفسه ذات مرة — شيئًا غير مألوف فى ذلك الحين . فقد كان فى أعماقه رجلا زاهداً يؤثر العيش مع أفكاره النقية التقية على الحياة بين مشاغل السياسة والحكم . وكان كل من يقترب منه — كما يروى واعظ بلاطه بريدنشتين — يضطر إلى طاعته والثناء عليه ، وكل من يراه ينحنى أمام عظمته وهيبته . كان يشع من هيئته وملامحه ذلك السحر الآسر الذى ينم عن الانتصار على كل المشاعر المنحطة والانفعالات الدنيئة . وليس غريبًا على مثل هذا الأمير الناسك أن يترك الحكم لزوجته الباهرة الجمال . أما ابنته « أوجستا » فكانت أشد منه حياء وانطواء — ويظهر أن لقاءها بالشاعر البائس الرقيق قد فجر فى صدرها عاطفة عميقة لم تكاشفه بها أبداً . وقد شهدت فى وصيتها بأن ظهوره فى حياتها كان بمثابة الصحوة التى أيقظتها من سباتها وجعلتها تتطلع إلى وجود أسمى . ولكن جو التدين العميق الذى كانت تعيش فيه ، وحرصها على التقوى والصلاح إلى حد التشدد قد جعلها

---

* نشرت رسالة شيلنج فى الكتاب السنوى الذى أصدرته جمعية هلدرلين سنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ص ١٢ .

تكتم عاطفتها وتقسو على مشاعرها . ومن يدرى ؟ فلعلها لو أبدت له شيئاً من الاهتمام أو باحت له ببعض ما تجد نحوه لأعانته على الخروج من محنته . ولكن أمثال هذه المعجزات نادر فى حياة الموهوبين المساكين ، إذ يبدو أن دائرة تعاستهم لا بد أن تكتمل ! . . .

ويظهر أن هلدرلين قد لقى من عطف الأمير فوق ما كان يتوقع أو يتصور ، فعبر عن شكره له فى قصيدة أهداها إليه تعد من أروع قصائده إن لم تكن أروعها — وأصعبها أيضاً — على الإطلاق ، وهى قصيدة « باطموس » التى قدمت لك بعض مقاطعها . . .

أما عن حياته فى بلاط أمير مقاطعة « هسّن » الزاهد فلا نعرف عنها شيئاً كثيراً . غير أن ظواهر الأمور وروايات الشهود توحى بأنها كانت حياة بائسة يلفها ظلام المحنة من كل ناحية . ومع ذلك فيبدو أنها لم تخل فى أحلك لحظاتها ظلاماً من آثار تدل على رقة الشاعر وفطرته النقية وصمته ووحدته المؤثرة . ولدينا رواية مشهورة سجلتها الكاتبة الرومانتيكية الرقيقة « بتينافون أرنيم » زوجة الشاعر الكاتب الرومانتيكى المشهور « أخيم فون أرنيم » عند ما رأته وهى لم تكد تبلغ العشرين . والسطور القليلة التى كتبتها « بتنيا » تعبر عن روح هلدرلين و فكره أكثر مما تعبر عن حياته فى ذلك الحين . وهى تشهد بأثره على نفسها ، وتكاد تشهد أيضاً بأثر شعره على كل من يقرأه : « كل شىء إيقاع . قدر الإنسان كله إيقاع سماوى واحد ، وكذلك فإن كل عمل فنى إنما هو إيقاع واحد فريد ، وكل شىء يرف أمام شفتى الرب الشاعريتين ، وحيثما امتثل الروح الإنسانى لهذا نشأت تلك الأقدار الملهمة التى يتجلى فيها روح الفن » . . .

* * *

ساءت حال هلدرلين وظهرت عليه علامات الجنون الواضح . وأسرع إليه الصديق الوفى سينكلير فنقله فى شهر سبتمبر ١٨٠٦ من هومبورج إلى مدينة توبنجن وأدخله المصحة ليعالج تحت إشراف الطبيب أوتنريت وتلميذه يوستينوس كيرنر . وكان يتردد عليه نجار ماهر « إرنست تسيمر » عرف فى مدينة توبنجن بحبه للثقافة والأدب والشعر . ويبدو أن هذا النجار المثقف الطيب القلب كان يحب هلدرلين حباً دفعه إلى أن يأخذه إلى بيته فى صيف سنة ١٨٠٧ ليرعاه بنفسه . قال له الطبيب وهو يسلمه له إن المريض ميئوس من شفائه ولن يعيش أكثر من ثلاث سنوات . . فهل قدر هذا النجار الطيب أن المريض « الميئوس من شفائه » سيعيش فى بيته وتحت رعايته ستا وثلاثين سنة أخرى قبل موته ؟ أى نصف حياته الأخيرة الذى قضاه فى ليل الجنون المقدس ؟ . . .

لا بد أن المريض المسكين قد أحس بهذا الليل الذى سيحاصره من كل جانب ويمنع عنه النور الحبيب . فها هو ذا فى قمة يأسه ومرضه يكتب مجموعة من القصائد يسميها « أغنيات الليل (١٨٠٣) » . وها هو ذا يناجى النور — وقد كان دائمًا عزاءه الوحيد وصاحبه الذى يسير دائمًا إلى جانبه وهو مستغرق فى التفكير — ويسأله أين أنت ؟ وإذ يغيب النور ولا يطل بوجهه من الخارج ولا من الباطن يجلس وحده فى صمت وسكون وينتظر وينتظر . . لعل « المنقذ الحبيب » أن يلوح له من بعيد :

أين أنت أيها النور ؟
القلب صحا من جديد ، لكن الليل الجبار
يشدنى بلا قلب على الدوام . . .
الآن أجلس وحدى فى سكون
وتمتد بى الساعات ،
— ولأن السم بيننا —
تخلق أفكارى أشكالا
من الأرض الغضة ومن سحب الحب ،
وأمد سمعى بعيداً
علّ منقذاً عطوفًا يقبل نحوى* .

* * *

فهل جاء هذا المنقذ العطوف ؟
هل أخلف وعده أم أتى كعادته فى موعده ؟ !

* * *

* عن قصيدة «خيرون» من « أغنيات الليل » التى كتبها حوالى سنة ١٨٠٣ . وأخيرون نهر فى العالم السفلى أو عالم الموتى والظلال يرد ذكره فى الأساطير اليونانية..

الصامت

« الحياة موت ، والموت أيضاً حياة »
(عن مقطوعة نثرية كتبها فى سنوات جنونه)

هلدرلين المسكين . .

هكذا سماه الناس من حوله . . وبهذا شهدت أقوالهم وذكرياتهم عنه . .

قدر عليه أن يتوه ستة وثلاثين عاماً فى صحراء الجنون ، أن يجرب الموت فى الحياة والحياة فى الموت . . حتى حن عليه فمنحه الخلاص الأخير فى اليوم السابع من شهر يونية سنة ١٨٤٣ . .

وتتفق أقوال الشهود فى أمور كثيرة . فهم يجمعون على أن صاحب الوجه الآسر الجميل أصبح شبحاً يتجول فى بيت النجار الطيب كالحالم أو كالنائم أو كالميت . وكل الذين رأوه أو حاولوا التحدث إليه وجدوه لا يكف عن الكلام مع نفسه ، وآلمهم حرصه على أن « يظل بعيداً عن كل إنسان يحاول الاقتراب منه » .

وأفاض المعاصرون فى الكلام عن جنون الشاعر ووحدته وهدوئه واستسلامه . وكتب اثنان * منهم سيرة حياته فزحموها بالوقائع والتفاصيل ، وأكثروا من الحديث عن مظاهر المرض وأطواره . واختلط الحق بالباطل ، والحقيقة بالخيال . وأصبح الشاعر العظيم « حالة » مرضية فى تاريخ الأدب ، حتى أنقذته البحوث الجادة فى الخمسين سنة الأخيرة فقدرته واكتشفته وعرفت منزلته ، وأوشكت أن تجعل منه (بعد جوته !) أكبر عبقرية نطقت بالشعر فى تاريخ لغته وأمته . .

* * *

* إشارة إلى أول من كتب سيرة حياة هلدرلين وهما صديقه الشاعر الشاب الموهوب فيلهلم فايبلنجر (١٨٠٤ — ١٨٣٠) الذى تأثر به وأخذ عنه هيامه بالروح اليونانية والكلاسيكية ، وكرستوف تيودور شفاب (١٨٢١ — ١٨٨٣) الذى كان أشبه بالنحلة النشيطة التى تجمع الأخبار من هنا ومن هناك ، بحسن نية تحسد عليها ! . والكاتبان يقعان فى أخطاء المبالغة الشديدة والتحمس المؤذى . .

هناك عدد لا بأس به من الصور والرسوم والنقوش البارزة من الشمع التى تعطينا فكرة عن مظهر الشاعر فى محنته الطويلة . غير أن تقديرنا لموهبته وعبقريته أكبر من أن يجرفنا للحديث عن تفاصيل مرضه وعذابه . وإن كان هذا لا يمنع من تسجيل بعض الشواهد التى تدل على عبقريته الذابلة أكثر من دلالتها على مرضه أو شذوذه . .

فنحن نخرج من تأمل صوره وذكريات معاصريه بإعجاب لا حد له بجبهته العالية المثقلة بالخواطر والهموم — وما أكثر مشروعاته الأدبية التى صرعها المرض وبقيت أشباحها تطارده — ولعل هذه الجبهة الشامخة أن تكون شاهداً على الثروة الفكرية الهائلة التى كانت تزدحم بها ذات يوم . أما عيناه المعبرتان فلم يمح الجنون شيئاً من بريقهما وصفائهما ، وإن أضفت عليهما الفجيعة هدوءاً وانكساراً واستسلاماً يجرح القلب . يقول أحد الشهود بعد أن رآه : « لم يسبق لى أن رأيت أجمل من هاتين العينين فى وجه إنسان فان » . وليس هناك أصدق من هذه الكلمات تعبيراً عن مأساة الشاعر التى تجلت فى نظرته الكسيرة الحائرة . لقد فقد كل قدرة على تجميع الفكر وتركيزه ، فازدادت نظرته مع الزمن جموداً ، وسبحت فى تيه الغيب المظلم البعيد . .

وعلى الرغم من إعيائه النفسى والجسدى . وتفكك أفكاره ، وغموض كلامه ، وعنائه فى البحث عن الكلمة ، وانصرافه الساعات الطويلة إلى تأمل السماء فى الليالى القمرية من النافذة ، فقد أعجب كل من رآه أو تحدث إليه بسمو فكره ، ودهش لأصالة تعبيره ونقاء روحه ، وأحس بوحدته العميقة المخيفة التى جعلت الاتصال به مستحيلا ، وحبسته بين جدران وجدانه أشبه بالميت يرقد فى تابوت ، أو لؤلؤة نائمة فى جوف محار أو صدفة . .

* * *

راح الشاعر يتجول فى ليل الجنون المظلم كمن يحلم حلماً مخيفاً ويسير فى نومه بعيون مفتوحة . وكان جنونه الطويل أشبه بموت طويل . ويبدو أنه أسلم نفسه للموت قبل أن يأتى إليه ويأخذه ، واتحد بالطبيعة الإلهية قبل أن يرجع إليها ويذوب فيها بجسده وروحه . ولعله قد عمل بوصية « إمبادوقليس » لأهل مدينته ، فى الفصل الثانى من مسرحيته عن موت هذا الفيلسوف الشاعر والساحر اليونانى القديم . .

وصمت الشاعر صمته الطويل عند ما أحس — كما أحس إمبادوقليس — بأن الطبيعة الإلهية الحاضرة أبداً لا تحتاج للكلام . ولعله قد صمت عندما أحس أيضاً أنه قال كل

ما أرادت الروح أن تقوله على لسانه. وأعلن النبوءة التى أوحت بها الآلهة إليه : « لا بد أن يذهب من تكلمت الروح من خلاله » . . هكذا قال فى مسرحيته . فهل كان مصيره عقاباً له على الإفشاء بالسر المقدس كما كان مصير الحلاج* ، أم كان جزاء له على صبره وشجاعته ؟ هل أسرف فى حبه للآلهة أم بالغ فى التشبه بهم والتطلع إلى حياتهم الخالدة فحق عليه ما قاله هو نفسه على لسان الكاهن « هرموقراطيس » فى حديثه عن عدوه إمبادوقليس** :

لقد أحبته الآلهة حباً شديداً ،
ومع ذلك فليس أول من ألقوه
من ذروة ثقتهم واعتزازهم
فى ليل بهيم جامد الإحساس .
لأنه أسرف على نفسه فى أوج سعادته
فنسى الفارق بينهم وبينه
ولم يشعر إلا بنفسه .
هذا ما كان من أمره
ولذلك عاقبته بالفراغ الذى لا حد له . . .

ولكن هل أسرف هلدرلين فى حبه للآلهة والطبيعة والأبطال الخالدين أم أسرفت هى فى حبه ؟ لقد تبتل لها وظل يقدم لها القربان تلو القربان ، وظلت هى تطالبه بالمزيد من التضحية حتى لم يبق إلا عقله وحياته فلم يبخل بهما . فهل كانت هذه التضحية هى الثمن المحتوم الذى يفرضه الحب اللامتناهى ؟ هل هذه هى نهاية الوفاء المطلق والإخلاص المطلق والعطاء إلى حد الفناء ؟ . .

مهما يكن من شىء فقد وجد نفسه وحيداً فى النهاية . .

وراح يتخبط فى ظلام الجنون ويستغيث بالآلهة كما استغاث بطله الوحيد الطريد إمبادوقليس :

---

* كما قال الحلاج نفسه فى كثير من نصوصه وفى ضراعته المؤثرة قبل صلبه بقليل، وكما فسّره شاعرنا صلاح عبد الصبور فى مسرحيته المشهورة . .

** وردت الأبيات فى الفصل الأول من الصياغة الأولى للمسرحية . .



هلدرلين فى الخامسة والخمسين من عمره

(من رسم يوهان جورج شرينر)

أأنا الآن وحدى تماماً ؟
وهل ينتشر ظلام الليل فى وضح النهار ؟
إن الذى رأى أبعد مما رأت عين إنسان فان
والذى أصيب بالعمى يتخبط الآن هنا وهناك
أين أنت يا آلهتى ؟
أتتركيننى كالشحاذ ؟

* * *

هكذا كان صمته الطويل أجل وأعظم من كلّ كلام قاله .

كان السكون يتنفس من كيانه الجميل الذابل ومن كل ما حوله . ولم يخل هذا السكون من حزن غامر ينشر ظلاله الطيبة عليه . ولم يكن غريباً عليه وهو الذى صاحب السكون فى كل شىء ، وظل حتى فى كلامه ورسائله إلى أمه ومعارفه حيياً وصموتاً وضنيناً بالكلمة . لقد بقى فى أتعس سنوات عمره من أولئك الذين وصفهم بقوله : « أغنياء فى الفكر فقراء فى العمل » . وهذا السكون الذى التف حوله هو علامة الغنى والخصب والثراء . وإذا كان لم يخل من الحزن الفاجع الأليم — فأشد الأحزان فجيعة وألماً هو أشدها سكوناً وصمتاً — فهو كذلك لم يخل من الشعور بالهدوء والطمأنينة والسلام . إن كل أشعاره التى قالها وهو فى هاوية الجنون لا تخلو من الحديث عن هذا السلام والسعادة بتغير المواسم والفصول ، ومعظمها يتحدث عن الربيع والخريف والصيف والشتاء ، ويصفها كما تراها عين طفل يسعد بالصور الحية الملونة الملموسة ويلاعبها ويداعبها ويناجيها . .

كتب عن الربيع وحده تسع قصائد ، أما الصيف فقد كتب فيه خمساً ، والخريف اثنتين ، وبلغ مجموع ما كتبه عن الشتاء ست قصائد . وليس هذا الإحصاء بغير دلالة على وجدان الشاعر واتجاه فكره وشعوره فى هذه المرحلة المظلمة من حياته . فقد فقدت نظرته كما فقدت حياته لونها الذاتى ونغمتها الخاصة المتوترة ، وأصبحت رؤيته للظواهر والأشياء رؤية موضوعية هادئة . اقرأ مثلا إحدى قصائده التسع التى كتبها كما يقول المؤرخون فى عيد ميلاده الأخير * :

---

* وهو الذى وافق العشرين من شهر مارس سنة ١٨٤٣ ..

ربيع

عندما يأتى الربيع إلى الحياة قادماً من الأعماق ،
يتعجب البشر وتحلق من عقولهم كلمات جديدة ،
يرجع الفرح من جديد
وينطلق الشعر والغناء فى زينة الأعياد :
تجد الحياة نفسها فى انسجام الفصول ،
كى تصحب الطبيعة والروح وجداننا على الدوام
ويصبح الكمال واحداً فى عقولنا !
هكذا تجد نفسها معظم الأشياء ، وأغلبها يأتى من الطبيعة .

إن الشاعر يتجه بفكره إلى الطبيعة ، والطبيعة تغلب على كل هذه القصائد المتأخرة ، وكأنها هى التى تشعر وتفكر له بدلا من الذات الغائبة التائهة فى ليل الجنون . ولهذا يندر أن تحس فيها بعذابه الشخصى ، بقدر ما تحس بالنظام الكونى الذى يهيمن على كل شىء ويبارك كل شىء ويضفى عليه الراحة والسلام . ويظهر هذا فى لغة الأصل التى تعجز الترجمة عن نقلها ، فهى حريصة على تجانس الإيقاع فى القافية والبريق الهادئ الذى يشع من الصور المتنوعة ، والضوء الذى ينبعث من وجدان تقى لا يسأل ولا يشكو ولا يتشكك .. لقد دحض الربيع كل هموم الإنسان . وإحدى قصائد الربيع تعبر عن هذا حين تقول :

ينسى الإنسان هموم روحه
أما الربيع فيزدهر ، وتتألق بالبهاء معظم الأشياء ،
الحقل الأخضر ممتد رائع ،
حيث ينحدر الجدول فى جماله الساطع :
الجبال المنتصبة تغطيها الأشجار ،
والهواء بديع فى الفضاء المفتوح ،
الوادى الرحب ممتد فى العالم
والبرج والبيت مسنودان على التلال :

والغريب أن معظم هذه القصائد موقع بإمضاء اسم عجيب مجهول هو « سكاردانيللى

الخاضع الذليل » : . . ومعظمها يحمل تاريخاً يدل على أن الشاعر فقد الوعى بالزمن : فبعضها يحمل تاريخاً سابقاً على مولد الشاعر أو لاحقاً لوفاته : : بل إن إحدى قصائده عن الشتاء ترجع إلى الرابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٦٧٦ ، أى قبل مولده بحوالى مائة سنة ! . . .

* * *

هلدرلين فى الثانية والسبعين من عمره
(من رسم لويزه كيلر)

أما قصائده عن الشتاء فهى أكثر تعبيراً عن السكون الشامل الذى لف أيامه الأخيرة ، والرضا الكامل الحزين الذى عبرت عنه كلمته الأخرى من قبل « طيبة كل الأشياء » . ها هو ذا يقول فى إحدى هذه القصائد :

تبدو السنة بكل مواسمها
أشبه بالحفل الفخم انتشرت فيه الأعياد .
ويقبل الناس على النشاط بهدف جديد ،
وهكذا تظهر العلامات فى الكون وتكثر المعجزات :

وليس معنى هذا أن تناقضات النفس المعذبة قد اختفت من الوجود ، بل معناه أنها استراحت على صدر الوجدان الهادئ المستسلم الذى صالح بينها وجمع أطرافها فى « دائرة الكل » . ها هى ذى قصيدة أخرى عن الشتاء تعكس هذا الإحساس الهادئ بالكون الأكبر :

الحقل مجدب ، وعلى القمة البعيدة
لا تسطع إلا السماء الزرقاء ، وكما تمضى الدروب
تظهر الطبيعة أشبه بكيان واحد ،
النسيم منعش ، والطبيعة لا يتوجها إلا النور .
دائرة الأرض تشاهد من السماء
طوال النهار ، يحوطها الليل المنير ،
عندما يظهر الزحام عالياً من (مواقع) النجوم
وتتجلى الحياة الرحبة الممتدة أغنى بالروح .

لم يعد الشاعر يعانى أو يتألم ، بل هو الآن يشاهد ويتأمل من غربته البعيدة الهادئة : أصبحت عينه مرآة محايدة ، وكل ما ينعكس عليها مظهر من مظاهر الوجود الكبير ، وجزء من الدائرة التامة الشاملة . الطبيعة صارت أشبه بمسرح هائل : من ورائه الكواليس ، ومن أمامه ستارة الغيب المجهول . .

* * *

وعلى الرغم من هذا السكون الشامل الذى خيم عليه فأطفأ سراج ذاته ، وظلل كل

أشعاره فى هذه السنوات البائسة بالطمأنينة والرضا والسكون ، تفاجئنا قصيدة واحدة انتفضت فيها الذات ونبشت جراح ماضيها وحاولت أن تستعيد أحلى ذكرياتها مع الحبيبة الغائبة تحت التراب . والقصيدة مكتوبة على لسان « ديوتيما » التى يبعث إلى نفسه رسالة على لسانها ، وكأنما اتحدت ذاته بذاتها فصارا كياناً واحداً يتحدى المكان الغادر والزمن الظالم . وفى القصيدة عذوبة لا نظير لها ، وفيها كذلك يأس لا نظير له . ولكنه اليأس الذى ارتفع فوق السخط والمرارة . لنقرأ القصيدة معاً ، فهى درة نادرة فى كنز الشاعر ، وجوهرة غالية بين نفائس شبابه وشيخوخته :

إن كنت لا تزال تعرفنى من مسافة البعد
التى فرقت بيننا ، وإن كان الماضى
– أنت يا شريك أحزانى ! –
لا يزال يحمل إليك بعض الخير *

فأخبرنى إذاً ، كيف تنتظرك الحبيبة ،
فى تلك الحدائق التى جمعت شملنا
بعد سنوات مظلمة ومخيفة ؟
هنا على أنهار العالم الأقدس القديم .

لا بد أن أقول هذا ، كانت نظراتك
تشرق بالخير ، عندما التفت فى مرح
إلى الآفاق البعيدة ،
أنت أيها الإنسان المنطوى أبداً

بمنظرك العابس على الدوام . كم انسابت الساعات ،
وكم هدأت روحى عندما أيقنت
أنها لم تكن بعيدة عنك ؟
أجل ! لقد اعترفت بأنى لك .

حقاً . كما تريد أن تذكرنى بكل ما ألفت

* حرفيا : لا يزال يستطيع أن يدلك أو يعنى عندك بعض الخير . .

وتدونه فى رسائل (تبعثها إلىّ)
كذلك أجدنى أبوح
بكل ما مضى .

أكان ربيعاً ؟ أكان صيفاً ؟
البلبل بغنائه العذب عاش مع الطيور ،
التى لم تكن بعيدة فى الآجام ،
والأشجار أحاطتنا بشذاها .

الممرات المعبدة ، والشجيرات الدانية ، والرمال
التى خطونا عليها جعلت أزهار الزنبق
أو الخزامى والبنفسج والقرنفل
أكثر بهجة ورواء .

اخضر اللبلاب على الحيطان والجدران ،
واخضر الظلام المبارك فى الطرقات العالية .
كثيراً ما اختلفنا إلى هناك فى المساء والصباح
فتجاذبنا الحديث وتبادلنا النظرات فى سرور .

بين ذراعى تجددت حياة الشاب :
الذى كان لا يزال وحيداً حين جاء من الحقول
التى دلنى عليها فى حزن واكتئاب
لكنه احتفظ بأسماء تلك الأماكن النادرة .

وبكل جميل يزدهر على الشطئآن المباركة
— وهو عزيز علىّ فى أرض الوطن —
أو خفى لا يرى
إلا من بقعة عالية ،

حيث يستطيع الإنسان أن يشاهد البحر

وإن لم يرد أن يكونه .
فلتقنع بهذا ، وتذكر من لا تزال سعيدة
لأن النهار الخلاب طلع علينا ،

النهار الذى بدأ بالاعتراف أو ضغط اليدين
ووحد بيننا . آه ! ويل لى !
كانت أياماً حلوة . لكن تبعتها
ظلمة غسق محزن .

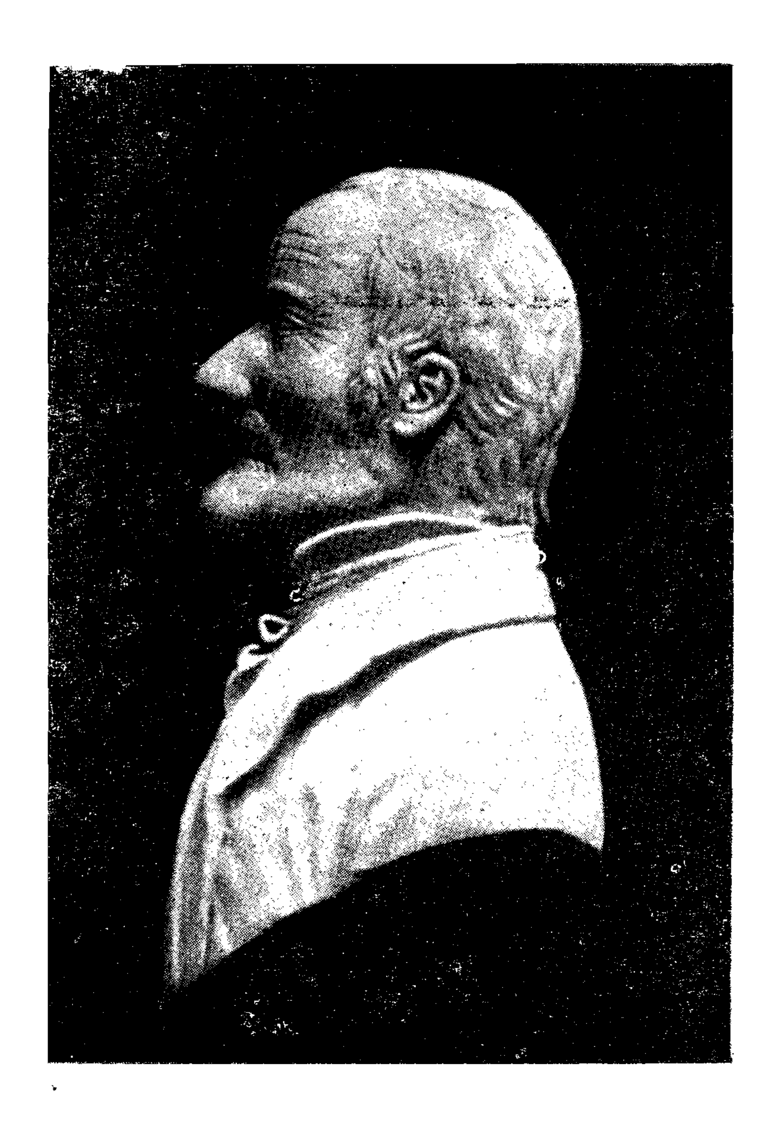
ها أنت تؤكد أبداً يا حبى
أنك وحدك فى هذا العالم
لكنك لا تدرى شيئاً عن هذا . . .

* * *

وتنقطع القصيدة التى لم يتمها الشاعر . إن نغمة الشكوى والأنين تصل إلى الأسماع : وهى تحمل كل عذاب الذات وعجزها ويأسها . لكن هذه النغمة نادرة . قصائده المتأخرة والعودة إلى الماضى البعيد توشك ألا تتكرر ، اللهم إلا فى قصيدة واحدة تفاجئنا بقلق وجودى غريب على الشاعر والعصر جميعاً . إنها قصيدة واحدة كما قلت ، سماها الشاعر « نعيم هذا العالم » ، وتلفت فيها على غير عادته للوراء ، وختمها بالاعتراف بسأمه وحنينه إلى الموت :

هذا العالم ذقت نعيمه
انصرمت ساعات شبابى ،
ما أبعدها ! ما أبعدها !
أبريل بعيد ، مايو ، يوليو
أنا لا شىء ، وحياتى
ما عادت تحلو فى عينى .

بيد أن هذه النغمة تختفى فجأة كما ظهرت فجأة . وتغوص الذات المتأملة فى بحر الوجود الذى يغسل آلامها ، ويحل الوصف الخالص محل التوتر والقلق ، وتضيع أصوات



هلدرلين فى شيخوخته
(نحت بارز من الشمع أعده و . نويبرت ويوجد
الآن فى متحف شيلر القومى بمدينة مارباخ)

الشكوى بين أنغام الرضا والسلام والانسجام . وينشر السكون العميق خيمته على أيام الشاعر المسكين . ويصبح السؤال لا معنى له ، لأن السلام دخل القلب ولن يخرج منه : السلام الذى طالما اشتاق إليه المتجول الوحيد فى أرض الحب والشعر . وهو سلام قريب من الصمت والسكون ، لأنه لا يعرف الشكوى ولا الأنين :

: : : هناك تعلوها شجرة الفاكهة المزدهرة
ويستقر الشذا على الشجيرات البرية ،
حيث تتفتح أزهار البنفسج الخفية ؛

غير أن المياه تتحلى قطرات ،
ويسمع هناك همس ناعم طوال النهار ؛
أما الأماكن المحيطة
فتستريح وتصمت طوال العصر .

* * *

وجاء الموت . .

كان ذلك فى ليلة السابع من يونيه سنة ١٨٤٣ ، بعد أن ظل يتأمل القمر كعادته ويتطلع إلى النجوم ساعات طويلة من نافذته . . مات فى هدوء وسلام ، كأنما يعتذر عن حياته وموته جميعاً ولا يريد أن يزعج أحداً أو يلفت أحداً إليه . وخرج من العالم كما جاء إليه ، ضيفاً بائساً متعباً . وبدا لسنوات طويلة أن الدنيا لم تفطن لدخوله أو خروجه ، كما لم تعبأ بحياته أو موته . ولكن الموت الرحيم يأتى دائماً . وقد زاره فى تلك الليلة المقمرة . فاستراح الشاعر وصمت صمته الأخير .

* * *

تمّ الكتاب بحمد الله

« لوحة بحياة هلدرلين وأعماله وعصره »

١٧٧٠ ولد يوهان كرستيان فريدريش هلدرلين في العشرين من شهر مارس في بلدة لاوفن الواقعة على نهر النيكار ، وكان أبوه هينريش فريد ريش هلدرلين معلماً في مدرسة الدير في هذه البلدة ومديراً للأملاك التابعة للكنيسة ، أما أمه فكانت تدعى يوهانا كرستيانا هاين .

١٧٧٢ وفاة أبيه في السادسة والثلاثين من عمره . مولد شقيقته هينريكه في الخامس عشر من شهر أغسطس ، وقد تزوجت بعد ذلك من كرستيان برويلن الذي كان أستاذاً في الدير الواقع بمدينة بلاوبويرن .

١٧٧٤ زواج أمه من « جوك » عمدة مدينة نورتنجن وعضو المجلس البلدى بها وانتقالها مع صغيريها إلى بيته .

١٧٧٦ مولد كارل جوك ، شقيق هلدرلين لأبيه ، في التاسع والعشرين من شهر أكتوبر في « نورتنجن » .

١٧٧٩ وفاة زوج أمه في الثامن من شهر مارس على أثر إصابته بالتهاب رئوى . هلدرلين يدخل المدرسة اللاتينية في نورتنجن وتصر أمه وأسرته على أن يدرس اللاهوت ويصبح قسيساً . .

١٧٨٤ دخوله مدرسة الدير الابتدائية ببلدة دنكندورف حيث يقضى فيها سنتين .

١٧٨٦ دخوله مدرسة الدير العليا في ماولبرون في الخريف وتعرفه على إمانويل ناست وفرانز كارل هيمر وكرستيان لدفيج بلفينجر الذين جمعته بهم صداقة حميمة ، وقراءته لأعمال كلوبشتوك وشوبارت وشيلر الذين أعجب بهم في مطلع شبابه وكان لروحهم المثالية والوطنية أكبر الأثر على قصائده الأولى . اطلاعه على مجموعة الأشعار العاطفية الحزينة التي قلدها « ماكفرسون » ونسبها إلى شاعر اسكتلندى خرافى يقال إنه عاش في القرن الثالث وكان لها تأثير هائل على الأدب الألماني في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى اكتشف الأصل وترجم سنة ١٨٠٧ . .

١٧٨٨/١٧٨٩ تكوين رابطة أدبية مع صديقيه لدڤيج نويفر ورودلف ماجنا وتبلغ ذروة نشاطها فى سنة ١٧٩٠ . زيارته لمدينة توبنجن وتأثره بشخصية شيلر وشعره . كتابة القصائد الغنائية المعروفة بقصائد توبنجن . .

١٧٨٩ تعرفه على جوتهولد فريد ريش شتويدلن الذى كان يلقب « بالكاهن الأعظم » لربات الفن فى منطقة « شفابن » ، ولقاؤه بالشاعر الوطنى الثائر شوبارت (١٧٣٩ — ١٧٩١) . بداية الثورة الفرنسية الكبرى فى الرابع عشر من يوليو . . .

١٧٩٠ دخول امتحان « الماجستير » فى شهر سبتمبر بمدينة توبنجن ، ومواصلة الدراسة فى المعهد الدينى بها . تعرفه على إليزه ليبريت فى الخريف من هذه السنة وقيامه برحلة قصيرة مع بعض أصدقائه إلى سويسرا حيث يزورون الكاتب والفيلسوف السويسرى « لافاتر » (١٧٤١ — ١٨٠١) ، الذى أثر على الأدب الألمانى فى العصر المعروف بعصر الحساسية بإيمانه العميق وأسلوبه العاطفى المتوهج بالدفء والإنسانية ، وكان صديقاً حميماً لجوته وهردر . .

١٧٩١ ظهور بعض قصائد هلدرلين لأول مرة فى مجلة « نتيجة ربات الفنون » التى كان يصدرها شتويدلن ، وإسهامه بالكتابة فيها فى العدد السنوى التالى . خروج صديقيه نويفر وماجناو من المعهد الدينى . وفاة الشاعر شوبارت فى العاشر من أكتوبر بمدينة شتوتجارت . .

١٧٩٢ لقاؤه فى الصيف بالمجهولة « ذات الوجه النقى الجميل » التى لم يعرف الباحثون شيئاً عنها حتى الآن . .

١٧٩٣ خروجه فى شهر سبتمبر من المعهد الدينى الذى قاسى فيه ألواناً من الشظف والحرمان ، وتوسط « شيلر » فى البحث له عن وظيفة معلم خصوصى لابن السيدة شارلوته ڤون كالب التى كانت على صلة بالحياة الأدبية . اجتيازه امتحان شهادة اللاهوت فى السادس من سبتمبر بمدينة شتوتجارت وسفره فى العشرين من نفس الشهر إلى بلدة فالترسهاوزن الواقعة بالقرب من مدينة يينا وتسلمه العمل فى بيت السيدة فون كالب . .

١٧٩٤ فيلسوف المثالية الألمانية « فشته » يبدأ فى شهر مايو محاضراته فى جامعة

« يينا » . عودة الشاعر شيلر مع أسرته إلى « يينا » ، وبداية صداقته الوطيدة مع الشاعر الأكبر جوته فى صيف هذا العام . سفر هلدرلين فى شهر نوفمبر مع تلميذه المزعج الذى أتعبته مهمة تربيته إلى مدينة يينا حيث يستمع إلى محاضرات فشته ويتردد على شيلر ويتعرف على جوته وهيردر . ظهور الجزء الذى كتبه من روايته « هيبريون » فى مجلة « تاليا » التى كان شيلر يصدرها . .

١٧٩٥ ظهور رواية جوته « ڤيلهلم ميستر » فى شهر يناير وتعد أهم حدث أدبى فى أواخر القرن الثامن عشر . شيلر يصدر مجلته الجديدة « الهورن » . هلدرلين يتخلى عن وظيفته التربوية ويغادر بيت السيدة شارلوته فون كالب فى السادس عشر من يناير ، ويقوم برحلة إلى مدينة ليبتسج فى أواخر شهر مارس . وفاة روزينه شتويدلن عروس صديقه الحميم نويفر فى الخامس والعشرين من أبريل . هروبه من مدينة يينا فى أواخر شهر مايو وعودته إلى وطنه فى « نورتنجن » حيث يقضى الصيف تعيساً وحيداً ، ويقرر السفر إلى مدينة فرانكفورت على نهر الماين فيصل إليها فى الثامن والعشرين من ديسمبر . .

١٧٩٦ تضطره لقمة العيش إلى العودة للدروس الخصوصية ويعمل ابتداء من شهر يناير فى بيت رجل المال والبنوك جونتتار ويخفق قلبه بحب ربة البيت سوزيته جنتار . سوزيته تغادر فرانكفورت مع أولادها بسبب ظروف الحرب مع جيوش نابليون وتسافر فى صحبة هلدرلين والشاعر الكاتب « ڤيلهلم هنسه » إلى مدينة كاسيل ومنها إلى باد ــ دريبورج فى منطقة ڤستفالين حيث يقيمون هناك حتى شهر أكتوبر . جوتهولد شتويدلين صديق هلدرلين يموت منتحراً فى نهر الراين .

١٧٩٧ ظهور الجزء الأول من رواية هيبريون فى أعياد الفصح عند الناشر كوتا . (أما الجزء الثانى فيظهر بعد ذلك فى سنة ١٧٩٩) . نشر قصيدته « المتجول » فى شهر أغسطس فى مجلة « الهورن » . هلدرلين يزور جوته فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس فى مدينة فرانكفورت ، وتكشف هذه الزيارة الشكلية عن عجز جوته عن تقدير موهبته الشعرية . .

١٧٩٨ يضطر فى منتصف شهر سبتمبر لمغادرة بيت جونتار على أثر إهانة الزوج له ويقيم فى مدينة هومبورج ليظل قريباً من حبيبته سوزيته ، وهناك يستضيفه صديقه إسحق فون سنكلير ويرعاه . يبدأ العمل فى مسرحيته الشعرية « موت أمبادوقليس » ويفكر فى إصدار مجلة أدبية ويكتب بعض المقالات الفلسفية .

١٧٩٩ وصول صديقه بولندورف إلى مدينة هومبورج . .

١٨٠٠ يعود فى أوائل شهر يونيه إلى قريته ثم يقضى الصيف والخريف فى صحبة أصدقائه فى مدينة شتوتجارت .

١٨٠١ عقد معاهدة السلام بين فرنسا والنمسا فى مدينة لونافيل .
هلدرلين يغادر قريته مرة أخرى فى محاولة لكسب قوته خارج وطنه ، فيعمل مدرساً خصوصياً لدى عائلة جونسنباخ فى بلدة هاوبتفيل فى سويسرا ولكنه لا يكاد يقضى فيها أربعة شهور حتى يضطره الفشل للرجوع إلى بلدته « نورتنجن » ، ويسعى للالتحاق بجامعة « يينا » للتدريس بها فيخفق أيضاً فى مسعاه . يكتب مرثياته وقصائده الكبرى . يبدأ رحلته الأخيرة إلى فرنسا فى العاشر من ديسمبر . .

١٨٠٢ يصل إلى مدينة « بوردو » فى الثامن والعشرين من شهر يناير بعد رحلة شاقة على قدميه عبر جبال الأوفيرون ويعمل مدرساً خصوصياً ومربياً لأبناء القنصل الألمانى دانييل ماير. ولكنه لا يلبث أن يتخلى عن عمله بعد شهور قليلة ويغادر المدينة فى ظروف غامضة . ويصل فى منتصف شهر يونيه إلى نورتنجن وقد ظهرت عليه آثار الاختلال العقلى الواضح . وفاة سوزيته جونتار فى الثانى والعشرين من شهر يونيه بمدينة فرانكفورت . يسافر فى الخريف إلى مؤتمر أمراء المقاطعات الألمانية المنعقد فى مدينة ريجنسبورج . .

١٨٠٣ حياته مع أمه فى نورتنجن .

١٨٠٤ ظهور ترجمته لمسرحية أوديب ملكاً عند الناشر فريدريش فيلمانس فى فرانكفورت . يزداد عليه المرض ويعوده صديقه سينكلير ويأخذه معه إلى مدينة هومبورج حيث يعيش هناك سنتين .

١٨٠٥ وفاة الشاعر شيلر فى التاسع من شهر مايو .

١٨٠٦ سينكلير يسلم صديقه لمستشفى أوتنريت بمدينة توبنجن بعد أن استفحل مرضه .

١٨٠٧ يتقدم النجار سيمر للمستشفى ويأخذ الشاعر المريض من شفائه إلى بيته فى مدينة توبنجن ويتولى رعايته حتى يخلصه الموت من عذابه . .

١٨١٥ وفاة صديقه سينكلير فى الثامن والعشرين من شهر أبريل بمدينة ڤيينا .

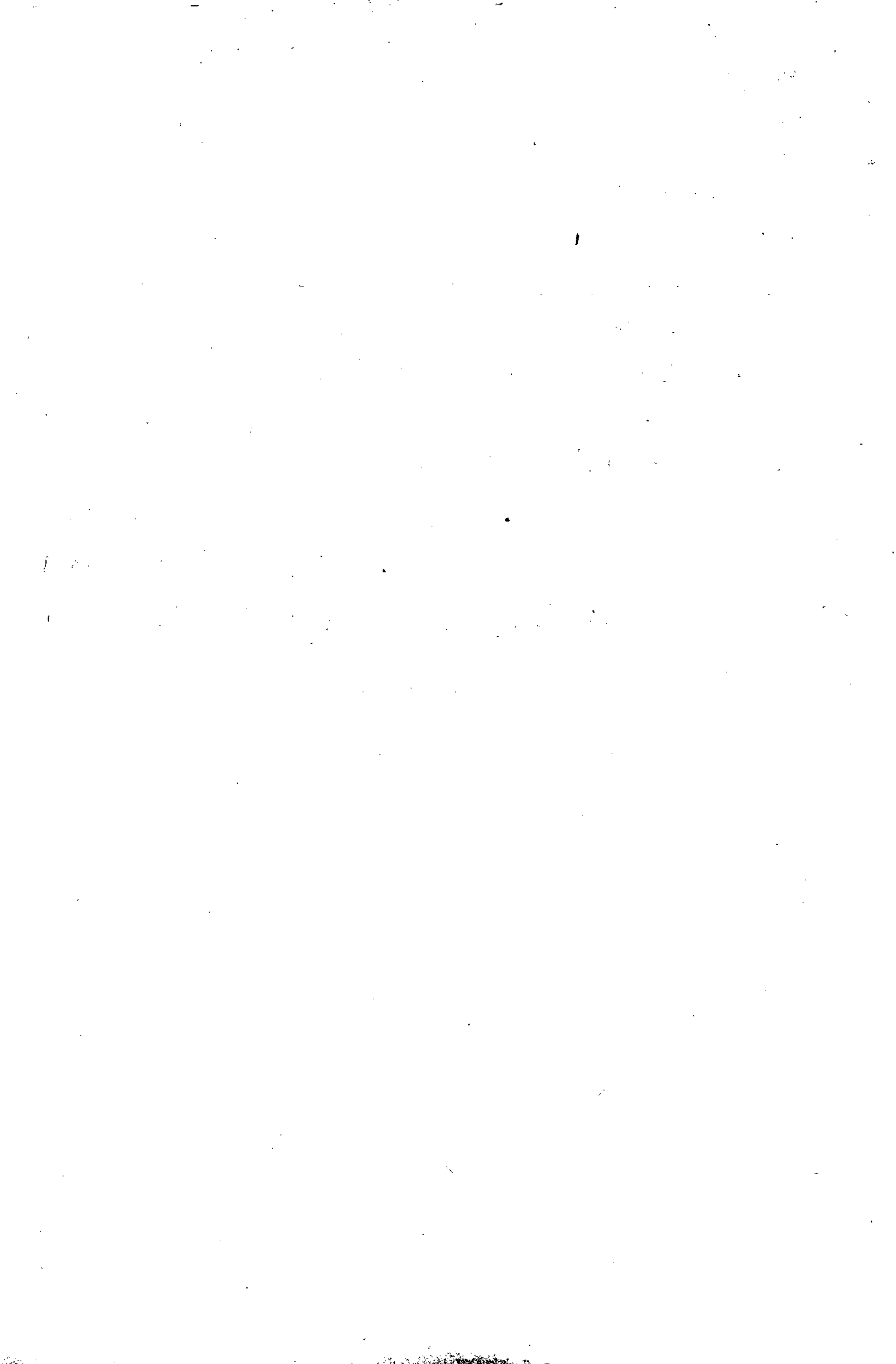
١٨٢٦ يقوم بعض شعراء منطقة شڤابن وهم جوستاف شڤاب ولدڤيج أولاند ويوستينوس كيرنر بجمع قصائد هلدرلين ونشرها فى أول طبعة كاملة . .

١٨٢٨ وفاة أمه فى السابع عشر من شهر فبراير .

١٨٣٩ وفاة صديق شبابه نويفر .

١٨٤٣ وفاة هلدرلين فى اليوم السابع من شهر يونيه بمدينة توبنجن .

* * *



(نصوص مختارة)



« من قصائده الأولى » *

عزيمتى [1] (١٧٨٧)

أيها الأصدقاء ! أيها الأصدقاء ! يا من تخلصون لى الحب !
ما هذا الذى يكدر صفو نظراتى الوحيدة ؟
ما الذى يكره قلبى المسكين
على هذا الهدوء المميت الذى تلفه سحب الليل ؟
أهرب من ضغط أيديكم الرقيقة ،
من القبلة الأخوية الطيبة الحنون .
ناشدتكم ألا تغضبوا علىّ ، لأنى أهرب منها !
انظروا فى أعماق نفسى ! اختبروها ثم احكموا !
أهو العطش الحار إلى كمال الرجولة ؟
أهو الحرص الخفى على مكافأة الأضاحى ؟ [2]
أهو الطموح الضعيف إلى تحليق بندار ؟
أهو الكفاح للوصول إلى عظمة كلوبشتوك ؟ [3]

---

* كتب هذه القصيدة على البحر الألكايى ، نسبة إلى الشاعر ألكايوس المعاصر لساڤو فى القرن السادس قبل الميلاد ، وقد كتب فيه هلدرلين بعد ذلك عدداً من قصائده الغنائية (أو الأود) والقصيدة ذات دلالة بالغة على مشاعر هلدرلين وطموحه وشكوكه وألوان الصراع الذى عاناه فى أواخر صباه ..

(١) الكلمة الأصلية تفيد النية والقصد والقرار والوجهة والعزيمة . والقصيدة كلها تتحدث عن أحلام الشاعر وطموحه الأدبى فى صباه ، وهى كغيرها من قصائد الشباب تعتمد على السمع لا على البصر ، وعلى البلاغة والإنشاء لا على الوصف والصور الحية الملموسة الموحية التى ظهرت فى شعره الناضج وكان لها أثرها الكبير على رواد الرمزية والتعبيرية والشعر العقلى المحض أو الشعر التجريدى الحديث ..

(٢) الكلمة الأصلية (هيكاتومب) يونانية تدل على القربان الذى كان قدماء اليونان والرومان يضحون فيه بمائة ثور ، كما تفيد المجزرة والتضحية بالجملة .

(٣) راجع الفصل الثانى من الكتاب .

آه أيها الأصدقاء . أى ركن فى الأرض
يمكنه أن يخفينى ، حتى أبكى هناك
وقد لفنى الليل إلى الأبد ؟ أنا لن أقوى أبداً
أن أطوف حول العالم وأحلق تحليق العظماء [١] .

لكن لا ! هيا اسلك درب المجد الرائع !
عالياً ! عالياً ! فى الحلم المشبوب الجسور
الذى يوصلك إليهم ، وإذا يوماً كتب على
أن أتلعثم (فى كلماتى) وأنا أحتضر ، فانسونى أيها الصغار !

* * *

(١) حرفيا : أنا لن أبلغه أبداً ، لن أبلغ تحليق العظماء الذى يطوف مسرعاً حول العالم ..

(MEIN VORSATZ) (1787)

O **Freunde** ! Freunde ! die ihr so treu mich liebt !
Was trübet meine einsame Blicke so ?
Was zwingt mein armes Herz in diese
Wolkenumnachtete Totenstille ?

Ich fliehe euren zärtlichen Händedruck,
Den seelenvollen, seligen Bruderkuss.
O zürnt mir nicht, dass ich ihn fliehe !
Schaut mir in's Innerste ! Prüft und richtet ! -

Ists heisser Durst nach Männervollkommenheit ?
Ists leises Geizen um Hekatombenlohn ?
Ists schwacher Schwung nach Pindars Flug ? ists
Kämpfendes Streben nach Klopstocksgrösse ?

Ach Freunde ! welcher Winkel der Erde kann
Mich decken, dass ich ewig in Nacht gehüllt
Dort weine ? Ich erreich ihn nie den
Weltenumeilenden Flug der Grossen.

Doch nein, hinan den herrlichen Ehrenpfad !
Hinan ! hinan ! im glühenden kühnen Traum
Sie zu erreichen; muss ich einst auch
Sterbend noch stammeln; vergesst mich, Kinder !

كبلر* (١٧٨٩)

روحى تسرى بين النجوم ،
تسبح فوق ساحات السماء (١)
وتتفكر ، دربى وحيد وجسور
يتطلب الخطوة الثابتة(٢) .

تجول بقوة كما يفعل البطل !
ارفع وجهك ، لكن لا تسرف فى الغرور ،
فها هو ذا يقترب ، انظر ، ينحدر من الساحات العالية
حيث يهلل الانتصار ، ذلك الرجل

الذى قاد المفكر فى ألبيون (٣) ،
— رقيب السماء فى منتصف الليل —
إلى ساحة التأمل العميق
وتقدم بجسارة ليضىء (ظلمات) التيه ،

حتى إن كبرياء « التيمز » الجليل

---

* هو عالم الفلك المشهور (١٥٧١ — ١٦٣٠) وقد ولد فى بلدة « فايل » فى منطقة شفابن أو سويفيا موطن هلدرلين الذى يعده أحد الأبطال القوميين الذين يعتز بهم ، والمعروف أنه اكتشف قوانين حركة الكواكب . والقصيدة تدلنا على الروح الوطنية الواسعة الأفق التى ازدادت وضوحاً فى إنتاج هلدرلين المتأخر ، كما غلبت عليها روح المأساة والفجيعة للتباين الصارخ بين الواقع والمثال والفعل والأمل ، وتعددت أبعادها الفلسفية والإنسانية ، وظهر فيها تأثره بدراسة الشعر الكلاسيكى القديم وترجمته بعض روائعه ، وبالأخص مجموعة من قصائد بندار ومسرحيتى سوفوكليس الشهيرتين أوديب وأنتيجونا ..

(١) فى الأصل أورانوس ، وهى تطلق على سابع الكواكب الكبرى ، كما تدل على السماء بوجه عام ، وقد كانت أقدم الآلهة فى الأساطير اليونانية ..

(٢) حرفيا : يتطلب الخطوة الحديدية ، بمعنى الرسوخ والصلابة والتصميم ..

(٣) أقدم الأسماء التى كانت تطلق على الجزر البريطانية ، والمقصود بمفكر ألبيون هو العالم الرياضى الشهير إسحق نيوتن الذى استفاد من بحوث كبلر وبخاصة ما اتصل منها بتطوير التلسكوب ..

نادته وهى تركع بالروح أمام قبره
وتدعوه إلى ساحة الشرف العظيم [١] :
« بدأت يا ابن سويفيا »

حيث زاغ البصر آلاف السنين ،
وها أنذا أتم ما بدأت ،
فقد كنت ، أيها (الرائد) المجيد ، أول من أضاء المتاهة
واستنزل الشعاع إلى (غياهب) الليل .

« لتلتهم الشعلة التى تتأجج فى الصدر
نخاع الحياة . . فسوف ألحق بك وأتم ما بدأت !
لأن الطريق الذى سلكت عظيم ، جاد وعظيم ،
يزدرى الذهب ، ويكافئ نفسه بنفسه » .

يا لبركة القاعة التى تزدحم بأجداث الأبطال [٢] !
هل وطنى هو الذى وهبه الحياة ؟ وهو من أثنى عليه التيمز ؟
وأول من أرسل الشعاع إلى (ظلمات) المتاهة
وهدى الكواكب إلى القطب (البعيد) .

هكذا أنسى رعود « هيكلا » [٣]
ولو كتب على أن أسير على الأفاعى
لما هزتنى الخيلاء لأنه نشأ على أرضك

---

(١) المعنى الحرفى هنا وفى مواضع كثيرة من شعر هلدرلين يكاد يستعصى على الترجمة المفهومة ، ولهذا عمدت إلى شىء من التصرف فى الأصل الذى يقول : دعاه إلى حفل الجزاء الأجدر أو المكافأة الأشرف . .

(٢) الكلمة الأصلية (والهال) ترجع إلى الأساطير الشمالية وتدل على القاعة التى كانت تصف فيها أجداث الأبطال الذين يسقطون فى ميدان القتال . .

(٣) هو أكبر براكين أيسلندا .

يا سويفيا[١] . ولنا الشكر من ألبيون [٢].

يا أم الأوفياء ! يا سويفيا !
أنت أيتها الوديعة ! الدهور تهلل لك ،
ربيت رجالا نورانيين لا يحصرهم عد ،
وفم الأجيال القادمة يحييك ويلهج باسمك :

* * *

(١) هو الاسم القديم الذى كان يطلق على منطقة شفابن التى ولد فيها الشاعر .
(٢) انظر التعليق السابق بالهامش ..

(K E P L E R) (1789)

Unter den Sternen ergehet sich
Mein Geist, die Gefilde des Uranus*
Uberhin schwebt er und sinnt; einsam ist
Und gewagt, ehernen Tritt heischet die Bahn.

Wandle mit Kraft, wie der Held, einher !
Erhebe die Miene ! doch nicht zu stolz,
Denn es naht, siehe es naht, hoch herab
Von dem Gefild', wo der Triumph jubelt, der Mann,

Welcher den Denker in Albion*,
Den Späher des Himmels um Mitternacht
Ins Gefild' tiefern Anschauns leitete,
Und voranleuchtend sich wagt' ins Labyrinth,

Dass der erhabenen Themse Stolz
Im Geiste sich beugend vor seinem Grab
Ins Gefild' würdigern Lohns nach ihm rief :
Du begannst, Suevias* Sohn, wo es dem Blick

Aller Jahrtausende schwindelte;
Und ja ! ich vollende, was du begannst,
Denn voran leuchtetest du, Herrlicher !
Im Labyrinth, Strahlen beschwurst du in die Nacht.

Möge verzehren des Lebens Mark
Die Flamm' in der Brust - ich ereile dich,
Ich vollend's ! denn sie ist gross, ernst und gross,
Deine Bahn, höhnet des Golds, lohnet sich selbst."

Wonne Walhallas ! und ihn gebar
Mein Vaterland ? ihn, den die Themse pries ?
Der zuerst ins Labyrinth Strahlen schuf,
Und den Pfad, hin an den Pol, wies dem Gestirn.

Heklas* Gedonner vergäss ich so,
Und, ging ich auf Ottern, ich bebte nicht
In dem Stolz, dass er aus dir, Suevia !
Sich erhub, unser der Dank Albions* ist.

Mutter der Redlichen ! Suevia * !
Du stille ! dir jaqchzen Äonen* zu,
Du erzogst Männer des Lichts ohne Zahl,
Des Geschlechts Mund, das da kommt, huldiget dir !

« قصائد من مرحلة النضج »

أمبادوقليس (١٧٩٧)

أنت تفتش عن الحياة ، تفتش عنها ، ونار إلهية
تنبثق لأجلك من أعماق الأرض وتتألق ،
(ويغلبك) الشوق الحارف فتقذف نفسك
فى لهيب « إتنا » .

كم كان مجون الملكة يتمنى ،
أن يذيب اللآلىء فى النبيذ !
لو أنك ، يا شاعر ، لم تلق بثروتك
فى الكأس المزبدة الفوارة !

لكنك عندى مقدس قداسه قوة الأرض ،
التى انتزعتك ، أيها القتيل الجسور !
ولكم أتمنى أن أتبع البطل إلى الأعماق ،
لولا أن الحب يمنعنى .

(E M P E D O K L E S) (1797)

Das Leben suchst du, suchst, und es quillt und glänzt
Ein göttlich Feuer tief aus der Erde dir,
Und du in schauderndem Verlangen
Wirfst dich hinab in des Ätna Flammen.

So schmelzt' im Weine Perlen der Übermut
Der Königin; und mochte sie ! Hättest du
Nur deinen Reichtum nicht, o Dichter,
Hin in den gärenden Kelch geopfert !

Doch heilig bist du mir, wie der Erde Macht,
Die dich hinwegnahm, kühner Getöteter !
Und folgen möcht' ich in die Tiefe,
Hielte die Liebe mich nicht, dem Helden.

بونابرت (١٧٩٧) *

الشعراء أوعية مقدسة
تحفظ فيها خمر الحياة ،
وروح الأبطال .

لكن روح هذا الفتى ،
هذا الفتى الخفيف[١] — ألم يضطر لتحطيم الوعاء
الذى أراد أن يحويه ؟ [٢].

فليتركه الشاعر ولا يقترب منه ، (لأنه) يشبه روح الطبيعة ،
والمادة التى من هذا النوع تجعل المعلم (الصناع) يصبح صبياً (مبتدئاً) .

إنه لا يستطيع أن يحيا ويبقى فى القصيدة ،
بل يحيا ويبقى فى العالم .

* * *

---

* يلاحظ أن القصيدة مهداة إلى الجنرال بونابرت الذى كان أمل الشباب فى تحقيق مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى ، لا إلى القيصر بونابرت الذى خان هذه الثورة واستغلها لمجده ..

(١) الخفيف هنا بمعنى السريع كما فى الأصل .

(٢) يلاحظ القارئ أننى أحاول بقدر ما أستطيع وما تحتمل اللغة العربية ، أن أحافظ على البناء الأصلى للعبارة ، لأنه يدل دلالة بالغة على روح الشاعر وإيقاعه وفكره ، وميله للتكرار والتقديم والتأخير وتأكيد الاسم والجمل الاسمية والقصد فى الكلام إلى أكبر حد ..

(BUONAPARTE)

Heilige Gefässe sind die Dichter,
Worin des Lebens Wein, der Geist
Der Helden sich aufbewahrt,

Aber der Geist dieses Jünglings
Der schnelle, müsst' er es nicht zersprengen,
Wo es ihn fassen wollte, das Gefäss ?

Der Dichter lass ihn unberührt wie den Geist der Natur,
An solchem Stoffe wird zum Knaben der Meister.

Er kann im Gedichte nicht leben und bleiben
Er lebt und bleibt in der Welt.

إلى ربات القدر*

(١٧٩٨)

جدن عليّ بصيف واحد ، يا ذوات الجبروت !
وخريف واحد لأغنيتي الناضجة
عليّ فؤادى يموت راضياً
بعد أن يشبع من الألحان العذاب .

الروح التي لم تنل حقها الإلهي في الحياة ،
لن تجد الراحة أيضاً في عالم الظلال[1] ؛
لكن لو حالفنى التوفيق فى إنشاء القصيد ،
— وهو الذى أقدسه ويهيم به الفؤاد —

فمرحباً بك إذاً ، يا سكون عالم الظلال !
سأكون راضياً ، وإن لم يصحبنى عزف أوتارى
فى رحلتى إلى أعماق الحضيض :
عشت يوماً كالآلهة ، وهذا يكفينى .

* * *

* هن ربات القدر أو الموت فى الأساطير الرومانية القديمة .

(١) فى الأصل « أوركوس » وهو عالم الموتى السفلى ومملكة الظلال والأشباح ..

(AN DIE PARZEN)

Nur e i n e n Sommer gönnt, ihr Gewaltigen !
Und e i n e n Herbst zu reifem Gesange mir,
Dass williger mein Herz, vom süssen
Spiele gesättiget, dann mir sterbe !

Die Seele, der im Leben ihr göttlich Recht
Nicht ward, sie ruht auch drunten im Orkus* nicht;
Doch ist mir einst das Heil'ge, das am
Herzen mir liegt, das Gedicht, gelungen,

Willkommen dann, o Stille der Schattenwelt !
Zufrieden bin ich, wenn auch mein Saitenspiel
Mich nicht hinabgeleitet; E i n m a l
Lebt' ich, wie Götter, und mehr bedarfs nicht.

ديوتيما
(١٧٩٨)

تسكتين وتصبرين ، وهم لا يفهمونك ،
يا أيتها الحياة الغالية ! تذبلين فى صمت ،
لأنك واحسرتاه ، تبحثين عبثاً بين البرابرة
عن أهلك فى نور الشمس ،

عن تلك الأرواح النبيلة الحنون ، التى ما عاد لها وجود !
غير أن الزمن يسرع (الخطا) . ولا زالت أغنيتى الفانية
ترى اليوم الذى تشبهك فيه . يا ديوتيما ، وتسميك
بعد الآلهة ومع الأبطال .

* * *

(DIOTIMA)

Du schweigst und duldest, und sie verstehn dich nicht,
Du heilig Leben ! welkest hinweg und schweigst,
Denn ach ! vergebens bei Barbaren
Suchst du die Deinen im Sonnenlichte,

Die zärtlichgrossen Seelen, die nimmer sind !
Doch eilt die Zeit. Noch siehet mein sterblich Lied
Den Tag, der, Diotima ! nächst den
Göttern mit Helden dich nennt und dir gleicht.

دعاء بالغفران
(١٧٩٨)

أيها الكائن المقدس ! كثيراً ما أقلقت
راحتك الذهبية الإلهية . ومنى تعلمت
بعض أحزان الحياة
شديدة العمق والخفاء .

آه ! انسى ذاك ، واغفرى لى ! فسوف أمضى
كما تمضى تلك السحب التى تغطى القمر الوديع .
أما أنت ، أيها النور الحلو . فسوف تستريحين
ويسطع جمالك من جديد .

* * *

(ABBITTE)

Heilig Wesen ! gestört hab' ich die goldene
Götterruhe dir oft, und der geheimeren,
Tiefern Schmerzen des Lebens
Hast du manche gelernt von mir.

O vergiss es, vergib ! gleich dem Gewölke dort
Vor dem friedlichen Mond, geh' ich dahin, und du
Ruhst und glänzest in deiner
Schöne wieder, du süsses Licht !

دورة الحياة *
(١٧٩٨)

تطلعت روحى إلى السماء ، غير أن الحب
جذبها (إلى الأرض) جذباً جميلا ؛
والعذاب قهرها بقوة ؛
هكذا أعبر قوس الحياة
وأعود إلى حيث جئت .

* * *

(L E B E N S L A U F)

Hoch auf strebte mein Geist, aber die Liebe zog
Schön ihn nieder; das Leid beugt ihn gewaltiger;
So durchlauf' ich des Lebens
Bogen und kehre, woher ich kam.

* بمعنى العودة إلى الأصل والمنبع وتعلم المرء ما هو خاص به . وينبغى أن نفهم قصائد هلدرلين العديدة عن الرجوع إلى الوطن بهذا المعنى الوجودى الشامل – إن صح استخدام لفظ الوجودية فى هذا المقام – لا بالمعنى القومى الضيق .

الذنب الذى لا يغتفر
(١٧٩٨)

إن نسيتم أصدقاءكم ، إن هزأتم بالفنان ،
ونظرتم للعقل العميق نظرة السوقة والصغار ،
فليغفر الله لكم ، لكى لا تزعجوا أبداً
سلام المحبين .

* * *

(DAS UNVERZEIHLICHE)

Wenn ihr Freunde vergesst, wenn ihr den Künstler höhnt,
Und den tieferen Fleiss klein und gemein versteht,
Gott vergibt es, doch stört nur
Nie den Frieden der Liebenden.

إلى شعراء الشباب
(١٧٩٨)

أيها الاخوة الأعزاء ! ربما نضج فننا عن قريب
بعد ما اختمر . كالفتيان ، وقتاً طويلا ،
وبلغ سكون الجمال .
المهم أن تكونوا أتقياء (بالروح) كما كان اليونان !

أحبوا الآلهة واعطفوا على الفانين[١] !
اكرهوا نشوة السكر . كما تكرهون الصقيع !
لا تعظوا ولا تصفوا . وإذا أخافكم الأساتذة[٢]
فالتمسوا النصح من الطبيعة العظيمة .

(AN DIE JUNGEN DICHTER)

Liebe Brüder ! es reift unsere Kunst vielleicht,
Da, dem Jünglinge gleich, lange sie schon gegärt,
Bald zur Stille der Schönheit;
Seid nur fromm, wie der Grieche war !

Liebt die Götter und denkt freundlich der Sterblichen !
Hasst den Rausch, wie den Frost ! lehrt und beschreibet nicht !
Wenn der Meister euch ängstigt,
Fragt die grosse Natur um Rat.

---

(١) حرفيا : فكروا فى الفانين بعطف ومودة .

(٢) حرفيا : إذا أخافكم المعلم أو الأستاذ ، والمعنى يحتمل كذلك أدعياء الأستاذية والعلم ، وهم نكبة كل عصر وجيل ..

إلى الألمان *
(١٧٩٨)

لا تسخروا بالطفل الذى يتصور نفسه أشجع الفرسان[١]
وهو على صهوة الحصان الخشبى (وفى يده) السوط واللجام ،
لأنكم كذلك أيها الألمان
فقراء فى الأفعال أغنياء بالأوهام[٢] .

أم هل يأتى الفعل من الأفكار
كما يأتى الشعاع من السحاب[٣]؟ هل تدب الحياة فى الكتب عن قريب ؟
آه أيها الأحباب ، خذونى إذاً ،
حتى أكفر عن خطيئتى وتجديفى .

* * *

* تختلف صيغة هذه القصيدة بعض الشىء عن صيغتها التى تجدها فى الفصل الثالث من الكتاب . ومن المعروف أن هلدرلين كان دائم النظر والتعديل والمراجعة لشعره .

(١) حرفيا : الذى يتصور نفسه شجاعاً وعظيما .

(٢) حرفيا : الأفكار ، ولكن المقصود بالمعنى هو الأوهام والخيالات كما فطن لذلك المترجم الإنجليزى .

(٣) فى الصيغة الثانية لسنة ١٧٩٩ : ولكن هل يأتى الفعل ناصعاً وناضجاً من الأفكار كما يأتى الشعاع من السحاب ؟ وهل تتبع الثمرة الكتابة الهادئة ، كمثل الورقة المظلمة فى البستان ؟ .

(AN DIE DEUTSCHEN)

Spottet ja nicht des Kinds, wenn es mit Peitsch' und Sporn
Auf dem Rosse von Holz mutig und gross sich dünkt.
Denn, ihr Deutschen, auch ihr seid
Tatenarm und gedankenvoll.

Oder kömmt, wie der Strahl aus dem Gewölke kömmt,
Aus Gedanken die Tat ? Leben die Bücher bald ?
O ihr Lieben ! so nehmt mich,
Dass ich büsse die Lästerung !

سقراط وألكبياديس *
(١٧٩٨)

« لِمَ ، يا سقراط الأقدس ،
تمجد هذا الفتى على الدوام ؟ ألا تعرف شيئاً أعظم منه ؟
لِمَ تتطلع عينك إليه فى حب
كأنما تتطلع للآلهة ؟ »

من تفكر فى أعمق الأشياء ، أحب أوفرها حياة ،
ومن نظر فى العالم ، فهم طموح الشباب .
وكثيراً ما ينحنى الحكماء
للجميل فى نهاية المطاف .

* * *

(SOKRATES UND ALKIBIADES)

,,Warum huldigest du, heiliger Sokrates,
Diesem Jünglinge stets ? kennest du Grössers nicht,
Warum siehet mit Liebe,
Wie auf Götter, dein Aug' auf ihn ?''

Wer das Tiefste gedacht, liebt das Lebendigste.
Hohe Tugend versteht, wer in die Welt geblickt,
Und es neigen die Weisen
Oft am Ende zu Schönem sich.

---

* الكبياديس (٤٥١ – ٤٠٤) أحب تلاميذ سقراط إلى نفسه ، وصداقتهما مضرب الأمثال. تيتم فى صغره فرباه بركليس وأصبح أحد قواد أثينا وساستها ..

أغنية هيبريون إلى القدر [١]
(١٧٩٨)

أنت تسيرين هناك فى النور
على أرض ناعمة ، يا أيتها الأرواح المباركة !
النسمات الإلهية الوضيئة
تلمسكم لمساً خفيفاً
مثل أصابع العازفة
على الأوتار المقدسة .

بلا قدر ، كالرضيع النائم
يتنفس الإلهيون ؛
أعفاء مصونين
فى البرعم الطيب [٢].
تزدهر أرواحهم أبداً
وعيونهم المباركة
تطل فى هدوء
وصفاء خالد .

أما نحن فكتب علينا ،
ألا نهدأ فى موضع
والبشر المعذبون
يتلاشون ويسقطون
كالعميان من ساعة لأخرى ،
كما تندفع المياه
على مر السنين
من صخرة لصخرة ،
إلى الهاوية الغامضة .

---

(١) ترد هذه الأغنية على لسان هيبريون فى الكتاب الثانى من الجزء الثانى من الرواية وينشدها البطل فى لحظة انتظار غامض لما سيأتى به المستقبل ، بعد أن أخفقت ثورة التحرير وودع صديقه وحبيبته التى سيبلغه خبر موتها بعد قليل . وقد أخذ الأغنية كما يقول فى أيام الصبا عن معلمه آداماس .
(٢) حرفيا : المتواضع ..

(HYPERIONS SCHICKSALSLIED)

Ihr wandelt droben im Licht
Auf weichem Boden, selige Genien !
Glänzende Götterlüfte
Rühren euch leicht,
Wie die Finger der Künstlerin
Heilige Saiten.
Schicksallos, wie der schlafende
Säugling, atmen die Himmlischen;
Keusch bewahrt
In bescheidener Knospe
Blühet ewig
Ihnen der Geist,
Und die seligen Augen
Blicken in stiller
Ewiger Klarheit.
Doch uns ist gegeben,
Auf keiner Stätte zu ruhn,
Es schwinden, es fallen
Die leidenden Menschen
Blindlings von einer
Stunde zur andern,
Wie Wasser von Klippe
Zu Klippe geworfen,
Jahrlang ins Ungewisse hinab.

خمس ابيجرامات[١]
(١٧٩٩)

إلى نفسه[٢]

تعلم الفن فى الحياة ، وتعلم الحياة فى العمل الفنى ،
إن رأيت أحدهما رؤية صحيحة ، فسوف ترى الآخر كذلك .

* * *

FUNF EPIGRAMME

(*Pros Heauton* π *P O* Σ *E A Y T O N*)

Lern im Leben die Kunst, im Kunstwerk lerne das Leben,

Siehst du das Eine recht, siehst du das andere auch.

---

(١) فضلت الإبقاء على الكلمة اليونانية الأصل التى كانت تدل بمعناها الحرفى على النقش الذى يكتب عادة على القبور والتماثيل والقرابين والأبنية والأعمال الفنية المختلفة للإشارة إلى مناسبتها أو معناها فى عبارات أو أبيات شديدة الإيجاز ، ثم تطور منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد حتى أصبح فناً أدبياً قائماً بذاته يعبر عن العواطف والأفكار المتصلة بالموضوع الذى يكتب عليه النقش ، ويحمل طابعاً فلسفياً وأخلاقياً يجعله أشبه بالحكم المأثورة . ويقال إن الشاعر سيمونيدس (من ٥٥٦ إلى ٤٦٨ ق.م) هو أول من أسس فن الإبيجرام بما نسب إليه من أبيات نقشت على قبور اليونان الذين سقطوا فى حروبهم مع الفرس . ومن أهمها هذا الإبيجرام المشهورة : « أيها المتجول العابر ، إن جئت يوماً إلى إسبرطه فأخبرهم هناك أنك رأيتنا هنا راقدين ، امتثالا لأمر القانون) ثم جاء بعده أيسخلوس (الذى ينسب إليه إبيجرام ماراتون) وأفلاطون ، إلى أن وصل إلى قمة نضجه على يد الشعراء فى العصر الهلينى والسكندرى (مثل كاليماخوس وليونيداس التارنتى وأسكلبيادس وتزايد عدده بحيث وصل فى مجموعات الشعر اليونانى إلى حوالى ٣٦٠٠ إبيجرام ، وعن السكندريين أخذ الشعراء الرومان بخاصة مارتيال (من حوالى سنة ٤٠ إلى ١٠٢) الذى أعطاه طابع السخرية ، ثم عرف عند بقية الشعوب الأوربية . .

(٢) العنوان الأصلى مكتوب باليونانية (بروس هيآوتون) ...

سوفوكليس ⁘

كثيرون حاولوا عبثاً أن يعبروا عن غاية الفرح تعبيراً فرحاً
وأخيراً وجدته هنا فى الحزن والنواح .

* * *

(SOPHOKLES)

Viele versuchten umsonst das Freudigste freudig zu sagen
Hier spricht endlich es mir, hier in der Trauer sich aus.

الشاعر الغاضب

لا تخافوا الشاعر عند ما يغضب غضبه النبيل ،
إن حرفه يقتل ، ولكن روحه تحيي الأرواح .

* * *

(DER ZÜRNENDE DICHTER)

Fürchtet den Dichter nicht, wenn er edel zürnet, sein Buchstab'
Tötet, aber es macht Geister lebendig der Geist.

العابثون

أتعبثون أبداً وتمزحون ؟ لا مفر لكم من هذا يا أصحاب .
هذا شيء يحز فى نفسى ، إذ لا يضطر إليه إلا اليائسون .

* * *

(DIE SCHERZHAFTEN)

Immer spielt ihr und scherzt ? ihr müsst ! o Freunde ! mir geht dies
In die Seele, denn dies müssen Verzweifelte nur.

جذور الشر كله

الاتحاد شيء إلهي وخير ، ولكن كيف تسلط على عقول الناس
أنه لا وجود إلا « للواحد » ، و « لشيء واحد » ؟

* * *

(WURZEL ALLES UBELS)

Einig zu sein, ist göttlich und gut; woher ist die Sucht denn
Unter den Menschen, dass nur Einer und Eines nur sei ?

روسو
(١٧٩٩)

كم هى محدودة مدة أيامنا .
كنت ورأيت ودهشت ، ولقد أقبل المساء ،
نم الآن ، حيث تعبر سنوات الشعوب
على بعد سحيق .

والبعض يرى أبعد من عصره
يهديه رب للأفق الرحيب * ،
أما أنت فتقف بأشواقك على الشاطئ ،
أذى لمواطنيك ، ظل ، ولا تحبهم ،

وأولئك الذين تسميهم ، أولئك الموعودون ،
أين هم القادمون الجدد ، حتى تتدفأ بيد الصديق ،
من أين يقبلون ، حتى يتاح لك مرة واحدة
أن تجد من يسمعك ، أيها القول الوحيد ؟

القاعة لا يتردد فيها صوت ، أيها المسكين ،
وأنت كالأموات الذين لم يواروا التراب
تهيم على وجهك باحثاً عن الراحة والهدوء
وما من أحد يدلك على الطريق المرسوم .

كن راضياً إذاً ! . . . الشجرة تنمو
من تربة الوطن ، لكن أذرعتها
العاشقة الشابة تتدلى ،

* أو يدله على طريق الخلاص أو الدرب المفتوح .

وتحنى رأسها وهى تنوح .

فيض الحياة ، فيضها اللامتناهى ،
الذى . . . . * حوله ، ويخطف نوره الأبصار ،
لن يناله أبداً . ومع ذلك فهو يحيا فيه
ويدفئه ويؤثر عليه . ومنه تنبثق الثمرة .

لقد عشت ! . . وهامتك ، هامتك أنت أيضاً
تسعدها الشمس البعيدة
وأشعة أيام أجمل .
الرسل عثروا على قلبك .

سمعتهم ، فهمت لغة الأغراب ،
لمست [١] روحهم ! والمشتاق كفته إشارة ،
ومن قديم الأزمان كانت الإشارات
هى لغة الآلهة .

وعجيب . كأن عقل الإنسان من قديم الأزل
قد عرف كل ما ينمو ويصير ،
وأحاط بكنه الحياة
. . . . [٢]
تبين الكمال فى أول إشارة ،
وطار روحه الجسور كما تطير النسور
ليسبق العواصف والأنواء ،
معلناً عن آلهته القادمة . . . . . [٣] .

* * *

* ناقصة فى الأصل .
(١) حرفيا : أولت أو فسرت روحهم ، وقد تصرفت فيه بما لا يخرج عن المعنى .
(٢) ناقصة فى الأصل .
(٣) هكذا فى الأصل ، ولعل الشاعر كان ينوى أن يكمل القصيدة ثم تركها ناقصة .

(ROUSSEAU)

Wie eng begrenzt ist unsere Tageszeit.
Du warst und sahst und stauntest, schon Abend ists,
Nun schlafe, wo unendlich ferne
Ziehen vorüber der Völker Jahre.

Und mancher siehet über die eigne Zeit
Ihm zeigt ein Gott ins Freie, doch sehnend stehst
Am Ufer du, ein Argernis den
Deinen, ein Schatten, und liebst sie nimmer,

Und jene, die du nennst, die Verheissenen,
Wo sind die Neuen, dass du an Freundeshand
Erwarmst, wo nahn sie, dass du einmal
Einsame Rede, vernehmlich seiest ?

Klanglos ists, armer Mann, in der Halle dir,
Und gleich den Unbegrabenen, irrest du
Unstet und suchest Ruh und niemand
Weiss den beschiedenen Weg zu weisen.

Sei denn zufrieden! ... der Baum entwächst
Dem heimatlichen Boden, aber es sinken ihm
Die liebenden, die jugendlichen
Arme, und trauernd neigt er sein Haupt.

Des Ledens UberfluB, des Unendliche,
Das um ihn ... und dämmert, er fasst es nie.
Doch lebts in ihm und gegenwärtig,
Wärmend und wirkend die Frucht entquillt ihm.

Du hast gelebt! ... auch dir, auch dir
Erfreuet die ferne Sonne dein Haupt,
Und Strahlen aus der schönern Zeit. Es
Haben die Boten dein Herz gefunden.

Vernommen hast du sie, verstanden die Sprache der Fremdlinge,
Gedeutet ihre Seele! Dem Sehnenden war
Der Wink genug, und Winke sind
Von Alters her die Sprache der Götter.

Und wunderbar, als hatte von Anbeginn
Des Menschen Geist das Werden und Wirken all,
Des Lebens Weise schon erfahren

Kennt er im ersten Zeichen Vollendetes schon,
Und fliegt, der kühne Geist, wie Adler den
Gewittern, weissagend seinen
Kommenden Göttern voraus, ...

الحب *

(١٨٠٠)

إن نسيتم أصحابكم ، إن أسأتم إليهم جميعاً ،
– أيها العارفون بالجميل – ، إن أسأتم إلى شعرائكم ،
فليغفر الله لكم ،
لكن حاولوا دائماً أن تحترموا أرواح العشاق .

لأنى أناشدكم أن تخبرونى إن كانت الحياة
لا تزال حية فيمن عداهم ، بينما الهم الوضيع يقهر الآن كل الأشياء ؟
لهذا أيضاً يتحرك الرب من زمن طويل
فوق رؤوسنا بغير اكتراث .

لكن مهما تكن السنة باردة وعاطلة من الغناء
فى الفصل الموعود ، فسوف تبزغ الأعشاب الخضراء
من الحقل الأبيض ،
وسوف يتردد غناء طير وحيد ،

عندما تتمدد الغابة شيئاً فشيئاً ، ويترجرج النهر ،
ويهب النسيم الناعم هامساً من الجنوب (١)
فى الساعة الملائمة ،

---

* راجع قصيدة « الذنب الذى لا يغتفر » التى كتبها الشاعر قبل هذه القصيدة بسنتين لتلاحظ الفارق فى الصياغة . وقد كان هلدرلين – كما تقدم – يطيل النظر فى شعره ويعيد صياغته أكثر من مرة وفى أكثر من صورة ..

(١) حرفيا : يهب النسيم الأرق همساً من الظهر ، وقد تصرف فيها المترجم الإنجليزى على هذا النحو وجاريته فى تصرفه .

(وعندما تظهر) علامة على الزمن الأفضل

الذى نؤمن به ، فينمو الحب فريداً فى قناعته ،
فريداً فى نبله وتقواه
فوق الأرض الصلدة الموحشة ،
(الحب) ابن الرب الذى خرج منه وحده [١] .

بوركت ، بوركت أيتّها النبتة السماوية
ولتترعرعى فى ظل أنشودتى ،
عندما تغذوك قوى النكتار [٢] الأثيرى ،
وينضجك الشعاع المبدع الخلاق .

ترعرعى وصيرى غابة ! صيرى دنيا
أغنى بالروح وبالأزهار ! ولتكن لغة المحبين
هى لغة الوطن .
وليكن روحهم هو صوت الشعب !

* * *

---

(١) حرفياً : ابنة الرب ، لأن كلمة الحب ترد فى الأصل بصيغة المؤنث .
(٢) النكتار هو شراب الآلهة ، والأمبروزيا طعامها ..

(DIE LIEBE)

Wenn ihr Freunde vergesst, wenn ihr die Euern all,
O ihr Dankbaren, sie, euere Dichter schmäht,
Gott vergeb' es, doch ehret
Nur die Seele der Liebenden.

Denn, o saget, wo lebt menschliches Leben sonst,
Da die knechtische jetzt alles, die Sorge, zwingt ?
Darum wandelt der Gott auch
Sorglos über dem Haupt uns längst.

Doch, wie immer das Jahr kalt und gesanglos ist,
Zur beschiedenen Zeit aber aus weissem Feld
Grüne Halme doch sprossen,
Oft ein einsamer Vogel singt,

Wenn sich mählich der Wald dehnet, der Strom sich regt,
Schon die mildere Luft leise von Mittag weht
Zur erlesenen Stunde :
So, ein Zeichen der schönern Zeit,

Die wir glauben, erwächst einzig genügsam nah,
Einzig edel und fromm über dem ehernen,
Wielden Boden die Liebe,
Gottes Tochter, von ihm allein.

Sei gesegnet, o sei, himmlische Pflanze, mir
Mit Gesange gepflegt, wenn des ätherischen
Nektars Kräfte dich nähren,
Und der schöpfrische Strahl dich reift.

Wachs' und werde zum Wald ! eine beseeltere,
Voll entblühende Welt ! Sprache der Liebenden
Sei die Sprache des Landes,
Ihre Seele der Laut des Volks !

دورة الحياة [1]

(١٨٠٠)

أنت أيضاً تطلعت لأمر أعظم ، لكن الحب
يقهرنا جميعاً ، والعذاب أشد وطأة ،
غير أن قوسنا لا يرجع عبثاً
إلى حيث جاء !

يستوى الصعود والهبوط ! أولا تغلب الاستقامة
على الليل المقدس الذى تدبر فيه الطبيعة الصامتة
ما يقبل من أيام ؟ ألا يسود الحق
(قاع) العالم السفلى [2] شديد الالتواء ؟

هذه (هى الحقيقة) التى توصلت إليها . فأنتم أيها السماويون ،
يا من تحفظون جميع المخلوقات ، لم يسبق لكم – بقدر ما أعلم –
أن قدتم خطاى يوماً من الأيام على الطريق المستقيم ،
كما يفعل المعلمون من أبناء البشر الفانين .

فليختبر الإنسان كل شىء بنفسه ، هذا ما يقوله السماويون ،
كيما يتعلم – حين يشتد عوده بالغذاء –
أن يكون شكوراً (عارفاً بالجميل) [3] ،
ويفهم حرية الانطلاق
إلى حيث يشاء .

* * *

(١) هذه صياغة أخرى من نفس القصيدة التى كتبها الشاعر قبل ذلك بسنتين (راجع صفحة ١٧٩) .

(٢) حرفياً : أوركوس Orkus وهو عالم الأشباح والظلال فى الأساطير الرومانية القديمة .

(٣) حرفياً : أن يقدم الشكر على كل شىء ..

(LEBENSLAUF)

Grössers wolltest auch du, aber die Liebe zwingt
All uns nieder, das Leid beuget gewaltiger,
Doch es kehret umsonst nicht
Unser Bogen, woher er kommt !

Aufwärts oder hinab ! herrschet in heil'ger Nacht,
Wo die stumme Natur werdende Tage sinnt,
Herrscht im schiefesten Orkus
Nicht ein Grades, ein Recht noch auch ?

Dies erfuhr ich. Denn nie, sterblichen Meistern gleich,
Habt ihr Himmlischen, ihr Alleserhaltenden,
Dass ich wüsste, mit Vorsicht
Mich des ebenen Pfads geführt.

Alles prüfe der Mensch, sagen die Himmlischen,
Dass er, kräftig genährt, danken für Alles lern',
Und verstehe die Freiheit,
Aufzubre chen, wohin er will.

العودة للوطن

(١٨٠٠)

أيتها النسمات الرقيقة ! يا رسل إيطاليا !
وأنت وأشجار الحور (على شاطئيك) أيها النهر الحبيب .
ويا أيتها الجبال المتلاطمة كالأمواج !
أيتها القمم المشمسة جميعاً . أهذه أنت من جديد ؟

أيتها البقعة الهادئة ! فى الأحلام تجليت للمشتاق من بعيد
إثر يوم يائس حزين .
وأنت يا بيتى ، ويا رفاق لعبى ؛
يا أشجار التل المألوفة منذ سنين !

كم من زمن فات على هذا ، كم من زمن فات !
ذهبت راحة الطفل ، وذهب الشباب والحب والمراح ؛
أما أنت فلم تتغير يا وطنى .
يا وطنى المقدس الصبور .

ولأنهم يصبرون إذا صبرت . ويشاركونك الفرح
رحت تربى أبناءك أيضاً يا وطنى الغالى !
وتذكرهم حتى فى الأحلام . وهم الجاحدون .
حين يهيمون على أوجههم ويضلون .

وإذا قرت النزوات الجامحة
فى صدر الفتى المشبوب
وسكنت أمام القدر

سلم لك عن طيب خاطر .

وداعاً إذاً يا أيام الشباب ، ويادرب الحب
(المفروش) بالورود ، ويا طرقات العابر جميعاً ،
وداعاً ! واستردى حياتى وباركيها
أنت يا سماء الوطن .

(RUCKKEHR IN DIE HEIMAT)

Ihr milden Lüfte ! Boten Italiens !
Und du mit deinen Pappeln, geliebter Strom !
Ihr wogenden Gebirg ! o all ihr
Sonnigen Gipfel ! so seid ihr's wieder ?

Du stiller Ort ! in Träumen erschienst du fern
Nach hoffnungslosem Tage dem Sehnenden,
Und du mein Haus, und ihr Gespielen,
Bäume des Hügels, ihr wohlbekannten !

Wie lang ist's, o wie lange ! des Kindes Ruh'
Ist hin, und hin ist Jugend, und Lieb' und Lust,
Doch du mein Vaterland ! du heilig-
Duldendes ! siehe. du bist geblieben.

Und darum, dass sie dulden mit dir, mit dir
Sich freun, erziehst du, teures ! die Deinen auch
Und mahnst in Träumen, wenn sie ferne
Schweifen und irren, die Ungetreuen.

Und wenn im heissen Busen dem Jünglinge
Die eigenmächt'gen Wünsche besänftiget
Und stille vor dem Schicksal sind, dann
Gibt der Geläuterte dir sich lieber !

Lebt wohl dann, Jugendtage, du Rosenpfad
Der Lieb' und all ihr Pfade des Wanderers,
Lebt wohl ! und nimm und segne du mein
Leben, o Himmel der Heimat, wieder !

المغنى الأعمى
(١٨٠١)

« رفع آريس [١] الهول المخيف عن عينى »
(سوفوكليس ، مسرحية أجاكس ،
الفصل الأول ، البيت ٧٠٦)

أين أنت ، أيها الشاب اليافع الذى يوقظنى دائماً
فى الفجر مع الندى [٢] ، أين أنت أيها النور !
القلب يقظان ، لكن الليل ما فتىء يأسرنى
ويقيدنى بسحره المقدس .

كنت قديماً أهوى الإنصات عند الغسق ،
وكنت أنتظرك شغوفاً على جانب التل ، وما كان الانتظار عبثاً !
أبداً لم تخدعنى رسلك ، أيها الحبيب ، رسل الأنسام ،
فقد كنت تأتى على الدوام .

وتنفث روحك فى كل الموجودات ، على الدرب المعهود
تدلف إلى (بستان) جمالك ، أين أنت أيها النور !
القلب صحا من جديد ، لكن الليل اللامتناهى
ما زال يأسرنى ويعوق [خطاى] .

قديماً كنت أرى العُرُش [٣] خضراء ؛
وكانت الأزهار تنير لى (الطريق) كأنها عيونى ؛
ووجوه أحبابى المضيئة

(١) هو رب الحرب والشقاق عند اليونان ، وقد وردت العبارة فى الأصل باليونانية .
(٢) حرفياً : فى الساعة عند الصباح .
(٣) جمع عريش وهو ما يستظل به من الشجر والعنب .

لم تكن عنى بعيدة

وفوق الغابات وحولها كنت أرى أجنحة السماء
وهى مسافرة ، عندما كنت فى أيام الشباب ؛
وها أنذا الآن أجلس وحيداً صامتاً ،
من ساعة لأخرى وأفكارى

تصنع أشكالا من حبى وعذابى
فى أيامى المضيئة لتبتهج بها ،
وأمد سمعى بعيداً على أرى
منقذاً رحيماً يقبل نحوى .

عندئذ أسمع أحياناً فى وقت الظهيرة
صوت إله الرعد الرهيب عند ما تقترب [خطاه] ،
ويزلزل بيته وتدوى الأرض تحته
ويردد الجبل صوت الرعود .

هناك أسمع المنقذ فى الليل ،
أسمع المخلص وهو يميت ويحيى ،
رب الرعود المسرع من المغرب
إلى المشرق ، وأنت يا أوتارى

ترددين صوته ! أغنيتى تحيا معه ،
وكما أن الغدير يطيع النهر ،
كذلك أمضى وألاحق أفكاره
وأتابع الواثق بنفسه على طريق الحائرين .

إلى أين ؟ إلى أين ؟ أسمعك هنا وهناك
أيها الرائع المجيد ! وحول الأرض تتردد الألحان .

أين ينتهى بك المسير ؟ وماذا ، ماذا فوق السحب
ويا ويلى ماذا يجرى لى ؟

أيها النهار ! أيها النهار فوق السحب المتداعية !
مرحباً بك ! عينى تتفتح لك .
آه يا نور الشباب ! وآه أيتها النعمة !
النعمة القديمة التى تعود من جديد ! لكنك يا أيها النبع

تنساب من الكأس المقدسة وروحك تزداد صفاء !
وأنت أيتها التربة الخضراء ، يا مهد السلام !
وأنت يا بيت آبائى . ويا أيها الأحباب
الذين لقيتهم ذات يوم ،

اقتربوا . تعالوا ، حتى تصبح الفرحة من نصيبكم ،
تعالوا جميعاً ، حتى يبارككم من يرى !
آه خذوها حتى أقوى على الاحتمال
ارفعوا عبء الحياة المقدسة عن فؤادى .

* * *

(DER BLINDE SÄNGER)

Wo bist du, Jugendliches ! das immer mich
Zur Stunde weckt des Morgens, wo bist du, Licht ?
Das Herz ist wach, doch bannt und hält in
Heiligem Zauber die Nacht mich immer.

Sonst lauscht' ich um die Dämmerung gern, sonst harrt'
Ich gerne dein am Hügel, und nie umsonst !
Nie täuschten mich, du Holdes, deine
Boten, die Lüfte, denn immer kamst du,

Kamst allbeseligend den gewohnten Pfad
Herein in deiner Schöne, wo bist du, Licht !
Das Herz ist wieder wach, doch bannt und
Hemmt die unendliche Nacht mich immer.

Mir grünten sonst die Lauben; es leuchteten
Die Blumen, wie die eigenen Augen, mir;
Nicht ferne war das Angesicht der
Meinen und leuchtete mir, und droben

Und um die Wälder sah ich die Fittiche
Des Himmels wandern, da ich ein Jüngling war;
Nun sitz' ich still allein, von einer
Stunde zur anderen, und Gestalten

Aus Lieb und Leid der helleren Tage schafft
Zur eignen Freude nun meim Gedanke sich,
Und ferne lausch' ich hin, ob nicht ein
Freundlicher Retter villeicht mir komme.

Dann hör' ich oft die Stimme des Donnerers
Am Mittag, wenn der eherne nahe kommt,
Wenn ihm das Haus bebt und der Boden
Unter ihm drohnt und der Berg es nachhallt.

هلدرلين

Den Retter hör' ich dann in der Nacht, ich hör'
Ihn tötend, den Befreier, belebend ihn,
Den Donnerer vom Untergang zum
Orient eilen, und ihm nach tönt ihr,

Ihm nach, ihr meine Saiten! es lebt mit ihm
Mein Lied, und wie die Quelle dem Strome folgt,
Wohin er denkt, so muss ich fort und
Folge dem Sicheren auf der Irrbahn.

Wohin? wohin? ich höre dich da und dort
Du Herrlicher! und rings um die Erde tönt's.
Wo endest du? und was, was ist es
Uber den Wolken und o wie wird mir?

Tag! Tag! Du über stürzenden Wolken! sei
Willkommen mir! es blühet mein Auge dir.
O jugendlicht! o Glück! das alte
Wieder! doch geistiger rinnst du nieder

Du goldner Quell aus heiligem kelch! und du,
Du grüner Boden, friedliche Wieg'! und du,
Haus meiner Väter! und ihr Lieben,
Die mir begegneten einst, o nahet,

O kommt, dass euer, euer die Freude sei,
Ihr alle, dass euch segne der Sehende!
O nehmt, dass ich's ertrage, mir das
Leben, das Göttliche mir vom Herzen.

من أناشيد الليل

كتب هلدرلين أناشيد الليل وهو على الحافة بين قمة نضجه وهاوية جنونه ، حين بدأ يبحث لنفسه عن أسلوب شعرى جديد ولغة شعرية جديدة ، ويتخلص من البحور والأوزان الكلاسيكية التى تعلمها من ألكايوس وهوراس وغيرهما . وهى فى جملتها قصائد ذات عنوان غامض غريب ، تكتسب فيها الآلهة والأبطال معانى وأبعاداً جديدة ، وتزدحم بالصور الغريبة التى تأثرت بانطباعاته الحية فى رحلته إلى الجنوب الدافئ ، كما تزدحم بأبطال تحتاج الآلهة إليهم (لأن الآلهة — كما يقول فى قصيدته الطويلة عن نهر الراين — لا تشعر من نفسها بشىء ، ولهذا فهى فى حاجة لمن يشاركها الشعور ويغنى باسمها . . .) وهكذا نجد سقراط بجانب المسيح، وديونيزيوس بجانب روسو. وتصل الألوهية إلى الوعى بنفسها من خلال البطل والشاعر ، ولكن هذين يعرفان فداحة الثمن الذى لا بد أن يؤدياه فى سبيل ذلك . وقد دفع إمبادوقليس وهيبريون وهلدرلين نفسه هذا الثمن الفادح ، فقد طرد إمبادوقليس من بلده واختار الانتحار فى فوهة بركان إتنا ، ويئس هيبريون من الثورة الفاسدة ومن جدوى الفعل والواقع كله فتنسك كالكاهن الزاهد فى محراب الطبيعة الأم ، وعكف هلدرلين على نفسه فى هذه المرحلة الخطرة من حياته وراح يتأمل قدره البائس فى الأدب والحب والحياة . ولعل هذه الأبيات من قصيدته الطويلة التى لم يتمها — وهى قصيدة « منتصف الحياة » التى تجدها فى هذه المجموعة — أن تكشف عن حالته الروحية والعقلية فى ذلك الحين :

ويلى . أين أعثر على الأزهار
حين يأتى الشتاء
وأين أجد نور الشمس
وظلال الأرض ؟
الجدران تقف صامتة باردة
وفى الريح ترفرف الأعلام ..

* * *

أناشيد الليل
(١٨٠٣)

دموع

أيها الحب السماوى ! أيها الحنون !
ليتنى استطعت أن أنساك ، ليتنى يا بنات القدر ،
يا أيتها الناريات الغارقات فى الرماد والتراب
وكنتن قديماً مقفرات موحشات ،

(ليتنى أنساك) أيتها الجزر الحبيبة ، يا عيون دنيا العجائب !
فقد أصبحت الآن همى الوحيد الفريد ،
(وكذلك) شواطئك التى يكفر فيها الحب — عابد الأوثان — عن خطاياه
لكنه لا يكفر عنها إلا للسماويين .

لأن المقدسين والأبطال الغاضبين
قد أدوا هناك فروض العبادة فى أيام الجمال
وكانوا جميعاً من الحامدين الشاكرين ؛
والأشجار الكثيرة والمدن كانت ماثلة فى ذلك المكان ،

تراها العين أشبه برجل عاكف على التفكير ؛
أما الآن فقد مات الأبطال ، وجزر الحب
تشوهت أو كادت . لذلك لا عجب
أن يصبح الحب خداعاً وسخفاً فى كل مكان .

أيتها الدموع الرقيقة ، لا تطفئى نور عينى

كل الإطفاء ، أبقِ لى ، أيتها الحوانة المتلصصة ،
ذكرى واحدة تحيا بعدى
حتى أموت ميتة نبيلة .

* * *

(TRÄNEN)

Himmlische Liebe ! zärtliche ! wenn ich dein
Vergässe, wenn ich, o ihr geschicklichen,
Ihr feur'gen, die voll Asche sind und
Wüst und vereinsamet ohnedies schon,

Ihr lieben Inseln, Augen der Wunderwelt !
Ihr nämlich geht nun einzig allein mich an,
Ihr Ufer, wo die abgöttische
Büsset, doch Himmlischen nur, die Liebe.

Denn allzudankbar haben die Heiiigen
Gedienet dort in Tagen der Schönheit und
Die zorn'gen Helden; und viel Bäume
Sind, und die Städte daselbst gestanden,

Sichtbar, gleich einem sinnigen Mann; izt sind
Die Helden tot, die Inseln der Liebe sind
Enstellt fast. So muB übervorteilt,
Albern doch überall sein die Liebe.

Ihr weichen Tränen, löschet das Augenlicht
Mir aber nicht ganz aus; ein Gedächtnis doch,
Damit ich edel sterbe, lasst ihr
Trügrischen, Diebischen, mir nachleben.

إلى الأمل

أيها الأمل ! أيها الحبيب العطوف !
يا من لا تزورُّ عن بيت الحزانى .
وتظل . أيها النبيل . تسعى بالخير
بين أبناء الفناء وقوى السماء .

أين أنت ؟ عشت قليلا . لكن مسائى
ينفث أنفاسه الباردة . وها أنذا أجلس هنا فى سكون
كالظلال . وقلبى المرتجف
ينعس فى صدرى محروماً من الغناء .

فى الوادى الأخضر . هناك حيث ينساب الغدير النضير
كل يوم من الجبل . وتتفتح (أغصان) الزعفران الفاتنة
فى أحد أيام الخريف . هناك فى ظل السكون
أريد أيها الجميل الرقيق

أن أفتش عنك . أو عند ما تموج الحياة غير المنظورة
فى البستان إذا انتصف الليل .
وتلمع فوق النجوم المتفتحة (اليانعة)
هذه الأزهار الدائمة الفرحة .

هناك أطلّ يا ابن الأثير
من حدائق أبيك ! وإذا لم يقدر لك
أن تأتى على هيئة روح الأرض .
فافزع قلبى . أفزعه برؤية أخرى .

* * *

(AN DIE HOFFNUNG)

O Hoffnung ! holde ! gütiggeschäftige !
Die du das Haus der Trauernden nicht verschmähst,
Und gerne diened, Edle ! zwischen
Sterblichen waltest und Himmelsmächten,

Wo bist du ? wening lebt' ich; doch atmet kalt
Mein Abend schon. Und stille, den Schatten gleich,
Bin ich schon hier; und schon gesanglos
Schlummert das schaudernde Herz im Busen.

Im grünen Tale, dort, wo der frische Quell
Vcm Berge täglich rauscht, und die liebliche
Zeitlose mir am Herbsttag aufblüht,
Dort, in der Stille, du Holde, will ich

Dich suchen, oder wenn in der Mitternacht
Das unsichtbare Leben im Haine wallt,
Und über mir die immerfrohen
Blumen, die blühenden Sterne, glänzen,

O du des Äthers Tochter ! erscheine dann
Aus deines Vaters Gärten, and darfst du nicht
Ein Geist der Erde, kommen, schröck', o
Schröcke mit anderem nut dar Herz mir.

عصور

يا مدائن الفرات !
يا حارات تدمر* !
يا غابات الأعمدة فى سهول الصحراء ،
ما أنت[١] ؟
قممك وذراك
انتزعتها منك النار ودخان السماويين
لما اجتزت حدود الأنفاس ؛
أما الآن فإنى أجلس تحت السحب
(من كل منها ينبعث سلام خاص)
فى ظل أشجار البلوط المنسقة ،
وعلى مرج (تمرح فيه) الأيائل
تبدو لى أرواح المباركين
غريبة وميتة .

* * *

---

(١) أى ما حقيقتك ، وقد أبقيت على صيغة السؤال الأصلية بعداً عن الترجمة المفسرة قدر الإمكان .

* فى الأصل پالميرا Palmyra وهى فى الآرامية مدينة النخيل .

(LEBENSALTER)

Ihr Städte des Euphrats !
Ihr Gassen von Palmyra !
Ihr Säulenwälder in der Eb'ne der Wüste,
Was seid Ihr ?
Euch hat die Kronen,
Dieweil ihr über die Grenze
Der Omenden seid gegangen,
Von Himmlischen der Rauchdampf und
Hinweg das Feuer genommen;
Jetzt aber sitz'ich unter Wolken (deren
Ein jedes eine Ruh'hat eigen) unter
Wohleingerichteten Eichen, auf
Der Heide des Rehs, und fremd
Erscheinen und gestorben mir
Der Seligen Geister.

منتصف الحياة

بالكمثرى الصفراء
والوردات البرية
يتدلى الشاطىء
فى ماء بحيرة ،
أيتها البجعات الحلوة ،
خمر القبلات أشاعت
فيك النشوة ،
وغمست رؤوسك
فى الماء الطاهر
ويلى ، لو جاء شتاء
أين سأقطف أزهارى
وألاقى نور الشمس
وظل الأرض ؟
تبدو الجدران أمامى
باردة خرساء
والرايات
ترفرف فى الريح .

* * *

(HÄLFTE DES LEBENS)

Mit gelben Birnen hänget
Und voll mit wilden Rosen
Das Land in den See,
Ihr holden Schwäne,
Und trunken von Küssen
Tunkt ihr das Haupt
Ins heilignüchterne Wasser.

Weh mir, wo nehm' ich, wenn
Es Winter ist, die Blumen, und wo
Den Sonnenschein
Und Schatten der Erde ?
Die Mauern stehn
Sprachlos und kalt, im Winde
Klirren die Fahnen.

أشعار من مرحلة جنونه *
(١٨٠٥ - ١٨٤٣)

إلى تسيمر
(١٨١٢)

إن خطوط الحياة متنوعة
تنوع الدروب وحدود الجبال .
ما نحن هنا يمكن أن يكمله رب هناك
بالانسجام والثواب الأبدى والسلام .

* * *

(AN ZIMMERN)

Die Linien des Lebens sind verschieden,
Wie Wege sind, und wie der Berge Grenzen,
Was hier wir sind, kann dort ein Gott ergänzen
Mit Harmonien und ewigem Lohn und Frieden.

---

* انظر الفصل الأخير من الكتاب لتجد فيه قصائد أخرى كتبها عن فصول السنة .

إلى تسيمر [١]
(حوالى سنة ١٨٢٥)

إذا كان الرجل طيباً وحكيماً
قلت عنه : ما الذى يحتاج إليه ؟
أهناك شىء يمكن أن يشبع روحه ؟
هل ينمو على هذه الأرض عود من العشب أو كرمة ناضجة
يمكن أن تغذيه ؟ إليك معنى هذا القول :
غالباً ما يكون الصديق هو الحبيبة ، وفى أكثر الأحيان
يكون هو الفن . أيها الغالى ، إنى أصارحك بالحقيقة .
روحك هى روح دادالوس [٢] والغابة . .

* * *

(AN ZIMMERN)

Von einem Menschen sag ich, wenn der ist gut
Und weise, was bedarf er ? Ist irgend eins
Das einer Seele gnüget ? ist ein Halm, ist
Eine gereifteste Reb' auf Erden

Gewachsen, die ihn nähre ? Der Sinn ist des
Also. Ein Freund ist oft die Geliebte, viel
Die Kunst. O Teurer, dir sag ich die Wahrheit.
Dädalus Geist und des Walds ist deiner.

---

(١) هو النجار الطيب الذى آواه فى بيته ورعاه .

(٢) مهندس إغريقى ، يقال إنه صمم المتاهة الشهيرة التى حبس فيها الوحش الخرافى (المينوطاوروس) الذى كان نصفه إنساناً والنصف الآخر ثوراً وظلت أثينا تقدم له القرابين من الشباب حتى قتله ثيسيوس . وقد أمر الملك مينوس بحبس المهندس المسكين فى هذه المتاهة ولكنه استطاع أن يفلت منها عندما صنع لنفسه جناحين من الشمع والريش ساعداه على الطيران . .

اقتناع (١)
(١٨٤١)

كمثل ما يغمر النهار البشر بضوئه
وبالنور الذى ينبثق من الأعالى ،
ويؤلف بين الظواهر الغائمة ،
كذلك الشأن مع المعرفة التى يسبر العقل أغوارها . .

* * *

(U B E R Z E U G U N G*)

Alswie der Tag die Menschen hell umscheinet,
Und mit dem Lichte, das den Höh'n entspringet,
Die dämmernden Erscheinungen vereinet,
Ist Wissen, welches tief der Geistigkeit gelinget.

---

(١) يقال إن هلدرلين كتب هذه القصيدة فى نسخة المجموعة الأولى من قصائده وذلك عندما قدمها إليه صديقه ومؤرخ حياته كرستوفر شفاب وألح عليه أن يكتب فيها شيئاً بخط يده . والمعروف أنه كان يتردد عليه كثيراً فى بيت النجار الذى كان يؤويه ..

خبز ونبيذ *
(إلى هينسه)
(١٨٠٠)

١

المدينة يشملها الهدوء ، الشارع المضاء أخلد للسكون ،
والعربات المزدانة بالمشاعل تهدر على الطريق .
الرجال الذين شبعوا من مباهج النهار راجعون إلى بيوتهم ليرتاحوا ،
ورأس مدبر يزن الربح والخسارة فى بيته وهو راض ؛
السوق المزدحم أقفر من الأعناب والأزهار ،
ومن السلع التى صنعتها أيدى الناس .
لكن رنين الأوتار يسمع من بعيد وهو يرف آتياً من البساتين ؛
ربما كان هناك عاشق يعزف ألحانه أو رجل وحيد
يتذكر شبابه وأصحابه البعيدين ؛
والينابيع الرطبة لا تزال تتدفق وتنثر رذاذها على حوض الزهور الذى يفوح منه العبير .
فى الهواء الشاحب الضوء تتردد أصداء الأجراس فى هدوء ،
وأحد الحراس ينبه للساعات ويهتف بالأرقام .
وتأتى الآن نسمة وتحرك ذرى الأشجار فى البستان ،
انظر ! ها هو ذا القمر — وهو ظل أرضنا — يأتى أيضاً على استحياء ؛
ويأتى الليل الحالم الذى ترصعه النجوم ولا يعيرنا عبر قليل من الاهتمام ،
الليل المدهش الغريب بين البشر ،
يتألق هناك فى حزن وروعة فوق أعالى الجبال . .

---

* نشر أستاذنا الدكتور عبدالرحمن بدوى ترجمة شعرية لهذه القصيدة فى كتابه فى الشعر الأوربى المعاصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ص ٣٢ — ٤٧ ، ١٩٦٥ ، وقد آثرت الترجمة النثرية بعداً عن التصرف قدر الإمكان .

٢

عجيبة هى نعمة هذا النيل الجليل وما من أحد يدرى
من أين ولا ما الذى يصيبه منه .
هكذا يحرك الكون وروح البشر المفعمة بالرجاء ،
والحكماء أنفسهم لا يفهمون شيئاً عن تدابيره ،
فتلك هى مشيئة رب الأرباب الذى يؤثرك بالحب العظيم ،
ولهذا فما يزال النهار الأريب أعز عليك من الليل .
لكن العين الصافية أيضاً قد تحب ظلاله
وتعالج النوم لتستمتع به قبل أن تشتد حاجتها إليه ،
وقد يحلو للرجل الوفى أن يتملىّ الليل فى سرور ،
بل قد يخلق بالناس أن يقدموا له الأكاليل والأناشيد ،
لأنه مقدس لدى التائهين والأموات ،
وإن بقى إلى الأبد ثابتاً متحرر الفكر والروح .
لكن عليه أيضاً أن يمنحنا النسيان والنشوة المقدسة
حتى نجد شيئاً تتشبث به فى لحظة التردد وفى غياهب الظلام ،
وعليه أن يمنحنا الكلمة المتدفقة التى يهجرها النعاس
كما يهجر [جفون] العشاق ،
ويهبنا الكأس المترعة والحياة الجسورة
والتذكار المقدس أيضاً لنقضى الليل ساهرين . .

٣

كذلك نحاول عبثاً أن نخفى القلوب فى الصدور ، ونحاول عبثاً
– من صبية ومعلمين متمرسين – أن نكبح جماح الإقدام ،
فمن ذا الذى يمكنه أن يقف فى وجهه ، من ذا الذى يحرم علينا الابتهاج ؟
والنار الإلهية أيضاً تحفزنا بالليل والنهار على الانطلاق .

هيا إذن نطالع الأفق الرحيب (١) ،

ونلتمس (الحقيقة) التي تعبر عن نفوسنا(٢) ، مهما تكن بعيدة [الدار] .

أمر واحد لا سبيل للشك فيه ؛ وسواء أكان ذلك في وقت الظهيرة

أم امتد به الزمن إلى منتصف الليل ، فهناك مقياس ثابت على الدوام

يشارك فيه الجميع ، وإن يكن كذلك لكل واحد نصيب مقسوم ،

وكل منا يغدو ويروح إلى حيث يستطيع .

ولهذا قد يطيب للجنون المرح أن يسخر بالسخرية ،

إذا تمكن في الليل المقدس فجأة من المنشدين .

تعال إذاً إلى البرزخ(٣) ! حيث يهدر البحر الواسع بالقرب من البارناس(٤)

والثلج يلمع فوق صخور دلفي (٥) ،

إلى بلاد الأوليمب (٦) ، وقمة كيثايرون (٧) ،

هناك بين أشجار الصنوبر والشربين ، بين الأعناب والكروم ،

إلى حيث ترقد « طيبة » في الوادي

ويهدر « أزمينوس » في بلاد كادموس (٨) ؛

فمن هناك أقبل الرب القادم وإليها يشير .

٤

يا بلاد اليونان المباركة ! أنت يا منزل السماويين أجمعين ،

---

(١) حرفياً : هيا إذن نشاهد « المنفتح » أو المفتوح .

(٢) حرفياً : ونلتمس الشيء الخاص بنا .

(٣) المقصود هو برزخ كورنثه في بلاد اليونان .

(٤) سلسلة جبال جيرية ضخمة في وسط بلاد اليونان تسمى الآن ليا كورا ، وكان اليونان يعتقدون أنها مقر ربات الفنون . ولا زالت الكلمة ترمز لفن الشعر ومهبط وحي الشعراء .

(٥) مدينة قديمة تقع في الجزء الجنوبي الغربي من منطقة فوكيس وكان فيها معبد أبوللو الذي اشتهر بالنبوءات التي كان اليونان يلتمسونها منه في أوقات المحن والأزمات .

(٦) أعلى جبال بلاد اليونان ، وكانوا يعتقدون أنه مقر رب الأرباب زيوس وباقي الآلهة .

(٧) جزيرة تقع في البحر الإيجي ، بين البيلوبينيز وكريت وكان فيها معبد للربة أثينا .

(٨) يقال إنه هو الذي أسس مدينة طيبة امتثالا للنبوءة التي تلقاها من دلفي . .

أحق ما سمعناه عنك فى أيام الشباب ؟
وعن بهو الاحتفالات ، وأرضه كالمحيط ، وموائده كالجبال ،
وقد بنى لغرض واحد من أقدم الأزمان ؟ !
لكن أين العروش ؟ أين المعابد والأوانى
التى كانت تملأ بالنكتار (١) لإسعاد الآلهة ، وأين الغناء ؟
أين ، أين تتألق إذاً نبوءات الوحى ذات المرمى البعيد ؟
« دلفى » تغط فى النعاس وأين يتردد صوت القدر العظيم ؟
أين ذلك الخفيف السريع ! أين ينشق بصوت الرعد من السماوات الصافية
وهو يفيض بالسعادة الغامرة ويشرق لعيون الفانين ؟
يا أبانا الأثير ! هكذا هتفوا وطار النداء من لسان للسان
وتضاعف [رنينه] آلاف المرات ، وما من أحد استطاع
أن يتحمل وحده عبء الحياة ؛
وتوزع هذه الثروة فتدخل البهجة على النفوس ، ويتبادلونها مع الأغراب
فتنقلب إلى فرح وتهليل ، وتنمو قوة الكلمة وهى مستسلمة للنعاس :
يا أبانا ! أيها الأثير الصافى ! وتنتشر أصداء الإشارة القديمة
التى ورثوها عن الأباء ، وتهز وتخلق بقدر ما تستطيع .
فهكذا يجىء السماويون ، ويصل نهارهم الذى يزلزل الأعماق
إلى البشر من عالم الظلام والظلال .

٥

يأتون فى مبدأ الأمر دون أن يفطن إليهم أحد ، ويندفع نحوهم الأطفال ،
ويقبل الحظ معهم ، باهر الضياء يعشى الأبصار ،
ويهابهم الإنسان ويوشك حتى نصف إله
ألا يعرف أسماء المقبلين عليه بالنعم والعطايا .
لكن شجاعتهم فائقة ، ومباهجهم تملأ قلبه ،

---

(١) شراب الآلهة .

وهو لا يكاد يدرى كيف يتصرف فى ثروته ،
فينشط للعمل ، ويبذرها ويكاد يقدس أشياء مدنسة
باركتها لمسة يده فى حمق وحنان .
يصبر السماويون على هذا بقدر ما يستطيعون .
ثم لا يلبثون أن يظهروا بأنفسهم ، ويعتاد الناس
الحظ الطيب والنهار ويألفون رؤية من تجلوا لهم
ومطالعة وجوه أولئك الذين دعوا من قديم الزمن باسم الواحد والكل
وأفرغوا الاعتزاز والرضا فى القلب الكتوم ،
وكانوا وحدهم أول من أرضى الشوق ولبى الحاجات ؛
هكذا الإنسان ، حين تكون الثروة بين يديه
ويؤثره الرب نفسه بالنعم والهدايا
لا يفطن إليها ولا يراها .
عليه أولا أن يتحمل ويقاسى . لكنه الآن يسمى أعز الأحباب إلى نفسه ،
ولا بد الآن أن تتفتح الكلمات التى تدل عليه كما تتفتح الأزهار .

٦

وهو الآن يفكر جادًّا فى إكرام الآلهة المباركين ،
وكل شىء يرى من واجبه أن يتجه إليهم بأصدق الحمد والثناء .
لا ينبغى لشىء أن يرى النور إن لم يرض عنه الأعلون ،
وغير خليق بالأثير كل سعى فارغ لاه .
لهذا تنهض الشعوب وتصطف صفوفاً رائعة[١]
لتقف وقفة أبية فى حضرة السماويين
وتتنافس على المجد وتشييد المعابد والمدن الجميلة
التى ترتفع عالية فوق الشواطئ والضفاف . . .
ولكن أين هم ؟ أين يزدهر أولئك الأغنياء عن التعريف ، تيجان المهرجان ؟

(١) فى أنظمة أو على ترتيب متسلسل رائع .

طيبة تذبل وأثينا ؛ ألم تعد الأسلحة تصلصل فى أوليمبيا ،
ولا العربات الذهبية التى كانت تهدر فى الألعاب ،
وهل أصبحت سفن كورنثة عارية من الأكاليل ؟
ولماذا صمتت أيضاً المسارح القديمة المقدسة ؟
لماذا لا يبتهج الرقص المكرس [للآلهة] ؟
لماذا لا يطبع رب جبهة الرجل كما كان يفعل من قبل ،
ولا يختم بخاتمة من أصابه بسهمه[١] ؟
أم هل جاء بنفسه وتقمص هيئة إنسان
وأتم العيد السماوى وبالمواساة أنهاه ؟

٧

لكننا يا صديق قد أتينا جد متأخرين . صحيح أن الآلهة حية ،
لكنها تحيا فوق رؤوسنا ، هناك فى عالم مختلف .
هناك يعملون بغير حدود ، ولا يبدو عليهم أنهم يحفلون كثيراً بوجودنا ،
فهكذا يرأف السماويون بحالنا ويسبغون رحمتهم علينا[٢] .
إذ ليس فى وسع إناء هش أن يحتويهم
ولا يقدر الإنسان أن يحتمل كمالهم[٣] إلا فى بعض الأحيان .
لهذا كانت حياتنا حلماً يطوف بهم . غير أن الحيرة[٤] تعين ،
كما يعين النعاس ، والمحنة والليل يجعلاننا أقوياء ،
حتى ينمو عدد كاف من الأبطال فى المهد الحديدى ،
وتصبح الأفئدة فى قوتها شبيهة بالسماويين .
هنالك يأتون بصوت الرعود . ويبدو لى فى هذه الأثناء

---

(١) حرفياً : ولا يختم من أصابه .
(٢) حرفياً : فهكذا يرأف السماويون بنا رأفة شديدة .
(٣) حرفياً : وفرتهم وامتلاءهم وجودهم Fülle, plenitude
(٤) أو التيه والضلال .

أن من الخير لى أن أنام
على أن أكون بغير صحاب دائم الانتظار كما هى حالى الآن ،
ولست أدرى عندئذ ماذا أفعل وأقول ،
ولم الشعراء فى الزمن الضنين ؟
لكنهم ، كما تقول ، مثل كهنة رب الخمر المقدسين ،
الذين سروا فى الليل المقدس من بلد إلى بلد .

٨

لأنهم لما صعدوا جميعاً إلى السماء ، وهم الذين أشاعوا السعادة فى الحياة ،
وكان ذلك من زمن يبدو لنا اليوم بعيداً .
ولما حول الأب وجهه عن البشر ،
وبدأ الحداد — بحق — يخيم على الأرض ،
ولما تجلى آخر الأمر روح هادئ
يحمل معه العزاء من السماء ، وأعلن نهاية النهار ثم غاب ،
تركت الجوقة السماوية وراءها بعض الهدايا ،
— علامة على أنها كانت هنا وسوف تعود —
وابتهجنا بهذه الهدايا كما فعل الناس من قبل ،
إذ أن بهجة الروح قد زادت عظائم الأمور عظمة بين البشر ،
وما زلنا نفتقر إلى الأقوياء القادرين
على التمتع بأسمى المباهج والأفراح ،
وإن كان بعض العرفان بالجميل لا يزال يحيا فى صمت وسكون .
الخبز ثمرة الأرض ، ولكن النور يباركه ،
ومن رب الرعود تأتى مسرة النبيذ .
لهذا يطيب لنا أن نتذكر السماويين ،
الذين كانوا هنا ذات يوم وسوف يعودون
عندما يثين الأوان ،

ولهذا يترنم المنشدون أيضاً برب النبيذ
ويبتهلون إليه بروح جاد ،
ولا يبدو باطلا ذلك الحمد والثناء على [الرب] القديم .

٩

أجل ! ويقولون بحق إنه يصالح النهار مع الليل ،
ويوجه حركة الكواكب أبد الدهر هبوطاً وعلواً ،
ويظل فرحاً فى كل الأوقات كأغصان شجرة الصنوبر المخضرة على الدوام
التى يحبها ، وكالإكليل الذى انتقاه من أعواد اللبلاب
لأنه يدوم ويبلغ آثار الأرباب الغائبين أنفسهم
للجاحدين [١] الذين يعيشون فى هاوية الظلام [٢] .
انظر ! نحن الذين تنبأت بهم أنشودة القدماء عن أطفال الله ،
نحن الذين صدقت عليهم ، وإنها لثمرة بلاد الغرب [٣] .
تحققت فى الإنسان على نحو عجيب ودقيق ،
فليؤمن بها كل من ثبتت لديه ! غير أن أموراً كثيرة تحدث ،
ولا شيء منها يترك أثراً ، لأننا نظل [قساة] بلا قلوب ،
محض أشباح وظلال ، حتى نعرف أبانا الأثير
ويصبح ملكاً لنا أجمعين .
لكن السورى ، ابن الرب الأعلى [٤] ، يهبط فى هذه الأثناء
إلى الظلال وهو يهز مشعله ، ويراه الحكماء المباركون ،
وتشرق الابتسامة فى النفس السجينة ،

---

(١) أو الكافرين المجدفين .

(٢) حرفياً : فى الظلام السفلى .

(٣) حرفياً : هسبيريا وكانت عند الإغريق هى البلاد الواقعة فى اتجاه الغرب أو إيطاليا ، أما الرومان فكانوا يطلقون الكلمة على إسبانيا .

(٤) السيد المسيح .

ويذيب النور [الثلج المتجمد] فوق عيونهم [١] .
ويحلم « التيتان » [٢] بين ذراعى الأرض وينعم بالنعاس ،
بل إن « سيربيروس » [٣] الحسود يشرب وينام .

* * *

(١) لم ترد كلمة الثلج فى الأصل ، ولكن الفعل الذى استخدمه الشاعر يفيد أن الأعين تتدفأ بالنور الذى تتطلع إليه فيذيب الخدر والجمود الذى يغشاها .

(٢) التيتان هم العمالقة الأسطوريون أبناء أورانوس (السماء) وجايا (الأرض) الذين ثاروا على الآلهة وأرادوا أن يصعدوا للسماء فوضعوا جبلا فوق جبل وغضب عليهم زيوس فأرسل عليهم صواعقه .

(٣) كلب وحشى يحرس الجحيم (الأساطير اليونانية) ، وقد ينطق اسمه بالكاف « كيربيروس » .

(BROT UND WEIN)
(AN HEINZE)

1

Rings um ruhet die Stadt; still wird die erleuchtete Gasse,
Und, mit Fackeln geschmückt, rauschen die Wagen hinweg.
Satt gehn heim von Freuden des Tags zu ruhen die Menschen,
Und Gewinn und Verlust wäget ein sinniges Haupt
Wohlzufrieden zu Haus; leer steht von Trauben und Blumen,
Und von Werken der Hand ruht der geschäftige Markt.
Aber das Saitenspiel tönt fern aus Gärten; vielleicht, daß
Dort ein Liebendes spielt oder ein einsamer Mann
Ferner Freunde gedenkt und der Jugendzeit; und die Brunnen
Immerquillend und frisch rauschen an duftendem Beet.
Still in dämmriger Luft ertönen geläutete Glocken,
Und der Stunden gedenk rufet ein Wächter die Zahl.
Jetzt auch kommet ein Wehn und regt die Gipfel des Hains auf,
Sieh ! und das Schattenbild unserer Erde, der Mond,
Kommet geheim nun auch; die Schwärmerische, die Nacht kommt,
Voll mit Sternen und wohl wenig bekümmert um uns,
Glänzt die Erstaunende dort, die Fremdlingin unter den Menschen,
Uber Gebirgeshöhn traurig und prächtig herauf.

2

Wunderbar ist die Gunst der Hocherhabnen und niemand
Weiss von wannen und was einem geschiehet von ihr.
So bewegt sie die Welt und die hoffende Seele der Menschen,

Selbst kein Weiser versteht, was sie bereitet, denn so
Will es der oberste Gott, der sehr dich liebet, und darum
Ist noch lieber, wie sie, dir der besonnene Tag.
Aber zuweilen liebt auch klares Auge den Schatten
Und versuchet zu Lust, eh'es die Not ist, den Schlaf,
Oder es blickt auch gern ein treuer Mann in die Nacht hin,
Ja, es ziemet sich, ihr Kranze zu weihn und Gesang,
Weil den Irrenden sie geheiliget ist und den Toten,
Selber aber besteht, ewig, in freiestem Geist.
Aber sie muss uns auch, dass in der zaudernden Weile,
Dass im Finstern für uns einiges Haltbare sei,
Uns die Vergessenheit und das Heiligtrunkene gönnen,
Gönnen das strömende Wort, das, wie die Liebenden, sei,
Schlummerlos und vollern Pokal und kühneres Leben,
Heilig Gedachtnis auch, wached zu bleiben bei Nacht.

3

Auch verbergen umsonst das Herz im Busen, umsonst nur
Halten den Mut noch wir, Meister und Knaben, denn wer
Möcht' es hindern und wer möcht' uns die Freude verbieten ?
Göttliches Feuer auch treibet, bei Tag und bei Nacht,
Aufzuberchen. So komm ! daß wir das Offene schauen,
Daß ein Eigenes wir suchen, so weit es auch ist.
Fest bleibt Eins; es sei um Mittag oder es gehe
Bis in die Mitternacht, immer bestehet ein Maß,
Allen gemein, doch jeglichem auch ist eignes beschieden,
Dahin gehet und kommt jeder, wohin er es kann.
Drum ! und spotten des Spotts mag gern frohlockender Wahnsinn,

Wenn er in heiliger Nacht plötzlich die Sänger ergreift.

Drum an den Isthmos komm ! dorthin, wo das offene Meer rauscht
Am Parnaß und der Schnee delphische Felsen umglänzt,

Dort ins Land des Olymps, dort auf die Höhe Cithärons,
Unter die Fichten dort, unter die Trauben, von wo

Thebe drunten und Ismenos rauscht im Lande des Kadmos,
Dorther kommt und zurück deutet der kommende Gott.

4

Seliges Griechenland ! du Haus der Himmlischen alle,
Also ist wahr, was einst wir in der Jugend gehört ?

Festlicher Saal ! der Boden ist Meer ! und Tische die Berge,
Wahrlich zu einzigem Brauche vor alters gebaut !

Aber die Thronen, wo ? die Tempel, und wo die Gefässe,
Wo mit Nektar gefüllt, Göttern zu Lust der Gesang ?

Wo, wo leuchten sie denn, die fernhintreffenden Sprüche ?
Delphi schlummert und wo tönet das grosse Geschick ?

Wo ist das schnelle ? wo brichts, allgegenwärtigen Glücks voll
Donnernd aus heiterer Luft über die Augen herein ?

Vater Ather ! so riefs und flog von Zunge zu Zunge,
Tausendfach, es ertrug keiner das Leben allein;

Ausgeteilet erfreut solch Gut und getauschet, mit Fremden,
Wirds ein Jubel, es wächst schlafend des Wortes Gewalt :

Vater ! heiter ! und hallt, so weit es gehet, das uralt
Zeichen, von Eltern geerbt, treffend und schaffend hinab.

Denn so kehren die Himmlischen ein, tiefschütternd gelangt so
Aus den Schatten herab unter die Menschen ihr Tag.

5

Unempfunden kommen sie erst, es streben entgegen
Ihnen die Kinder, zu hell kommet, zu blendend das Glück,
Und es scheut sich der Mensch, kaum weiß zu sagen ein Halbgott
Wer mit Namen sie sind, die mit den Gaben ihm nahn.
Aber der Mut von ihnen ist gross, es füllen das Herz ihm
Ihre Freuden und kaum weiß er zu brauchen das Gut,
Schafft, verschwendet und fast ward ihm Unheiliges heilig,
Das er mit segnender Hand törig und gütig berührt.
Möglichst dulden die Himmlischen dies; dann aber in Wahrheit
Kommen sie selbst, und gewohnt werden die Menschen der Glücks
Und des Tags und zu schaun die Offenbaren, das Antlitz
Derer, welche, schon längst Eines und Alles genannt,
Tief die verschwiegene Brust mit freier Genüge gefüllet,
Und zuerst und allein alles Verlangen beglückt;
So ist der Mensch; wenn da ist das Gut, und es sorget mit Gaben
Selber ein Gott für ihn, kennet und sieht er es nicht.
Tragen muss er, zuvor; nun aber nennt er sein Liebstes,
Nun, nun müssen dafür Worte, wie Blumen entstehn.

6

Und nun denkt er zu ehren in Ernst die seligen Götter,
Wirklich und wahrhaft muss alles verkünden ihr Lob.
Nichts darf schauen das Licht, was nicht den Hohen gefället,
Vor den Äther gebührt Müssigversuchendes nicht.
Drum in der Gegenwart der Himmlischen würdig zu stehen,
Richten in herrlichen Ordnungen Völker sich auf

Untereinander und baun die schonen Tempel und Städte
Fest und edel, sie gehn über Gestaden empor -

Aber wo sind sie ? wo blühn die Bekannten, die kronen des Festes ?
Thebe welkt und Athen; rauschen die Woffen nicht mehr

In Olympia, nicht die goldnen Wagen des Kampfspiels,
Und bekränzen sich denn nimmer die Schiffe Korinths ?

Warum schweigen auch sie, die alten heiIgen Theater ?
Warum freuet sich denn nicht der geweihete Tanz ?

Warum zeichnet, wie sonst, die Stirne des Mannes ein Gott nicht,
Drückt den Stempel, wie sonst, nicht dem Getroffenen auf ?

Oder er kam auch selbst und nahm des Menschen Gestalt an
Und vollendet' und scholoss tröstend das himmlische Fest.

7

Aber Freund ! wir kommen zu spät. Zwar leben die Götter,
Aber über dem Haupt droben in anderer Welt.

Endlos wirken sie da und scheinens wenig zu achten,
Ob wir leben, so sehr schonen die Himmlischen uns.

Denn nicht immer vermag ein schwaches Gefäß sie zu fassen,
Nur zu Zeiten ertägt göttliche Fülle der Mensch.

Traum von ihnen ist drauf das Leben. Aber das Irrsal
Hilft, wie Schlummer, und stark machet die Not und die Nacht,

Bis dass Helden genug in der ehernen Wiege gewachsen,
Herzen an Kraft, wie sonst, ähnlich den Himmlischen sind.

Donnernd kommen sie drauf. Indessen dünket mir öfters
Besser zu schlafen, wie so ohne Genossen zu sein,

So zu harren, und was zu tun indes und zu sagen,
Weiss ich nicht, und wozu Dichter in dürftiger Zeit ?

Aber sie sind, sagst du, wie des Weingotts heilige Priester,
Welche von Lande zu Land zogen in heiliger Nacht.

8

Nämlich, als vor einiger Zeit, uns dünket sie lange,
Aufwärts stiegen sie all, welche das Leben beglückt,
Als der Vater gewandt sein Angesicht von den Menschen,
Und das Trauern mit Recht über der Erde begann,
Als erschienen zuletzt ein stiller Genius, himmlisch
Trsteönd, welcher des Tags End verkündet' und schwand,
Liess zum Zeichen, dass einst er da gewesen und wieder
Käme, der himmlische Chor einige Gaben zurück,
Derer menschlich, wie sonst, wir uns zu freuen vermöchten,
Denn zur Freude, mit Geist, wurde das Grössre zu gross
Unter den Menschen und noch, noch fehlen die Starken zu höchsten
Freuden, aber es lebt stille noch einiger Dank.
Brot ist der Erde Frucht, doch ists vom Lichte gesegnet,
Und vom donnernden Gott kommet die Freude des Weins.
Darum denken wir auch dabei der Himmlischen, die sonst
Da gewesen und die kehren in richtiger Zeit,
Darum singen sie auch mit Ernst, die Sänger, den Weingott
Und nicht eitel erdacht tönet dem Alten das Lob.

9

Ja ! sie sagen mit Recht, er söhne den Tag mit der Nacht aus,
Führe des Himmels Gestirn ewig hinunter, hinauf,
Allzeit froh, wie das Laub der immergrünenden Fichte,
Das er liebt, und der Kranz, den er von Efeu gewählt,

Weil er bleibet und selbst die Spur der entflohenen Götter
Götterlosen hinab unter das Finstere bringt.

Was der Alten Gesang von Kindern Gottes geweissagt,
Siehe ! wir sind es, wir; Frucht von Hesperien ists !

Wunderbar und genau ists also an Menschen erfüllet,
Glaube, wer es geprüft ! aber so vieles geschieht,

Keines wirket, denn wir sind herzlos, Schatten, bis unser
Vater Äther erkannt jeden und allen gehört.

Aber indessen kommt als Fackelschwinger des Höchsten
Sohn, der Syrier, unter die Schatten herab.

Selige Weise sehns; ein Lächeln aus der gefangnen
Seele leuchtet, dem Licht tauet ihr Auge noch auf.

Sanfter träumet und schläft in Armen der Erde der Titan,
Selbst der neidische, selbst Cerberus trinket und schläft.

المصادر

— Hölderlin, Sämtliche Werke. Herausegegeben von Friedrich Beiss ner. Frankfurt/M, Insel-Verlag, 1961. 1343 S.

— Friedrich Hölderlin. In Selbstzeugnissen und Bilddokumenten dargestellt von ulrich Häussermann. Hamburg, Rowohlt, 1961. 175 S.

— .Hölderlin. Ein Lesebuch für unsere Zeit. Von Tilly Bergner und Rudolf Leonhard. Weimar, Volksverlag, 1956. VIII, 4 90 S.

— Dilthey, wilhelm. Das Erlebnis und die Dichtung. 14. Auflage, Göttingen, Vandenhoeck & Ruprecht. S. 242 - 317.

— Martini, Fritz : Deutsche Literaturgeschichte, Neunte Auflage. Stuttgart, Alfred Krôner Verlag, 1958. S. 287 - 292

— Rehm, Walther : Griechentum und Goethezeit. Geschichte eines Glaubens. Dritte Auflage. Bern, A. Francke Verlag, 1952. S. 319-381

— Hölderlin. Introduced and edited by Michael Hamburger. with plain prose translations of each poem. Penguin Books, 1961, P. XXVII, 269.

— Heidegger, Martin : Erläuterungen zu Hölderlins Dichtung. Frankfurt am Main, V. Klostermann, 1951, 147 S.

الدكتور عبد الرحمن بدوى : فى الشعر الأوربى المعاصر ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥ ، ص ٣٢ — ٤٧

عبد الغفار مكاوى : لم الشعراء فى الزمن الضنين ؟ بين القلب والعقل والشعر والفلسفة مجلة الفكر المعاصر ، عدد سبتمبر ١٩٧١ ، ٦٥ — ٨٠

أعمال أخرى

١ – ابن السلطان (قصص) – دار المعارف – اقرأ – (٢٩٧) – ١٩٦٧

٢ – الست الطاهرة (قصص) – دار الكاتب العربى – القاهرة – ١٩٦٧

٣ – الموت والمدينة (مسرحية) – نشرت ضمن كتاب « مسرحيات فصل واحد »، كتابات معاصرة ، القاهرة ، ١٩٧٠ – ص ٥٧ – ٩٧

٤ – سافو ، شاعرة الحب والجمال عند اليونان – دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦

٥ – قصص من جوته ، دار المعارف ، اقرأ (٢٨٧) ، ١٩٦٦

٦ – ألبير كامى ، محاولة لدراسة فكره الفلسفى ، دار المعارف ، مكتبة الدراسات الفلسفية ، القاهرة ، ١٩٦٤

٧ – مدرسة الحكمة (دراسات فى الفلسفة) ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨

٨ – البلد البعيد (دراسات فى الأدب) ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٨

٩ – التعبيرية ، فى الشعر والقصة والمسرح . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، المكتبة الثقافية ٢٦٠ . القاهرة ١٩٧١

١٠ – ثورة الشعر الحديث (من بودلير إلى العصر الحاضر) ، فى جزأين القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٢ – ١٩٧٤ .

١١ – المسرح التعبيرى (تحت الطبع)

١٢ – قصائد من برتولت برخت ، دار الكاتب العربى بالقاهرة ، ١٩٦٧

١٣ – تأسيس ميتا فيزيقا الأخلاق (لكانت) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، المكتبة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٤ – كتاب الطريق والفضيلة – تاو – تى – كنج (للاو – تسى) ، مؤسسة سجل العرب ، الألف كتاب ٦٤٣ ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٥ – جوته ؛ تاسو – روائع المسرحيات العالمية العدد ٤٠ ، المؤسسة العامة للتأليف والنشر ١٩٦٧ .

١٦ — بشنر ؛ فويسك ، ليونس ولينا (مسرحيتان) — مسرحيات عالمية — ١٠ — ١٩٦٥ .

١٧ — بشنر ؛ موت دانتون (مسرحية) — نشرت فى مجلة المسرح ، العدد ٦١ ، أبريل ١٩٦٩ .

١٨ — برخت ؛ السيد بونتيلا وتابعه ماتى — مسرحيات عالمية ، العدد ٢١

١٩ — برخت ؛ الاستثناء والقاعدة — مسرحيات عالمية ، العدد ٦

٢٠ — ليبنتز ؛ المونادولوجيا والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهى ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٤ .

٢١ — لحن الحرية والصمت ، الشعر الألمانى بعد الحرب العالمية الثانية ، عالم الفكر ، ١٩٧٣ .

٢٢ — فلسفة العلو ، للأستاذ فولفجانج شتروڤه ، (تحت الطبع) .

٢٣ — الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت (قصص تحت الطبع) .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٧٦٤ /١٩٧٤

مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٤
١/ ٧٤/ ٤١

مجموعة نوابغ الفكر الغربى

النبوغ مثل العلم ، لا وطن له .. وإنما هو موهبة لدنية أولا وكسبية ثانياً . يمتاز بها فريق من الناس وينسحب أثرها وفخارها على البلد أو العصر أو القارة التى ينتمون إليها ، وما أجدر أن تكون آثار أولئك النوابغ ومجالى عظمتهم فى الفن والأدب والعلم مثالا يحتذى وأثراً يؤثر !

إن مقومات الفكر فى الشرق العربى كافية لخلق العالم والأديب فيه . . ولكنها تؤتى أعظم أكلها إذا امتزجت فيها مقومات الفكر الغربى ، وهذا ما تتوخاه هذه المجموعة .

إنها معرض حافل ، سوف يلتقى القراء فيه بجبابرة الفكر من رجال الغرب قديمهم وحديثهم . . أولئك الذين كانوا للعالم مصابيح هدى فأناروا له سبل العلم والمعرفة .

يمتاز كل كتاب من هذه المجموعة بترجمة وافية لحياة العبقرى الذى أفرد له ذلك الكتاب ، وبدراسة مفصلة عن أدبه وعلمه ومذهبه الفكرى ، كما يمتاز بصفوة مختارة من آثاره الموضحة لمنهج البحث منقولة إلى اللغة العربية ، ومنشورة إلى جانب الأصل الإفرنجى المنقولة عنه .

فعسى أن يحمد قراء العربية لهذه النافذة المطلة على الغرب ما تطالعهم به من رياض الفكر وجناته .

● صدر منها :

١ – نيتشه
٢ – برتراند رسل
٣ – برجسون
٤ – بسكال
٥ – أفلاطون
٦ – جون ستيوارت مل
٧ – ديفد هيوم
٨ – شيلر
٩ – تايلور
١٠ – وليم جيمس
١١ – جون ديوى
١٢ – ديكارت
١٣ – باركلى
١٤ – سان سيمون
١٥ – كولردج
١٦ – جون لوك
١٧ – ت . س . إليوت
١٨ – كوندرستيه
١٩ – لدفيج فتجنشتين
٢٠ – هيجل
٢١ – هلدرلين